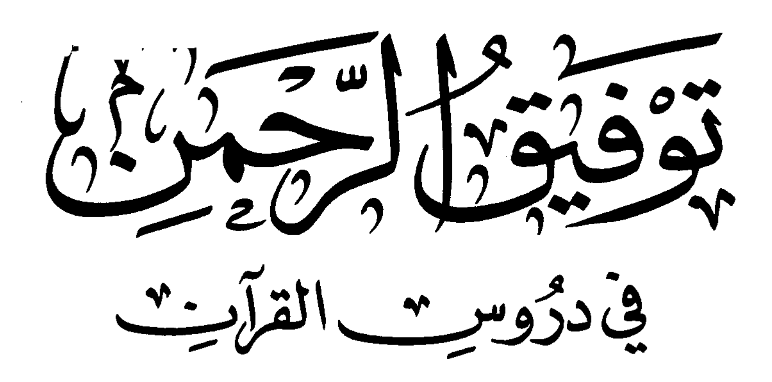
السلسلة السلفية للرسائل والكتب النجدية (٩)



توفيق الرحمن في دروس القرآن

تأليف

الشيخ فيصل بن عبد العزيز بن فيصل آل مبارك
(١٣١٣ - ١٣٦٦هـ)
رحمه الله

حققه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه

عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد

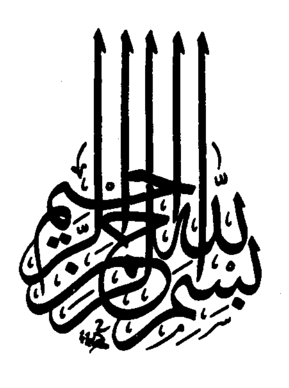
الجزء الرابع

من سورة الشورى إلى سورة الناس



دار العاصمة للنشر والتوزيع

دار العليان



الدرس الخمسون بعد المائتين

﴿سورة الشورى﴾

مكية وهي ثلاث وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى
الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن
يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي
شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ
آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا
أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ
الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ
رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَالْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۗ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي
السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ
الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم
مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا
وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ
لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ

حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

قال البغوي[1]: سئل الحسين بن الفضل: لِمَ قطع ﴿حم عسق﴾ ولم يقطع ﴿كهيعص﴾، فقال: لأنها سور أوائلها ﴿حم﴾ فجرت مجرى نظائرها، فكان: ﴿حم﴾ مبتدأ و ﴿عسق﴾ خبره، لأنّهما عُدّا آيتين، وأخواتهما مثل: ﴿كهيعص﴾ و ﴿المص﴾ و ﴿المر﴾، عُدّت آية واحدة. وعن قتادة قوله: ﴿تكاد السموات يتفطّرن من فوقهنّ﴾، أي: من عظمة الله وجلاله.

وعن ابن عباس: ﴿والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم﴾، قال: والملائكة يسبّحون له من عظمته. وعن السدي في قوله: ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾، قال: للمؤمنين. يقول عز وجل: ﴿ألا إنّ الله هو الغفور الرحيم﴾ لذنوب مؤمني عباده، الرحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨

(١) انظر: «معالم التنزيل» (٤/١٠٦).

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: وقوله سبحانه وتعالى ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يعني المشركين ﴿الله حفيظ عليهم﴾، أي: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدّها عدّاً وسيجزيهم بها أوفى الجزاء. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾، أي: إنما أنت نذير، والله على كل شيء وكيل.

﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيّاً﴾، قال البغوي[2]: ﴿وكذلك﴾ مثل ما ذكرنا ﴿أوحينا إليك قرآناً عربيّاً﴾، ﴿لتنذر أم القرى﴾ مكة يعني أهلها ﴿ومن حولها﴾ يعني قرى الأرض كلها ﴿وتنذر يوم الجمع﴾، أي: تنذرهم بيوم الجمع وهو يوم القيامة، يجمع الله الأوّلين والآخرين وأهل السموات والأرضين ﴿لا ريب فيه﴾ لا شكّ في الجمع أنه كائن، ثم بعد الجمع يتفرّقون فريق في الجنّة وفريق في السعير، ﴿ولو شاء الله لجعلهم أمّة واحدة﴾ قال ابن عباس: على دين واحد ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ في دين الإسلام ﴿والظالمون﴾ الكافرون ﴿ما لهم من وليّ﴾ يدفع عنهم العذاب ﴿ولا نصير﴾ يمنعهم من النار.

﴿أم اتخذوا﴾ بل اتخذوا أي الكافرون ﴿من دونه﴾، أي: من دون الله ﴿أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ وقال

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٠٦).

(٢) المصدر السابق (٤/١٠٧).

ابن كثير[١]: ينكر تعالى على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ويخبر أنه هو الوليّ الحقّ الذي لا تنبغي العبادة إلاّ له وحده، فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾، أي: مهما اختلفتم فيه من الأمور ﴿فحكمه إلى الله﴾، أي: هو الحاكم فيه.

وعن ابن عباس قوله ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه﴾ يقول: يجعل لكم فيه معيشة تعيشون بها. وعن مجاهد في قوله: ﴿يذرؤكم فيه﴾ قال: نسل بعد نسل من الناس والأنعام. **وقال ابن كثير**[٢]: أي يخلقكم فيه، أي في ذلك الخلق على هذه الصفة، لا يزال يذرؤكم فيه، ذكوراً وإناثاً، خلقاً من بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، من الناس والأنعام. ﴿ليس كمثله شيء﴾، أي: كخالق الأزواج كلها شيء، لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿وهو السميع البصير﴾.

وعن السدي ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ قال: حزائن السموات والأرض ﴿يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾. قال ابن جرير[٣]: يقول تعالى ذكره: فإلى من له مقاليد السموات والأرض، الذي صفته ما وصفت لكم في هذه الآيات، أيها الناس فارغبوا، وإياه فاعبدوا مخلصين له الدين، لا الأوثان والآلهة والأصنام التي لا تملك ضرّاً ولا نفعاً.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ

(١) المصدر السابق (٤/١٠٧).

(٢) المصدر السابق (٤/١٠٨).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٥/١٣).

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ .

عن مجاهد قوله: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً﴾ قال: ما أوصاك به وأنبياءه كلّهم دين واحد. وعن السدي في قوله: ﴿أن أقيموا الدين﴾ قال: اعملوا به ﴿ولا تتفرّقوا فيه﴾ قال قتادة: اعلموا أن الفرقة هلكة وأن الجماعة ثقة. ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ قال: أنكرها المشركون وكبر عليهم شهادة أن لا إله إلاّ الله فصادمها إبليس وجنوده، فأبى الله تبارك وتعالى أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من ناوأها. وعن مجاهد قوله: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾، أي: يصطفي إليه من يشاء من خلقه ﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ قال السدي: من يُقبل إلى طاعة الله. ﴿وما تفرّقوا إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ **قال ابن جرير**[1]: يقول: بغياً من بعضكم على بعض، وحسداً وعداوة على

(١) المصدر السابق (٢٥/١٦).

طلب الدنيا. وعن السدي: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى﴾ قال: يوم القيامة يقضي بينهم ﴿وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم﴾ قال: اليهود والنصارى ﴿لفي شكّ منه مريب﴾ ﴿فلذلك فادع﴾، أي: إلى ما وصّينا به الأنبياء من التوحيد ﴿واستقم﴾ على الدين ﴿كما أمرت ولا تتّبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت أن أعدل بينكم﴾ كما أمرني الله.

وقوله: ﴿الله ربنا وربكم﴾، أي: هو المعبود لا إله غيره ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ كقوله تعالى: ﴿وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾؛ ﴿لا حجّة بيننا وبينكم﴾ قال مجاهد: لا خصومة ﴿الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ **قال ابن كثير**[1]: اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلّات، كلّ منها منفصلة عن التي قبلها حكم برأسها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسيّ، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه. وعن مجاهد ﴿والذين يحاجّون في الله من بعد ما استجيب له﴾ قال: طمع رجال بأن تعود الجاهلية ﴿حجّتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد﴾ وقال قتادة: هم اليهود والنصارى قالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبيّنا قبل نبيّكم ونحن خير منكم. وعن مجاهد قوله: ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان﴾ قال: العدل ﴿وما يدريك لعلّ الساعة قريب﴾. وقال مقاتل: ذكر النبي ﷺ الساعة ذات يوم وعنده قوم من المشركين، فقالوا تكذيباً: متى تكون الساعة؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحقّ إلاّ إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٠٩).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٤/ ١١٠).

ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ إلى ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ قال يقول: من كان إنما يعمل للدنيا نؤته منها. وقال ابن زيد: الحرث العمل، من عمل للآخرة أعطاه الله، ومن عمل للدنيا أعطاه الله. قال في جامع البيان ﴿أم لهم شركاء﴾ بل لهم آلهة وهم الشياطين، والهمزة للتحقيق والتثبيت. ﴿شرعوا﴾ أظهروا لهم ﴿من الدين﴾ غير دين الإسلام ﴿ما لم يأذن به الله﴾ وهذا إضراب عن قوله ﴿شرع لكم من الدين﴾ إلى آخره ﴿ولولا كلمة الفصل﴾ القضاء السابق بتأجيل العذاب إلى القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ بين المؤمنين والكافرين في الدنيا. وعن ابن عباس قوله: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾ قال: كان لرسول الله ﷺ قرابة في جميع قريش، فلما كذّبوه وأبوا أن يتابعوه قال: «يا قوم إذا أبيتم أن تتابعوني فاحفظوا قرابتي فيكم، لا يكن غيركم من

العرب أولى بحفظي ونصرتي منكم»[١].

وقال ابن زيد في قوله ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ قال: من يعمل خيراً نزد له؛ الاقتراف: العمل ﴿إن الله غفور شكور﴾ قال قتادة: غفور للذنوب شكور للحسنات ويضاعفها. قال في جامع البيان ﴿أم يقولون﴾ بل يقولون، إضراب آخر أشدّ من قوله ﴿أم لهم شركاء﴾. ﴿أفترى﴾ محمد ﷺ ﴿كذباً﴾؟ ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ قال قتادة: فينسيك القرآن. قال ابن كثير: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم الجاهلون.

وقوله تعالى: ﴿ويمح الله الباطل ويحقّ الحقّ بكلماته﴾ قال ابن جرير: وقوله: ﴿ويمح الله الباطل﴾ في موضع رفع بالابتداء، ولكنه حذفت منه الواو في المصحف كما حذفت من قوله: ﴿سَنَدْعُ الزبانية﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾ **قال البغوي**[٢]: ﴿ويستجيب الذين آمنوا﴾، أي: ويجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات إذا دعوه ﴿ويزيدهم من فضله﴾ سوى ثواب أعمالهم، تفضّلاً منه ﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾.

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (٢٥/ ٢٣)، والطبراني (١٢/ ٢٥٥)، بسند ضعيف.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ١١٣).

الدرس الحادي والخمسون بعد المائتين

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

عن قتادة ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ الآية، قال: كان يقال: خير الرزق ما لا يطغيك ولا يلهيك؛ وقال: ذكر أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين قحط المطر، وقنط الناس، قال: مُطِرْتُمْ ﴿وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته﴾[١]. وعن قتادة ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ الآية، ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ كان يقول: «لا يصيب ابن آدم خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلاّ بذنب، وما يعفو عنه أكثر»[٢]. وعن مجاهد قوله: ﴿الجواري في البحر﴾ قال: السفن

(١) أخرجه ابن جرير (٢٥/ ٣١).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٥/ ٣٣) عن قتادة مرسلاً وبنحوه مرفوعاً من حديث أبي موسى ــ رضي الله عنه ــ: «لا يصيب عبداً نكبة فما فوقها أو دونها إلاّ بذنب، وما يعفوا الله عنه أكثر وقرأ: ﴿وما أصابكم من مصيبة. . .﴾ الآية، أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٥٢) بسند ضعيف.

﴿كالأعلام﴾ قال: كالجبال. قال ابن كثير[١]: وقوله تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص﴾، أي: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

قوله عز وجل: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قال البغوي[٢]: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ يتشاورن فيما يبدو لهم ولا يعجلون. وعن السدي في قوله: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ قال: ينتصرون ممن بغى عليهم، من غير أن يعتدوا. ﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها﴾ إذا شتمك بشتيمة فاشتمه مثلها من غير أن تعتدي. وقال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم إلاَّ من عفا، ثم قرأ: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين﴾[٣]. قال ابن عباس: الذين يُبدؤون بالظلم.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١١٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١١٥).

(٣) وروي مسنداً من حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البيهقي في «الشعب» (٦/ ٣١٥)، والطبراني في «مكارم الأخلاق» (ح/ ٥٥) بسند ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾، **قال ابن كثير**[١]: أي صبر على الأذى وستر السيئة فإن ﴿ذلك لمن عزم الأمور﴾ قال سعيد بن جبير: يعني لمن حقّ الأمور التي أمر الله تعالى بها.

قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

عن السدي في قوله: ﴿هل إلى مردّ من سبيل﴾ يقول: إلى الدنيا ﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ **قال البغوي**[٢]: أي على النار ﴿خاشعين من الذلّ ينظرون من طرف خفيّ﴾، قال ابن عباس: يعني بالخفيّ الذليل ﴿وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ قال السدي: غبنوا أنفسهم وأهليهم في الجنّة. **وقال ابن كثير**[٣]: خسروا أنفسهم، وفُرّق بينهم وبين أهاليهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١١٩).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١١٦).

(٣) المصدر السابق (٤/ ١٢٠).

فخسروهم ﴿ألا إنَّ الظالمين في عذاب مقيم﴾. وعن السدي ﴿مالكم من ملجأ يومئذٍ﴾ تلجؤون إليه ﴿وما لكم من نكير﴾ يقول: من عزٍّ تعتزّون. وعن قتادة قوله: ﴿يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور﴾ قادر واللَّهِ ربُّنا على ذلك، أن يهب للرجل ذكوراً ليست معهم أنثى، وأن يهب للرجل ذكراناً وإناثاً فيجمعهم له جميعاً ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ لا يولد له ﴿إنه عليم قدير﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

قال ابن كثير[١]: هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تبارك وتعالى يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجمِلوا في الطلب»[٢].

وقوله تعالى: ﴿أو من وراء حجاب﴾ كما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها؛ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٢١).

(٢) أخرجه ــ بهذا اللفظ ــ أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٧) من حديث أبي أمامة بسند ضعيف، لكن له الشاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بنحوه: أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٣ ــ ٣٠٥)، والحاكم (٢/ ٤)، بسند ضعيف، وله شاهد من حديث جابر ــ رضي الله عنه ــ بنحوه: أخرجه ابن حبان (٥/ ٩٨ و ٩٩)، والحاكم (٢/ ٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وروي مرسلاً عن المطلب: أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٣)، فالحديث بشواهده صحيح إن شاء الله تنبيه: لم يرد هذا الحديث بهذا اللفظ عند ابن حبان كما توهمه ابن كثير، وتبعه عليه المصنف ــ رحمهما الله ــ .

لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «ما كلّم الله أحداً إلاّ من وراء حجاب، وإنه كلّم أباك كفاحاً»[١]. كذا جاء في الحديث؛ وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ؛ والآية إنما هي في الدار الدنيا. **وقوله عز وجل:** ﴿أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿إنه عليّ حكيم﴾ فهو عليّ عليم خبير حكيم. **وقوله عز وجل:** ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ يعني القرآن ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾، أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ولكن جعلناه﴾، أي: القرآن ﴿نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾، كقوله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم، وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادَوْن من مكان بعيد﴾[٢]. **وقوله تعالى:** ﴿وإنك﴾، أي: يا محمد ﴿لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ وهو الحق القويم؛ ثم فسّره بقوله تعالى: ﴿صراط الله﴾، أي: شرعه الذي أمر به ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: ربهما ومالكهما والمتصرّف فيهما، والحاكم الذي لا معقّب لحكمه ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾.

● ● ●

(١) هذا الحديث ليس في الصحيح كما توهمه ابن كثير، وتبعه عليه المصنف رحمهما الله، فالحديث: أخرجه الترمذي (ح/ ٣٠١٠)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (ح/ ١٩٠)، وابن خزيمة في «التوحيد» (ح/ ٥٩٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٩٨ و ٢٩٩).

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٤.

الدرس الثاني والخمسون بعد المائتين

﴿سورة الزخرف﴾

مكية، وهي تسع وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ (٨) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ (٩) ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ

لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ۞.

* * *

قوله عز وجل: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

عن السدي ﴿حم والكتاب المبين﴾ هو هذا الكتاب. قال قتادة: ﴿مبين﴾ واللَّهِ بركته وهداه ورشده. وعن عطية بن سعد في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم﴾ يعني القرآن، في أمّ الكتاب الذي عند الله منه نُسِخَ. وعن قتادة ﴿لدينا لعليّ حكيم﴾ يخبر عن منزلته وفضله وشرفه.

وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾ قال: يكذبون بالقرآن لا يعاقبون عليه. وعن ابن عباس قوله: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين﴾ يقول: أحسبتم أن نصفح عنكم ولما تفعلوا ما أمرتم به؟ وقال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رفع حين رَدَّهُ أوائل هذه الأمة لهلكوا، فدعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك. ﴿وكم أرسلنا من نبـيّ في الأولين وما يأتيهم من نبـيّ إلاّ كانوا به يستهزئون﴾ لاستهزاء قومك ﴿فأهلكنا أشدّ منهم بطَشاً﴾، أي: أقوى من قومك ﴿ومضى مثل الأوّلين﴾ قال قتادة عقوبة الأوّلين.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً

مَيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

قال ابن كثير[١]: يقول تعالى ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم﴾ ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد؛ ثم قال تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾، أي: فراشاً ﴿وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون﴾. وعن قتادة ﴿والذي نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون﴾ كما أحيا الله هذه الأرض الميتة بهذا الماء، وكذلك تبعثون يوم القيامة.

﴿والذي خلق الأزواج كلّها﴾ **قال البغوي**[٢]: أي الأصناف كلّها ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ في البر والبحر ﴿لتستووا على ظهوره﴾ ذكر الكناية لأنه ردّها إلى «ما» ﴿ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ بتسخير المراكب في البر والبحر ﴿وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ مطيقين ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ **قال ابن كثير**[٣]: أي لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه مسيرنا الأكبر؛ وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبّه بالزاد الدنيويّ على الزاد الأخرويّ في قوله تعالى: ﴿وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى﴾[٤]، وباللباس الدنيويّ على الأخرويّ في قوله تعالى: ﴿وريشاً ولباس

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٢٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٢٠).

(٣) المصدر السابق (٤/ ١٢٣).

(٤) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

التقوى ذلك خير﴾[1]. وعن قتادة ﴿لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ يعلّمكم كيف تقولون إذا ركبتم في الفلك، تقولون: ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾[2]، وإذا ركبتم الإبل قلت: ﴿سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾، ويعلّمكم ما تقولون إذا نزلتم من الفلك والأنعام جميعاً تقولون: «اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزِلين».

قوله عز وجل: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

عن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿وجعلوا له من عباده جزءا﴾ قال: ولداً، وبنات من الملائكة، وعن قتادة ﴿وجعلوا له من عبادة جزءا﴾، أي: عدلاً؛ وقال

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

(٢) سورة هود: الآية ٤١.

البغوي[1]: أي نصيباً وبعضاً، وهو قولهم: ﴿الملائكة بنات الله﴾؛ ومعنى الجَعْلِ ههنا: الحكم بالشيء، والقول كما تقول: جعلت زيداً أفضل الناس. ﴿إن الإنسان﴾ يعني الكافر ﴿لكفور﴾ لجحود لنعم الله ﴿مبين﴾ ظاهر الكفران. ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات﴾ هذا استفهام توبيخ وإنكار، يقول: أَتَّخَذَ ربكم لنفسه البنات وأصفاكم بالبنين؟ كقوله: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً﴾[2].

﴿وإذا بُشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً﴾، أي: بما جعل لله بشراً، وذلك أنّ وَلَدَ كلّ شيء يُشبهه، يعني إذا بُشّر أحدهم بالبنات ــ كما ذكر في سورة النحل ــ ﴿وإذا بُشّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم﴾[3] من الغيظ والحزن. ﴿أو من يُنَشَّؤُ﴾، أي: يُرَبّى ﴿في الحِلْيَة﴾ في الزينة ــ يعني النساء ــ ﴿وهو في الخصام غير مبين﴾ للحجّة، من ضعفهنّ ومتعهنّ. قال قتادة: قلّما تكلّم امرأة تريد أن تتكلّم بحجّتها، إلاّ تكلّمت بالحجّة عليها؛ مجازه: أو من ينشّؤ في الحلية، يجعلونه بنات الله؟.

﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم﴾، أي: أحضروا خلقهم حين خلقوا؟ ﴿ستكتب شهادتهم﴾ على الملائكة أنهم بنات الله ﴿ويُسألون﴾ عنها. ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ يعني الملائكة ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يخرصون أم آتيناهم كتاباً من قبله﴾، أي: من قبل القرآن، بأن يعبدوا غير الله ﴿فهم به مستمسكون﴾، ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة﴾ على دين وملّة ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ جعلوا أنفسهم باتباع آبائهم مهتدين ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها﴾ أغنياؤها ورؤساؤها ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ بهم ﴿قال أو لو

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٢١).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٤٠.

(٣) سورة النحل: الآية ٥٨.

جئتكم بأهدى﴾ بدين أصوب ﴿مما وجدتم عليه آباءكم﴾ قال الزجاج قال لهم: أتتّبعون ما وجدتم عليه آباءكم، وإن جئتكم بأهدى منه؟ فأبوا أن يقبلوه ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين﴾. انتهى ملخصاً.

وعن قتادة ﴿فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ قال: شرٌّ واللّهِ، أخذهم بخسف وغرق، ثم أهلكهم فأدخلهم النار.

● ● ●

الدرس الثالث والخمسون بعد المائتين

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلاَّ الذي فطرني فإنه سيهدين﴾ قال: كايدهم، كانوا يقولون: الله ربنا، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن: الله، فلم يبرأ من ربّه، ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ قال: التوحيد والإخلاص، ولا يزال في وريثه من يوحّد الله ويعبده ﴿لعلّهم يرجعون﴾، أي: يتوبون أو يذكرون. وعن السدي: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ قال: لا إله إلاَّ الله. قال في جامع البيان ﴿بل متّعت هؤلاء﴾، أي: قومك، فإنهم من عقب إبراهيم ﴿حتى جاءهم الحق﴾ القرآن: ﴿ورسول مبين﴾ ظاهر الرسالة ﴿ولما جاءهم الحقّ قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ قال: يعني بالعظيم الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو الثقفي؛ وبالقريتين: مكّة والطائف. وقال ابن زيد: كان أحد العظيمين عروة بن مسعود الثقفيّ. وعن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾[1] وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر﴾ يعني أهل الكتب الماضية، أبشر كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أتتكم، وإن كانوا بشراً فلا ينكروا أن يكون محمد رسولاً. قال: ثم قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾، أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم، قال: فلما كرّر الله عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحقّ بالرسالة: فلولا ﴿نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ يقولون: أشرف من محمد ﷺ، يعنون الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان يسمى ريحانة قريش، هذا من مكّة ومسعود بن عمرو الثقفي من أهل الطائف؛ قال: يقول الله عز وجل ردّاً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أنا أفعل ما شئت.

وعن قتادة قال: قال الله تبارك وتعالى: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم﴾ فتلقاه ضعيف الحيلة عييّ اللسان، وهو مبسوط له في الرزق، وتلقاه شديد الحيلة بسيط اللسان. قال جلّ ثناؤه: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾ كما قسم بينهم صورهم: ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ قال: ملكة. وقال السدي: يستخدم بعضهم بعضاً في السخرة. وقال ابن زيد: هم بنو آدم جميعاً وهذا عبد هذا، ورفع هذا

(١) سورة يونس: الآية ٢، والأثر أخرجه ابن جرير (٢٥/ ٦٢) بسند ضعيف.

على هذا درجة، فهو يسخّره بالعمل يستعمله به. ﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ قال السدي يقول: الجنّة خير مما يجمعون في الدنيا. وعن الحسن في قوله ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ قال: لولا أن يكون الناس كفاراً أجمعون يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها؛ وما فعل ذلك، فكيف لو فعله؟ وعن قتادة: ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضة﴾ السقف أعلى البيوت ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾، أي: درجاً عليها يصعدون. قال ابن زيد: ﴿من فضّة﴾. ﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتّكئون﴾ قال: الأبواب من فضّة، والسرر من فضّة. وعن ابن عباس: ﴿وزخرفاً﴾ وهو الذهب. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وزخرفاً﴾ لجعلنا هذا لأهل الكفر، يعني لبيوتهم سقفاً من فضّة وما ذكر معها؛ قال: والزخرف: سمّي هذا الذي سمّي السقف والمعارج والأبواب والسرر من الأثاث والفرش والمتاع. وعن قتادة: ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ خصوصاً. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[1].

قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧).

قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: قوله عز وجل: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾، أي: يعرض عن ذكر الرحمن، فلم يخف عقابه ولم يرج ثوابه. **قال القرطي**[2]: يولّ ظهره عن ذكر الرحمن، وهو القرآن. قال أبو عبيدة: يُظْلِم بصره عنه ﴿نقيّض له شيطاناً﴾ نسبّب له شيطاناً، ونضمه إليه ونسلّطه عليه ﴿فهو له قرين﴾ لا يفارقه، يزيّن له العمى ويخيّل إليه أنه على الهدى ﴿وإنهم﴾ يعني الشياطين ﴿ليصدّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون﴾ ويحسب كفار بني آدم أنهم على هدى ﴿حتى إذا جاءنا قال﴾ لقرينه ﴿يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين﴾، أي: بعد ما بين المشرق والمغرب، فغلب اسم أحدهما على الآخر، كما يقال: القمران والعُمَران ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ في الآخرة ﴿إذ ظلمتم﴾ أشركتم في الدنيا ﴿أنكم في العذاب مشتركون﴾ لا ينفعكم الاشتراك في العذاب، لأن لكل واحد من الكفار والشياطين الحظّ الأوفر من العذاب ﴿أفأنت تسمع الصمّ أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾؟ يعني الكافرين الذين حقّت عليهم كلمة العذاب لا يؤمنون ﴿فإما نذهبنّ بك﴾ بأن نميتك قبل أن نعذّبهم ﴿فإنا منهم منتقمون﴾ بالقتل بعدك ﴿أو نرينّك﴾ في حياتك: ﴿الذي وعدناهم﴾ من العذاب ﴿فإنا عليهم مقتدرون﴾ قادرون، متى شئنا عذّبناهم؛ وأراد به مشركي مكّة انتقم منهم يوم بدر ﴿فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم وإنه﴾، أي: القرآن ﴿لذكر لك﴾ لشرف لك ﴿ولقومك﴾ من قريش ﴿وسوف تُسألون﴾ عن حقّه، وأداء شكره. وقال مجاهد: القوم هم العرب، فالقرآن لهم شرف إذ نزل بلغتهم، ثم يختصّ بذلك الشرف الأخصّ فالأخصّ من العرب، حتى يكون الأكثر لقريش ولبني هاشم. قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾؟

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٢٥).

(٢) في (الأصل): «القرطبي»، وهو خطأ.

قال أكثر المفسرين: سل مؤمني أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم الأنبياء: هل جاءتهم الرسل إلاَّ بالتوحيد؟ ومعنى الأمر بالسؤال: التقرير لمشركي قريش أنه لم يأت رسول ولا كتاب بعبادة غير الله عز وجل. انتهى ملخصاً.

وقال ابن كثير[1]: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾، أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه، من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله جلّت عظمته ﴿ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[2]. قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا، وهذا كأنه تفسير لا تلاوة. والله أعلم.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٢٩).

(٢) سورة النحل: الآية ٣٦.

الدرس الرابع والخمسون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ
أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ
ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ
يَنكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ
الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا
يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ
مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا
آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْآخِرِينَ (٥٦) ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧)
وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ
إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً
فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ
بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ

ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ
وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا
تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ
ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾
لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ
يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ
لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن
سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا
يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ».

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون﴾ استهزاء ﴿وما نريهم من آية إلاَّ هي أكبر من أختها﴾ قرينتها وصاحبتها التي كانت قبلها ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ بالسنين، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، والطمس، فكانت هذه دلالات لموسى وعذاباً لهم، فكانت كل واحدة أكبر من التي قبلها ﴿لعلّهم يرجعون﴾ عن كفرهم. ﴿وقالوا﴾ لموسى لمّا عاينوا العذاب ﴿يا أيها الساحر﴾ يا أيها العالم الحاذق ـ لأن السحر عندهم كان علماً عظيماً ـ ﴿ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾، أي: بما أخبرتنا من عهده إليك، إن آمنا كشف عنا العذاب، فاسأله يكشف عنا العذاب ﴿إننا لمهتدون﴾ مؤمنون، فدعا موسى فكشف عنهم فلم يؤمنوا، فذلك قوله عز وجل: ﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون﴾ ينقضون عهدهم ويصرّون على كفرهم.

قوله عز وجل: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٢٧).

هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

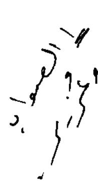
عن قتادة: ﴿وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ قال: كانت لهم جنات وأنهار ماء. وعن السدي قوله: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين﴾ قال: بل أنا خير من هذا. وعن قتادة: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مَهين﴾ قال: ضعيف: ﴿ولا يكاد يُبين﴾، أي: عيّـي اللسان. ﴿فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب﴾، أي: أقلبة من ذهب ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾، أي: متتابعين. ﴿فاستخفّ قومه﴾ قال البغوي[1]، أي: وجدهم جهّالاً فأطاعوه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾. ﴿فلما آسفونا﴾ أغضبونا ﴿انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفاً﴾ متقدّمين يتّعظ بهم الآخرون ﴿ومثلاً للآخرين﴾ عبرة وعظة لمن بقي بعدهم. وعن معمر ﴿فجعلناهم سلفاً﴾ قال: سلفاً إلى النار. وقال مجاهد: قوم فرعون سلفاً لكفّار أمّة محمد ﷺ ﴿ومثلاً للآخرين﴾ قال: عبرة لمن بعدهم.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى

(١) المصدر السابق (٤/١٢٨).

تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

عن ابن عباس: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون﴾ قال: يعني قريشاً، لما قيل لهم: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله»، فقالوا: والله ما يريد هذا إلاَّ أن نتّخذه ربّاً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربّاً، فقال الله عز وجل: ﴿ما ضربوه لك إلاَّ جدلاً بل هم قوم خصمون﴾. وعن مجاهد: ﴿إذا قومك منه يصدّون﴾ قال: يضجّون. وعن السدي في قوله: ﴿آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلاَّ جدلاً بل هم قوم خصمون﴾ قال: خاصموه فقالوا: يزعم أن كل من عُبِدَ من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزيز والملائكة، هؤلاء قد عُبِدُوا من دون الله؛ قال: فأنزل الله براءة عيسى. وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلّ قوم بعد هدي كانوا عليه، إلاَّ أوتوا الجدل، ثم قرأ: ﴿ما ضربوه لك إلاَّ جدلاً﴾ الآية»[1]. رواه ابن جرير وغيره.



وعن قتادة: ﴿إن هو إلاَّ عبد أنعمنا عليه﴾ يعني بذلك عيسى ابن مريم، ما عدا ذلك عيسى ابن مريم، إن كان إلاَّ عبداً أنعم الله عليه ﴿وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾، أي: آية ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ قال: يخلف بعضهم بعضاً مكان بني آدم: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ قال: نزول عيسى ابن مريم: ﴿علم للساعة﴾ القيامة. ﴿ولما جاء عيسى بالبيّنات﴾، أي: الإنجيل ﴿قال

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢ و ٢٥٦)، والترمذي (ح/ ٣٢٥٣)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (ح/ ٤٨)، وابن جرير (٢٥/ ٨٨)، والحاكم، وصححه (٢/ ٤٤٨)، ووافقه الذهبي، قلت: وهو حديث حسن.

قد جئتكم بالحكمة﴾ قال السدي: النبوّة: ﴿ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ قال مجاهد: من تبديل التوراة. وعن السدي في قوله: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ قال: اليهود والنصارى ﴿فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم﴾ عذاب يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلاَّ المتّقين﴾ فكلّ خلّة هي عداوة، إلاَّ خلّة المتّقين. وعن قتادة قال: حدّثنا المعتمر عن أبيه قال: سمعت أن الناس حين يبعثون ليس منهم أحد إلاَّ فزع، فينادي منادٍ يا عباد الله: ﴿لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون﴾ فيرجوها الناس كلّهم، قال: فيُتبعها ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾ قال: فيئس الناس منها غير المسلمين. وعن قتادة: ﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحبرون﴾، أي: تنعمون.

وقوله تعالى: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ قال السدي: الأكواب التي ليست لها آذان. وقال ابن كثير[1]: ﴿وأكواب﴾ وهي آنية الشراب،

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٣٤).

أي: من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى. وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «جنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عَدْنٍ»[١]. وعن شعبة قال: أدنى أهل الجنة منزلة من له قصر فيه سبعون ألف خادم، مع كل خادم صحفة سوى ما في يد صاحبه، لو فتح بابه فضافه أهل الدنيا لأوسعهم. وعن عبد الرحمن بن سابط قال: قال رجل: يا رسول الله أفي الجنّة خيل؟ فإني أحبّ الخيل فقال: «إن يدخلك الله الجنّة، فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء تطير بك في أي الجنّة شئت إلاّ فعلت». وقال أعرابيّ: يا رسول الله أفي الجنة إبل؟ فإنّي أحبّ الإبل. فقال: «يا أعرابيّ، إن يدخلك الله الجنة، أصبت فيها ما اشتهت نفسك ولذّت عينك»[٢].

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٧٨ و ٤٨٨٠ و ٧٤٤٤)، ومسلم (ح/ ١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٥/ ٩٧)، والترمذي (٤/ ٥٨٨) وساق سنده ومتنه عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً، وروي مسنداً من حديث بريدة رضي الله عنه أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٢)، والترمذي (ح/٢٥٤٣)، والطيالسي (ح/٢٨٣٨)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (ح/ ٤٢٥) بسند ضعيف، وذكر الترمذي أن حديث عبد الرحمن بن سابط المرسل أصح من حديث المسعودي المسند (٤/ ٥٨٨).

عن قتادة: ﴿وهم فيه مبلسون﴾ قال: آيسون. وقال السدي: متغيّر حالهم. وعن ابن عباس: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ فأجابهم بعد ألف سنة: ﴿إنكم ماكثون﴾. وعن السدي ﴿لقد جئناكم بالحقّ﴾ قال: الذي جاء به محمد ﷺ ﴿ولكن أكثركم للحقّ كارهون﴾. ﴿أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون﴾ قال مجاهد: مجمعون، إن كادوا شرّاً كِدْناً مثله. وقال ابن زيد: محكمون لأمرنا. وقال بعض المفسرين: ثم عاد إلى توبيخ قريش وتجهيلهم والتعجيب من حالهم فقال: ﴿أم أبرموا أمراً﴾ والإبرام: الإحكام، والمعنى أنهم كلما أحكموا أمراً بالمكر بمحمد ﷺ، فإنا نحكم أمراً في محاذاتهم. وعن السدي: ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ قال: الحفظة.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

عن السدي: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ قال: لو أن له ولداً كنت أول من عبده، بأن له ولداً، ولكن لا ولد له. **قال ابن كثير**[1]: والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً، كما قال تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتّخذ ولداً

(١) المصدر السابق (٤/١٣٦).

لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾[١].

قال البغوي[٢]: ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون﴾ عما يقولون من الكذب ﴿فذرهم يخوضوا﴾ في باطلهم: ﴿ويلعبوا﴾ في دنياهم ﴿حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة. ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾ قال قتادة: يُعبد في السماء والأرض لا إله إلاَّ هو ﴿وهو الحكيم﴾ في تدبير خلقه ﴿العليم﴾ بمصالحهم. وعن مجاهد قوله: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ قال: عيسى وعزيز والملائكة؛ قوله: ﴿إلاَّ من شهد الحق﴾ قال: كلمة الإخلاص ﴿وهم يعلمون﴾ أن الله حق. وعزيز والملائكة يقول: لا يشفع عيسى وعزيز والملائكة ﴿إلاَّ من شهد بالحق﴾ وهو يعلم الحق. وقال قتادة: الملائكة وعيسى والعزيز قد عُبدوا من دون الله، ولهم شفاعة عند الله ومنزلة.

وقال ابن كثير[٣]: ﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه﴾، أي: من الأصنام والأوثان: ﴿الشفاعة﴾، أي: لا يقدرون على الشفاعة لهم ﴿إلاَّ من شهد بالحق وهم يعلمون﴾ هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. **قال البغوي**[٤]: وأراد بشهادة الحق قول: لا إله إلاَّ الله كلمة التوحيد، وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم. ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله فأنى يؤفكون﴾ يُصرفون عن عبادته: ﴿وقيلِهِ يا ربّ﴾ يعني قول محمد ﷺ شاكياً إلى ربه: ﴿يا رب إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ قرأ عاصم وحمزة: وقيله بجر اللام، على معنى: وعنده علم الساعة، وعلم: قيلِهِ يا رب إن

---

(١) سورة الزمر: الآية ٤.

(٢) انظر: «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٢).

(٣) المصدر السابق (٤/ ١٣٦).

(٤) المصدر السابق (٤/ ١٣٢).

هؤلاء قوم لا يؤمنون. وعن قتادة: قال الله تبارك وتعالى يعزّي نبيّه ﷺ: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾ ثم أمره بقتالهم.

وقال ابن كثير[1]: ﴿وقل سلام﴾، أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيِّىء، ولكن تألّفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ﴿فسوف يعلمون﴾.

● ● ●

(١) المصدر السابق (٤/ ١٣٧).

الدرس الخامس والخمسون بعد المائتين

﴿سورة الدخان﴾

مكية، وهي تسع وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟

مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

عن قتادة: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ ليلة القدر، ونزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، ونزلت التوراة لستّ ليال مضت من رمضان، ونزل الإنجيل لثمان عشرة مضت من رمضان، ونزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان. وقال ابن زيد: أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أمّ الكتاب إلى السماء الدنيا، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ نجوماً في عشرين سنة. وقيل للحسن: ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: إي والله، إنها لفي كلّ رمضان، وإنها الليلة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كلّ أجل وأمل ورزق إلى مثلها.

وقال ابن كثير[1]: وقوله: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾، أي: في ليلة القدر، يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنَّة وما يكون فيها ﴿أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين رحمة من ربك﴾ قال ابن عباس: رأفة مني بخلقي ونعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل. **قال ابن جرير**[2]: وقوله: ﴿لا إله إلاّ هو﴾ يقول: لا معبود لكم أيها الناس غير ربّ السموات والأرض وما بينهما، فلا تعبدوا غيره، فإنه لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٣٧).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٥/ ١١٠).

قوله عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

عن قتادة: ﴿فارتقب﴾، أي: فانتظر. وعن مسروق قال: دخلنا المسجد فإذا رجل يقصّ على أصحابه ويقول: ﴿ويوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة فيأخذ أسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام، قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له وكان مضطجعاً ففزع فقعد فقال: «إن الله عز وجل قال لنبيّه ﷺ: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين﴾ إنّ من العلم أن يقول الرجل لِمَا لا يَعلم: الله أعلم، سأحدّثكم عن ذلك: إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كَسِني يوسف، فأصابهم من الجهل والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلاّ الدخان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾ فقالوا: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ قال الله جلّ ثناؤه: ﴿إن كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون يوم نطبش البطشة الكبرى إنا منتقمون﴾ قال: فعادوا يوم بدر فانتقم الله منهم»[١].

وعن مجاهد: ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ قال: الجدب، وإمساك المطر عن كفار قريش، إلى قوله: ﴿إنا مؤمنون﴾. وروى مسلم من حديث أبـي سريحة حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٧٤).

«لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجّال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، تبيت معهم حيث باتوا وتَقِيل معهم حيث قالوا»[١]. وهذا الحديث لا ينافي وقوع الدخان بكفار قريش، فذلك قد وقع، وهذا منتظَر.

وقوله تعالى: ﴿أنى لهم الذكرى﴾ قال البغوي[٢]: من أين لهم التذكير والاتّعاظ؟ يقول: كيف يتذكّرون ويتّعظون ﴿وقد جاءهم رسول مبين﴾ ظاهر الصدق، يعني محمداً ﷺ ﴿ثم تولوا عنه﴾ أعرضوا عنه ﴿وقالوا معلَّم﴾، أي: يعلّمه بشر ﴿مجنون﴾. قال الله تعالى: ﴿إنا كاشفوا العذاب﴾، أي: عذاب الجوع ﴿قليلاً﴾، أي: زماناً يسيراً، قال مقاتل: إلى يوم بدر ﴿إنكم عائدون﴾ إلى كفركم ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ وهو يوم بدر ﴿إنا منتقمون﴾ وهذا قول ابن مسعود وأكثر العلماء. وقال الحسن: يوم القيامة. قال ابن كثير[٣]: والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشته أيضاً[٤].

قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٦).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٠).

(٤) كما روي ذلك عن ابن مسعود قوله: «البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول يوم القيامة»، وقال ابن كثير (٤/ ١٤٠): «وهذا إسناد صحيح عنه».

مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ولقد فتنّا قلبهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿أن أدّوا إليّ عباد الله﴾ قال مجاهد: أرسلوا معي بني إسرائيل ﴿إني لكم رسول أمين﴾ قال البغوي[1]: على الوحي ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ لا تتجبروا عليه بترك طاعته ﴿إني آتيكم بسلطان مبين﴾ ببرهان بيّن على صدق قولي؛ فلما قال ذلك توعّدوه بالقتل فقال: ﴿إني عذت بربّي وربكم أن ترجمون﴾ أن تقتلون ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ فاتركون لا معي ولا عليّ. وقال ابن عباس: فاعتزلوا أذاي باليد واللسان، فلم يؤمنوا ﴿فدعا ربه أنّ هؤلاء قوم مجرمون﴾ فأجابه الله وأمره أن يَسْرِي فقال: ﴿فاسر بعبادي ليلاً﴾، أي: ببني إسرائيل ﴿إنكم متَّبعون﴾ يتبعكم فرعون وقومه ﴿واترك البحر﴾ إذا قطعتَه أنت وأصحابك ﴿رهواً﴾ ساكناً على حالته وهيئته. قال قتادة: لما قطع موسى البحر عطف ليضرب البحر بعصاه ليلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون وجنوده، فقيل له اترك البحر رهواً كما هو، إنهم جند مغرقون.

ثم ذكر ما تركوا بمصر فقال: ﴿كم تركوا﴾ يعني بعد الغرق ﴿من جنّات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ مجلس شريف. قال قتادة: الكريم الحسن ﴿ونعمة﴾ متعة وعيش ليّن ﴿كانوا فيها فاكهين﴾ ناعمين، وفاكهين: أشرين بطرين ﴿كذلك﴾

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٣٥ ــ ١٣٦).

قال الكلبي: كذلك أفعل بمن عصاني ﴿وأورثناها قوماً آخرين﴾ يعني بني إسرائيل ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ وذلك أن المؤمن إذا مات تبكي عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، وهؤلاء لم يكن يصعد لهم عمل صالح فتبكي السماء على فقدهم ولا لهم على الأرض عمل صالح فتبكي الأرض عليهم. ثم ساق بسنده عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبد إلاَّ له في السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل فيه عمله، فإذا مات فقداه وبكيا عليه، ثم تلا: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض ما كانوا منظرين﴾ »[1]، لم يُنْظَرُوا حين أخذهم العذاب لتوبةٍ ولا لغيرها ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ قتل الأبناء، واستحياء النساء، والتعب في العمل ﴿من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ولقد اخترناهم﴾ يعني مؤمني بني إسرائيل ﴿على علم﴾ بهم ﴿على العالَمين﴾ على عالمي زمانهم ﴿وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين﴾ قال قتادة: نعمة بيّنة من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، والنعم التي أنعمها عليهم. قال ابن زيد: ابتلاهم بالرخاء والشدة وقرأ: ﴿ونبلونكم بالشر والخير فتنة﴾ انتهى ملخصاً. والله أعلم.

• • •

---

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٢٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣٢٧)، والبغوي في تفسيره (٤/١٣٦) بسند ضعيف.

الدرس السادس والخمسون بعد المائتين

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٣٧) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ (٤٤) كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ (٥٠) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩) ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

عن قتادة ﴿إن هؤلاء ليقولون إن هي إلاَّ موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين﴾ قال: قد قال مشركو العرب ﴿وما نحن بمنشرين﴾، أي: بمبعوثين. وعن مجاهد في قول الله عز وجل ﴿أهم خير أم قوم تبع﴾ قال الحميري.

قال البغوي[1]: وكان سار بالجيوش حتى حير[2] الحيرة، وبنى سمرقند، وكان من ملوك اليمن، سمّي تبّعاً لكثرة أتباعه، وكل واحد منهم يسمّى تبعاً لأنه يتبع صاحبه، وكان هذا الملك يعبد النار فأسلم ودعا قومه إلى الإسلام وهم حِمْيَر فكذبوه، وكان من خبره ما ذكره محمد بن إسحاق وغيره؛ وذكر عكرمة عن ابن عباس قال: كان تبّع الآخر ــ وهو أبو كرب أسعد بن مالك ــ حين أقبل من المشرق وجعل طريقه على المدينة، وقد كان حين مرّ بها خلّف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة، فقدمها وهو مجمع على خرابها واستئصال أهلها، فجمع له هذا الحيّ من الأنصار حين سمعوا ذلك من أمره، فخرجوا لقتاله، وكان الأنصار يقاتلونه

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٧).

(٢) في (الأصل): «مصر»، والمثبت من تفسير البغوي.

بالنهار ويفرّون بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرام، فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران اسمهما كعب وأسد، من أحبار بني قريظة عالمان وكان ابني عمّ، حين سمعا ما يريد من إهلاك المدينة وأهلها فقالا له: أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلاَّ ما تريد حيل بينك وبينهما ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فإنها مهاجَر نبـيّ يخرج من هذا الحيّ من قريش اسمه محمد، مولده مكة وهذه دار هجرته، ومنزلك الذي أنت به يكون به من القتل والجراح أمر كبير في أصحابه وفي عدوّهم، قال تبّع: من يقاتله وهو نبـيّ؟! قالا: يسير إلى قومه فيقتتلون ههنا؛ فتناهى لقولهما عما كان يريد بالمدينة، ثم إنهما دعواه إلى دينهما فأجابهما واتّبعهما على دينهما وأكرمهما، وانصرف عن المدينة، وخرج بهما ونفر من اليهود عائدين إلى اليمن، فأتاه في الطريق نفر من هذيل وقالوا: إنا ندلّك على بيت فيه كنز من لؤلؤ وزبرجد وفضّة، قال: أيّ بيت؟ قالوا: بيت بمكّة، وإنما تريد هذيل هلاكه لأنهم عرفوا أنه لم يرده أحد قطّ بسوء إلاَّ هلك، فذكر ذلك للأحبار فقالوا: ما نعلم لله في الأرض بيتاً غير هذا البيت، فاتخذه مسجداً وانسك عنده وانحر واحلق رأسك، وما أراد القوم إلاَّ هلاكك، لأنه ما ناوأه أحد قطّ إلاَّ هلك، فأكرمه واصنع عنده ما يصنع أهله، فلما قالوا له ذلك، أخذ النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ثم صلبهم، فلما قدم مكّة نزل الشعب ــ شعب البطائح ــ وكسا البيت الوصائل ــ وهو أوّل من كسا البيت ــ ونحر بالشعب ستّة آلاف بدنة، وأقام به ستّة أيام، وطاف به وحلق وانصرف، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حِمْيَر بين ذلك وبينه، وقالوا: لا تدخل علينا وقد فارقت ديننا، فدعاهم إلى دينه وقال: إنه دين خير من دينكم، قالوا: فحاكمنا إلى النار، وكانت باليمن نار في أسفل جبل يتحاكمون إليها فيما يختلفون فيه، فتأكل الظالم ولا تضرّ المظلوم، فقال تبّع: انفقتم، فخرج القوم بأوثانهم وما يتقرّبون به في دينهم، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما، حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه،

فخرجت النار فأقبلت حتى غشيتهم، فأكلت الأوثان وما قرّبوا معها، ومن حمل ذلك من رجال حمير، وخرج الحبران بمصاحفهما من أعناقهما يتلوان التوراة، تعرق جباههما لم تضرّهما، ونكصت النار حتى رجعت إلى مخرجها الذي خرجت منه، فأصفقت عند ذلك حمير على دينهما، فمن هناك كان أصل اليهوديّة في اليمن. وذكر أبو حاتم عن الرقاشيّ قال: كان أبو كرب أسعد الحميريّ من التبابعة، آمن بالنبيّ محمد ﷺ قبل أن يبعث بسبعمائة سنة، وذكر لنا أن كعباً كان يقول: «ذمّ الله قومه ولم يذمّه. وكانت عائشة تقول: لا تسبّوا تبّعاً، فإنه كان رجلاً صالحاً»[1]. **قال ابن كثير**[2]: وكان مما يُحفظ من شعره:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم

فلو مدّ عمري إلى عمره ... لكنت وزيراً له وابن عمّ

وجاهدت بالسيف أعداءه ... وفرّجت عن صدره كلّ غمّ

قال: وذكر أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وست وعشرين سنة، ولم يكن في حمير أطول مدّة منه، وتوفيّ قبل مبعث النبيّ ﷺ بنحو من سبعمائة سنة؛ ثم لما توفي عاد قومه إلى عبادة النيران والأصنام، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ.

وقوله تعالى: ﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾ قال قتادة: يوم يفصل فيه بين الناس بأعمالهم ﴿يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلاّ من

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٢٨/٢٥)، والحاكم (٢/ ٤٥٠)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وروي مرفوعاً من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٠)، والطبراني كما في «مجمع البحرين» (٦/ ٤٢٦)، والبغوي في تفسيره (١٣٨/٤)، بسند ضعيف، وله شاهد به حديث ابن عباس مرفوعاً أخرجه الطبراني في «المصدر السابق» (٦/ ٤٢٦) بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٤).

رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾ قال قتادة: انقطعت الأسباب يومئذٍ بابن آدم وصار الناس إلى أعمالهم، فمن أصاب يومئذٍ خيراً سعد به آخر ما عليه، ومن أصاب يومئذٍ شرّاً شقي به آخر ما عليه.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

عن همام بن الحارث أن أبا الدرداء كان يقرىء رجلاً ﴿إن شجرة الزقّوم طعام الأثيم﴾ فقال: طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقّوم طعام الفاجر. وعن ابن عباس في قوله: ﴿كالمهل﴾ ماء غليظ كَدُرْدِيِّ الزيت؛ وعنه أنه رأى فضّة قد أذيبت فقال: هذا المهل. وعن مجاهد قوله: ﴿خذوه فاعتلوه﴾ قال: خذوه فادفعوه ﴿إلى سواء الجحيم﴾ قال قتادة: وسط النار. وعن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل ــ لعنه الله ــ فقال: «إن الله تعالى أمرني أن أقول لك ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾[1] قال: فنزع ثوبه من يده وقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، ولقد علمت أنّي أمنع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم، قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذلّه وعيّره بكلمته وأنزل ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾[2]. قال البغوي[3]: ﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ تشكّون فيه ولا تؤمنون به.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾

(١) سورة القيامة: الآيتان ٣٤ و٣٥.

(٢) عزاه السيوطي في «الدر» (٥/ ٧٥٢): إلى الأموي في مغازيه.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٣٩).

يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن المتّقين في مقام أمين﴾ إي واللَّهِ، أمين من الشيطان والأوصاب والأحزان. ﴿في جنّات وعيون يلبسون من سندس﴾ قال ابن كثير: وهو رقيق الحرير كالقمصان ونحوها؛ ﴿واستبرق﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان، وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿متقابلين﴾، أي: على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

﴿كذلك وزوّجناهم﴾ **قال البغوي**: أي كما أكرمناهم بما وصفنا من الجنّات والعيون واللباس، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم ﴿بحور عين﴾ قال قتادة: بيض عين ﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾ أمِنوا من الموت والأوصاب والشيطان ﴿لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى﴾ **قال ابن كثير**[1]: هذا استثناء يؤكّد النفي، فإنه استثناء منقطع ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنّة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنّة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»[2]. وعن أبـي سعيد وأبـي هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «يقال لأهل الجنّة: إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، وإنّ لكم أن تعيشوا فلا تموتوا

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٧٣٠)، ومسلم (ح/ ٢٨٤٧)، من حديث أبـي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أبداً، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً، وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً»[١]. رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾، أي: ومع هذا النعيم، نجّاهم من العذاب الأليم ﴿فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «اعملوا وسدّدوا وقاربوا، واعلموا أنّ أحداً لن يدخله عمله الجنّة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلاّ أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فإنّما يسّرناه﴾، أي: القرآن ﴿بلسانك لعلّهم يتذكّرون﴾ يتفهّمون ويتّعظون ويعملون؛ ثم قال تعالى مسلّياً لرسوله وواعداً له بالنصر ﴿فارتقب﴾، أي: انتظر ﴿إنّهم مرتقِبون﴾، أي: فسيعلمون لمن تكون العاقبة.

● ● ●

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٨٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٥٦٧٣ و ٦٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩ ــ ٢١٧٠).

الدرس السابع والخمسون بعد المائتين

﴿سـورة الجاثيـة﴾

مكية، وهي سبع وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥﴾ .

قوله عز وجل: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾.

قال ابن كثير[١]: يرشد تعالى خلقه إلى التفكّر في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة، التي خلق بها السموات والأرض وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع، من الملائكة، والجنّ، والإنس، والدوابّ، والطيور، والوحوش، والسباع، والحشرات، وما في البحر من الأصناف المتنوّعة ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ في تعاقبهما دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه ﴿وما أنزل الله﴾ تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسمّاه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾، أي: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء.

وقوله عز وجل: ﴿وتصريف الرياح﴾، أي: جنوباً وشمالاً ودبوراً وصباً، برّيّة وبحرّية، ليليّة ونهاريّة، ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للّقاح، ومنها ما هو غذاء للأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال سبحانه وتعالى أوّلاً: ﴿لآيات للمؤمنين﴾ ثم: ﴿يوقنون﴾ ثم: ﴿يعقلون﴾ وهو ترَقٍّ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة[٢]، وهو قوله تعالى: ﴿إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٧).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٤.

ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

قال ابن كثير[1]: يقول تعالى: ﴿تلك آيات الله﴾ يعني القرآن، بما فيه من الحجج والبيّنات: ﴿نتلوها عليك بالحقّ﴾، أي: متضمّنة الحقّ من الحقّ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها ﴿فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿ويل لكلّ أفّاك أثيم﴾، أي: أفّاك في قوله، كذّاب حلّاف مَهين ﴿أثيم﴾ في فعله وقلبه، كفر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يسمع آيات الله تُتلى عليه﴾، أي: تُقرأ عليه ﴿ثم يصرّ﴾، أي: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً: ﴿كأن لم يسمعها﴾، أي: كأنّه ما سمعها ﴿فبشّره بعذاب أليم﴾ فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً ﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتّخذها هزواً﴾، أي: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتّخذه سِخْرياً وهزواً ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾، أي: في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ثم فسّر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿من ورائهم جهنّم﴾، أي: كلّ من اتصف بذلك سيصيرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً﴾، أي: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم

(١) المصدر السابق (١٤٨/٤).

﴿ولا ما اتّخذوا من دون الله أولياء﴾، أي: ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ولهم عذاب عظيم﴾. ثم قال تبارك وتعالى: ﴿هذا هدى﴾ يعني القرآن ﴿والذين كفروا بآيات ربّهم لهم عذاب من رجز أليم﴾.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

قال ابن كثير[١]: يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخّر لهم من البحر ﴿لتجري الفلك﴾ وهي السفن ﴿فيه بأمره﴾ تعالى، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ولتبتغوا من فضله﴾، أي: في المتاجر والمكاسب ﴿ولعلّكم تشكرون﴾، أي: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال عز وجل: ﴿وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: من الكواكب والجبال والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أي: الجميع من فضله وإحسانه، ولهذا قال: ﴿جميعاً منه﴾، أي: من عنده وحده لا شريك له في ذلك، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾، أي: ليصفحوا عنهم ويتحمّلوا الأذى منهم، وكان هذا في ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم، ثم لما أصرّوا

---

(١) المصدر السابق (٤/١٤٨).

(٢) سورة الرعد: الآية ٣.

على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد. **وقال البغوي**[١]: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾، أي: لا يخافون وقائع الله ولا يبالون نقمته. **قال ابن كثير**[٢]: وقوله تبارك وتعالى: ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾، أي: إذا صفحوا عنهم في الدنيا، فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيِّئة في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾، أي: تعودون إليه يوم القيامة، فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرّها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

● ● ●

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٤٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٤٩).

الدرس الثامن والخمسون بعد المائتين

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦) وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ (١٩) هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا

كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

قال ابن جرير[١]: يقول تعالى ذكره: ﴿ولقد آتينا﴾ يا محمد ﴿بني إسرائيل الكتاب﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿والحكم﴾ يعني الفهم بالكتاب والعلم بالسنن التي لم تنزل في الكتاب ﴿والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على العالمين﴾ قال ابن عباس: لم يكن أحد من العالمين في زمانهم أكرم على الله ولا أحبّ إليه منهم. وعن قتادة قوله: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها﴾ والشريعة: الفرائض والحدود والأمر والنهي ﴿فاتّبعها ولا تتّبع أهواء الذين لا يعلمون﴾.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر﴾ قال: الشريعة الدين، وقرأ: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ قال: فنوح أوّلهم وأنت آخرهم. وقال في قوله: ﴿هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون﴾ قال: القرآن. قال: هذا كله إنما هو في القلب، قال: والسمع والبصر في القلب، وقرأ: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٥/١٤٦).

وليس ببصر الدنيا ولا بسمعها.

قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

عن قتادة ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم﴾ لعمري لقد تفرّق القوم في الدنيا، وتفرّقوا عند الموت، فتباينوا في المصير. **وقال البغوي**[1]: ﴿أم حسب﴾ بل حسب ﴿الذين اجترحوا السيّئات﴾ اكتسبوا المعاصي والكفر ﴿أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ نزلت في نفر من مشركي مكّة قالوا للمؤمنين: لئن كان ما تقولون حقّاً لنفضّلنّ عليكم في الآخرة كما فضّلنا عليكم في الدنيا. ﴿سواء محياهم﴾ يعني أحسبوا أن حياة الكافرين ومماتهم، كحياة المؤمنين وموتهم سواء؟ كلاّ ﴿ساء ما يحكمون﴾ بئس ما يقضون.

وعن ابن عباس ﴿أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه﴾ قال: ذلك الكافر اتّخذ دينه بغير هدى من الله ولا برهان. وقال قتادة: لا يهوى شيئاً إلاّ ركبه، لا يخاف الله ﴿وأضلّه الله على علم﴾. قال ابن عباس: أضلّه الله في سابق علمه. **قال ابن كثير**[2]: وقوله: ﴿وأضلّه الله على علم﴾ يحتمل قولين: أحدهما: وأضلّه الله لعلمه أنه يستحقّ ذلك، والآخر: وأضلّه الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجّة عليه؛ والثاني يستلزم الأول ولا ينعكس. ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٤٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥٠).

غشاوة﴾، أي: فلا يسمع ما ينفعه ولا يعي شيئاً يهتدي به، ولا يرى حجّة يستضيء بها، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

عن قتادة ﴿وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا﴾، أي: لعمري، هذا قول مشركي العرب. وعن أبـي هريرة مرفوعاً قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، هو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه ﴿وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر﴾ قال: فيسبّون الدهر، فقال الله تبارك وتعالى: «يؤذيني ابن آدم، يسبّ الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار»[1]. رواه ابن جرير. **وقال ابن كثير**[2]: يخبر تعالى عن قول الدهريّة ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المَعاد ﴿وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾، أي: ما ثَمّ إلاّ هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَمّ مَعاد ولا قيامة؛ وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المَعاد، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقوله الفلاسفة الدهريّة الدوريّة[3] المنكرون للصانع، فكابروا المعقول وكذّبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وما يهلكنا إلاّ الدهر﴾،

---

(١) بهذا اللفظ أخرجه ابن جرير (١٥٢/٢٥)، والحاكم (٤٥٣/٢)، وصححه، ووافقه الذهبـي، والحديث مخرج في الصحيحين؛ لكن دون طرفه الأول، وهو قوله: «كان أهل الجاهلية...»، وقد سبق تخريجه.

(٢) المصدر السابق (١٥٠/٤).

(٣) في «تفسير ابن كثير»: «الدرية».

قال الله تعالى: ﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنّون﴾، أي: يتوهّمون ويتخيّلون.

قوله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ قال: هذا يوم القيامة، جاثية على ركبهم. قال ابن كثير[1]: وقوله عز وجل: ﴿كلّ أمة تدعى إلى كتابها﴾ يعني كتاب أعمالها، كقوله جل جلاله: ﴿ووضع الكتاب وجيء بالنّبيّن والشهداء﴾[2] ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾. ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾، أي: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله جل جلاله: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما

(١) المصدر السابق (٤/ ١٥١).

(٢) سورة الزمر: الآية ٤٩.

لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾[١].

وقوله عز وجل: ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾، أي: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. وعن ابن عباس ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ نترككم. وفي الحديث: «قال الله تعالى للجنّة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابـي أعذّب بك من أشاء، ولكليكما عليّ ملؤها»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فللّه الحمد ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾، **قال ابن جرير**[٣]: يقول: وله العظمة والسلطان في السموات والأرض دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وهو العزيز في نقمته من أعدائه، القاهر كلّ ما دونه ولا يقهره شيء، الحكيم في تدبيره خلقه وتصريفه إياهم، فيما شاء كيف شاء.

• • •

(١) سورة الكهف: الآية ٤٩.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٥٠، و ٧٤٤٩)، ومسلم (٤/ ٢١٨٦ ـ ٢١٨٧) من حديث أبـي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٥/ ١٥٩).

الدرس التاسع والخمسون بعد المائتين

﴿ســورة الأحقــاف﴾

مكية، وهي خمس وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ۝٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ

إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

قال ابن كثير[1]: يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزّة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق﴾، أي: لا على وجه العبث والباطل ﴿وأجل مسمّى﴾، أي: وإلى مدّة معيّنة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، **قال البغوي**[2]: يعني يوم القيامة، وهو الأجل الذي تنتهي إليه السموات والأرض. ﴿والذين كفروا عمّا أُنذروا﴾ خُوّفوا به في القرآن ﴿معرضون﴾. ﴿قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين﴾ قال الكلبي: أي بقيّة من علم يؤثر عن الأوّلين، أو سند إليهم.

﴿ومن أضلّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٤٧).

عن دعائهم غافلون﴾ كما قال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين﴾.

﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[١] كما قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون﴾[٢] وقال تعالى: ﴿والذين يدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبّئك مثل خبير﴾[٣].

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟

(١) سورة الأحقاف: الآية ٦.
(٢) سورة سبأ: الآية ٤٠.
(٣) سورة فاطر: الآية ١٣.

رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الذين كفروا للحقّ لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ يسمّون القرآن سحراً ﴿أم يقولون افتراه﴾ محمد من قبل نفسه؟ فقال الله عز وجل: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ لا تقدرون أن تردّوا عنّي عذابه إن عذّبني على افترائي، فكيف أفتري على الله من أجلكم؟ ﴿هو أعلم﴾، أي: الله أعلم ﴿بما تفيضون فيه﴾ تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والقول فيه: إنه سحر ﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾ أن القرآن جاء من عنده ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ في تأخير العذاب عنكم. قال الزجاج: هذا دعاء لهم إلى التوبة، معناه: إن الله عز وجل غفور لمن تاب منكم رحيم به. ﴿قل ما كنت بِدْعاً من الرسل﴾، أي: لست بأوّل مرسل، قبلي كثير من الأنبياء فكيف تنكرون نبوّتي؟ ﴿وما أدري ما يُفعل بـي ولا بكم﴾ قال ابن عباس: فأنزل الله بعد هذا: ﴿ليغفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر﴾.

قال ابن كثير[2]: وقوله: ﴿إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ﴾، أي: ما أتّبع إلاّ ما ينزّله الله عليّ من الوحي ﴿وما أنا إلاّ نذير مبين﴾، أي: بيّن النذارة، أمري ظاهر لكلّ ذي لبّ وعقل ﴿قل أرأيتم﴾ قال البغوي معناه: أخبروني ماذا تقولون ﴿إن كان﴾ يعني القرآن ﴿من عند الله وكفرتم به﴾ أيها المشركون ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ عن مسروق ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ يخاصم به الذين كفروا من أهل مكة، التوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد ﷺ ﴿فآمن واستكبرتم﴾ قال: آمن هذا الذي من بني إسرائيل بنبيّه وكتابه ﴿واستكبرتم﴾ أنتم فكذّبتم نبيّكم وكتابكم. وقال

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٤٨).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/١٥٥).

قتادة: كنا نحدّث أنه عبد الله بن سلام، آمن بكتاب الله وبرسوله وبالإسلام، وكان من أحبار اليهود. **قال ابن كثير**[١]: وهذا الشاهد اسم جنس، يعمّ عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكيّة نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه. وعن قتادة: ﴿وقال الذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ قال: قال ذاك أناس من المشركين: نحن أعزّ ونحن ونحن، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان، فإن الله يختصّ برحمته من يشاء. **قال البغوي**[٢]: قال الله تعالى: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ يعني بالقرآن، كما اهتدى أهل الإيمان ﴿فسيقولون هذا إفك قديم﴾ كما قالوا: أساطير الأولين ﴿ومن قبله﴾، أي: ومن قبل القرآن ﴿كتاب موسى﴾ يعني التوراة إماماً يقتدى به ﴿ورحمة﴾ من الله لمن آمن به ﴿وهذا كتاب مصدّق﴾، أي: القرآن مصدّق للكتب التي قبله ﴿لساناً عربيّاً﴾ نصب على الحال، وقيل: بلسان عربيّ ﴿لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ **قال ابن كثير**[٣]: أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين.

قوله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

عن قتادة: ﴿حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ يقول: حملته مشقّة ووضعته مشقّة. وعن ابن عباس قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٥٠).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥٦).

وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستّة أشهر فحولين كاملين، لأن الله تعالى يقول: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾. وقال ابن كثير[1]: ﴿حتى إذا بلغ أشدّه﴾، أي: قوي وشبّ وارتجل ﴿وبلغ أربعين سنة﴾، أي: تناهى عقله وكمل فهمه وحلمه، ويقال: إنه لا يتغيّر غالباً عما يكون عليه ابن الأربعين. قال مسروق: إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك. وقال الحجاج بن عبد الله الحكميّ أحد أمراء بني أميّة بدمشق: تركت المعاصي والذنوب أربعين سنة حياء من الناس، ثم تركتها حياء من الله عز وجل. وعن قتادة: ﴿وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني﴾ حتى بلغ: ﴿من المسلمين﴾ وقد مضى من سيّىء عمله ما مضى ﴿أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا﴾ قال البغوي[2]: يعني أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وكلّها حسن، والأحسن بمعنى الحُسْن، فيثيبهم عليها ﴿ونتجاوز عن سيّئاتهم﴾ فلا نعاقبهم عليها ﴿في أصحاب الجنّة﴾ مع أصحاب الجنّة ﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ وهو قوله عز وجل: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٥٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٥١).

عن الحسن في قوله: ﴿والذي قال لوالديه أفّ لكما أتعدانني أن أُخرج﴾ قال: هو الكافر الفاجر العاقّ لوالديه، المكذّب بالبعث. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولكلّ درجات ممّا علموا﴾ قال: درج أهل النار يذهب سفالاً، ودرج أهل الجنّة يذهب عُلُوّاً. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير، قد أثّر الرمال بجنبه، فقلت: يا رسول الله ادع الله ليوسّع على أمّتك، فإن فارس والروم قد وسّع عليهم وهم لا يعبدون الله فقال: «أولئك قوم قد عجلوا طيّباتهم في حياتهم الدنيا»[1]. وقال أبو مجلز: ليفقدنّ أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال لهم: ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٤٦٨).

الدرس الستون بعد المائتين

﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ

مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله عز وجل: ﴿واذكر أخا عاد﴾ يعني هوداً ﴿إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ قال ابن عباس: الأحقاف وادٍ بين عمان ومهرة. وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت، بموضع يقال له مهرة، وإليها تنسب الإبل المهريّة، وكانوا أهل عمل سيارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا من قبيلة إرم. قال قتادة: ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن، وكانوا أهل رمل

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٥٣ ــ ١٥٤).

مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر، والأحقاف: جمع حقف، وهي المستطيل المعوجّ من الرمال؛ قال ابن زيد: هي ما استطال من الرمل ولم يبلغ أن يكون جبلاً؛ قال الكسائي: هي ما استطال من الرمل ﴿وقد خلت النذر﴾ مضت الرسل ﴿من بين يديه﴾، أي: من قبل هود ﴿ومن خلفه﴾ إلى قومهم ﴿ألاَّ تعبدوا إلاَّ الله إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا أجئتنا لتأفكنا﴾ لتصرفنا: ﴿عن آلهتنا﴾، أي: عن عبادتها: ﴿فائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أن العذاب نازل بنا ﴿قال﴾ هود: ﴿إنما العلم عند الله﴾ وهو يعلم متى يأتيكم العذاب ﴿وأبلّغكم ما أرسلت به﴾ من الوحي إليكم ﴿ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾. ﴿فلما رأوه﴾ يعني ما يوعدون به من العذاب ﴿عارضاً﴾ سحاباً ﴿مستقبل أوديتهم﴾ فخرجت عليهم سحابة سوداء من واد لهم يقال له المغيث، وكانوا قد حبس عنهم المطر، فلما رأوها استبشروا ﴿قالوا هذا عارض ممطرنا﴾ يقول الله تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم﴾ فجعلت الريح تحمل الفسطاط وتحمل الظعينة حتى ترى كأنها جرادة ﴿تدمّر كلّ شيء﴾ مرّت به من رجال عاد وأموالها ﴿بأمر ربها﴾ فأوّل ما عرفوا أنها عذاب، رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم وصرعتهم، وأمر الله الريح فأمالت عليهم الرمال، وكانوا تحت الرمل، سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمال، فاحتملتهم فرمت بهم في البحر.

ثم ساق بسنده عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه بياض لهواته، وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف ذلك في وجهه فقلت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيها المطر، وإذا رأيتَه عُرف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة ما يؤمّنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: ﴿هذا عارض

ممطرنا﴾ الآية»[1]. ﴿فأصبحوا لا يُرى إلاَّ مساكنهم﴾ لأن السكان والأنعام بادت بالريح، فلم يبق إلاَّ هود ومن آمن معه ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾.

﴿ولقد مكّنّاهم فيما إن مكّنّاكم فيه﴾ يعني فيما لم نمكّنكم فيه من قوّة الأبدان، وطول العمر، وكثرة المال ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ولقد أهلكنا ما حولكم﴾ يا أهل مكة من القرى كحجر ثمود وأرض سدوم ونحوهما ﴿وصرّفنا الآيات﴾ الحجج والبيّنات ﴿لعلّهم يرجعون﴾ عن كفرهم فلم يرجعوا فأهلكناهم؛ يخوّف مشركي مكّة. ﴿فلولا﴾ فهلاّ ﴿نصرهم الذين اتّخذوا من دون الله قرباناً آلهة﴾ يعني الأوثان التي اتخذوها آلهة يتقرّبون بها إلى الله عز وجل ﴿بل ضلّوا عنهم﴾ قال مقاتل: بل ضلّت الآلهة عنهم فلم تنفعهم عند نزول العذاب ﴿وذلك إفكهم﴾، أي: كذبهم الذي كانوا يقولون أنها تقرّبهم إلى الله عز وجل وتشفع لهم ﴿وما كانوا يفترون﴾ يكذبون أنها آلهة. انتهى ملخصاً. وقال ابن كثير[2]: ﴿وذلك إفكهم﴾، أي: كذبهم ﴿وما كانوا يفترون﴾، أي: وافتراؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٢٨ و ٤٨٢٩)، ومسلم (٢/٦١٦ و ٦١٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٦٢).

مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله عز وجل: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن﴾ الآية، قال المفسّرون: لما مات أبو طالب، خرج رسول الله ﷺ وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه، فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظيّ قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف ــ وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ــ وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل، ومسعود، وحبيب بنو عمرو بن عمير، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلّمهم بما جاءهم به من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة: إن كان الله أرسلك؟ وقال الآخر: ما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلّمك كلمة أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلّمك، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم: «إن فعلتم ما فعلتم فاكتموه عليّ»، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه فيزيدهم عليه ذلك، فلم يفعلوا وأغووا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فرجع عنه سفهاء ثقيف ومن كان تبعه، فعمد إلى ظلّ حبلة من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف، ولقد لقي رسول الله ﷺ تلك المرأة من بني جمع فقال لها: «ماذا لقينا من أحمائك؟» فلما اطمأنّ رسول الله ﷺ قال: «اللهمّ إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس وأنت أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني؟ أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكنّ عافيتك هي

(١) المصدر السابق (٤/ ١٥٥).

أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بـي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبـي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك». فلما رأى ابنا ربيعة ما لقي تحركت إليه رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل ذلك عدّاس؛ ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال: «بسم الله» ثم أكل، فنظر عدّاس إلى وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة! فقال له رسول الله ﷺ: «من أيّ البلاد أنت يا عدّاس، وما دينك؟» قال: أنا نصرانيّ، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله ﷺ: «أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى»؟ قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبيّاً وأنا نبـيّ». فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ فقبّل رأسه ويديه وقدميه. قال: فيقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك؛ فلما جاءهم عدّاس قالا له: ويلك يا عدّاس، مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟! قال: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلاّ نبـيّ، فقال: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه. ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكّة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلّي، فمرّ به نفر من جنّ أهل نصيبين فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا، فقصّ الله خبرهم عليه فقال: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن﴾[1] الآية.

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (١/ ٥٥٤) عن محمد بن كعب مرسلاً، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤١٤ ــ ٤١٦) عن الزهري مرسلاً، وانظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٧٠ ــ ٧٢).

ثم ساق بسنده عن ابن عباس قال: انطلق النبيّ ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، فأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأُرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاَّ شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾ فأنزل الله على نبيّه: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجنّ[1].

قوله عز وجل: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ قالوا: صه. وروي في الحديث: «إن الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء، وصنف حيّات وكلاب، وصنف يحلّون ويظعنون»[2]: ﴿فلما حضروه﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿أنصتوا﴾ اسكتوا لنستمع إلى قراءته، فأنصتوا واستمعوا القرآن ﴿فلما قضي ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ مخوّفين داعين بأمر رسول الله ﷺ ﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم﴾ قال عطاء: كان دينهم اليهودية، لذلك قالوا: ﴿إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى﴾، ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فاستجاب لهم من قومهم نحو من سبعين رجلاً من الجنّ،

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٧٧٣ و ٤٩٢١)، ومسلم (ح/ ٤٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني (٢٢/ ٢١٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ١٠٨٧)، والحاكم (٢/ ٤٥٦)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٣٠)، من حديث أبي ثعلبة الخشني، وهو حديث صحيح.

فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فوافوه بالبطحاء، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ لا يعجز الله فيفوته ﴿وليس له من دونه أولياء﴾ أنصار يمنعونه من الله ﴿أولئك في ضلال مبين﴾ انتهى ملخصاً. وقال ابن كثير: فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب، ولهذا نجح في كثير منهم، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً. والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال البغوي ﴿ولم يعي بخلقهنّ﴾ لم يعجز عن إبداعهنّ. وقال ابن كثير: يقول تعالى: أو لم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المَعاد ﴿أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهنّ﴾، أي: ولم يلوّثه خلقهنّ، بل قال لها: كوني فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة بل طائعة مجيبة خائفة وجلة، أفليس ذلك ﴿بقادر على أن يحيـي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾. وقوله تعالى: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ قال عطاء الخراساني: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ قال: كلّ الرسل كانوا أولي عزم، لم يتّخذ الله رسولاً إلاّ كان ذا عزم، فاصبر كما صبروا. وقال بعضهم: الأنبياء كلّهم أولوا عزم إلاّ يونس بن متى، لعجلة كانت منه ألا ترى أنه قيل للنبـي ﷺ: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾. وقال البغوي: قوله تعالى: ﴿ولا تستعجل لهم﴾،

أي: ولا تستعجل العذاب لهم، فإنه نازل بهم لا محالة؛ كان ضَجِرَ بعض الضجر، فأحبّ أن ينزل العذاب بمن أَبَى منهم، فأُمر بالصبر وترك الاستعجال، ثم أَخبر عن قرب العذاب فقال: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون﴾ من العذاب في الآخرة ﴿لم يلبثوا﴾ في الدنيا ﴿إلاَّ ساعة من نهار﴾، أي: إذا عاينوا العذاب صار طول لبثهم في الدنيا والبرزخ كأنه ساعة من نهار، لأنّ ما يمضي وإن كان طويلاً، كأنه لم يكن. ثم قال: ﴿بلاغ﴾، أي: هذا القرآن وما فيه من البيان بلاغ من الله إليكم، والبلاغ بمعنى التبليغ ﴿فهل يهلك﴾ بالعذاب إذا نزل ﴿إلاَّ القوم الفاسقون﴾؟ الخارجون من أمر الله. قال الزجاج: تأويله: لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلاَّ القوم الفاسقون؛ ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية.
وقال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿فهل يهلك إلاَّ القوم الفاسقون﴾، أي: لا يهلك على الله إلاَّ هالك، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلاَّ من يستحقّ العذاب.
والله أعلم.

• • •

الدرس الحادي والستون بعد المائتين

﴿سـورة محمـد ﷺ﴾

مدنية، وهي ثمان وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۝١٢

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ۝٣﴾.

قال البغوي[(١)]: ﴿الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم﴾ أبطلها فلم يقبلها، وأراد بالأعمال ما فعلوا من إطعام الطعام وصلة الأرحام. وقال الضحاك: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم. ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نُزّل على محمد﴾، قال سفيان الثوري: يعني لم يخالفوه في شيء ﴿وهو الحقّ من ربّهم كفّر عنهم سيّئاتهم وأصلح بالهم﴾ حالهم؛ قال ابن عباس: عصمهم أيام حياتهم ﴿ذلك بأن الذين كفروا اتّبعوا الباطل﴾ الشيطان ﴿وأن الذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم﴾ يعني القرآن ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أشكالهم. قال الزجاج: كذلك يبيّن الله أمثال حسنات المؤمنين، وإضلال أعمال الكافرين.

وقال ابن كثير[(٢)]: أي إنما أبطلنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار وأصلحنا شؤونهم، ﴿لأن الذين كفروا اتّبعوا الباطل﴾، أي: اختاروا الباطل على الحقّ ﴿وأن الذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾، أي: يبيّن لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في مَعادهم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧٢).

قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾.

قال البغوي[(١)]: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ نصب على الإغراء، أي: فاضربوا رقابهم يعني أعناقهم ﴿حتى إذا أثخنتموهم﴾ بالغتم في القتل وقهرتموهم ﴿فشدّوا الوَثاق﴾ يعني في الأسر حتى لا يفلتوا منكم، والأسر يكون بعد المبالغة في القتل، كما قال تعالى: ﴿ما كان لنبـيّ أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾[(٢)]. ﴿فإمّا مَنّاً بَعْدُ وإمّا فداء﴾ يعني بعد أن تأسروهم، فإما أن تَمُنّوا عليهم مَنّاً بإطلاقهم من غير عوض، وإما أن تفادوهم فداء.

وقوله تعالى: ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾، أي: آلاتها وأثقالها. وقال الكلبـي: حتى يسلموا ويسالموا. وعن مجاهد قوله ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال: حتى يخرج عيسى ابن مريم، فيسلم كل يهوديّ ونصرانيّ وصاحب ملّة، وتأمن الشاة من الذئب، ولا تقرض فأرة جراباً، وتذهب العداوة من الأشياء كلّها، ذلك ظهور الإسلام على الدين كلّه. وعن قتادة ﴿حتى تضع الحرب أوزارها﴾ قال: الحرب من كان يقاتلهم، سمّاهم حرباً. ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم﴾،

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٦٠ ــ ١٦١).

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

أي: والله بجنوده الكثيرة، كلٌّ خلقه له جند، ولو سلَّط أضعف خلقه لكان جنداً ﴿ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾. ﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم﴾ قال ابن زيد: بلغنا عن غير واحد قال: يدخل أهل الجنّة الجنّة، ولهم أَعْرَفُ بمنازلهم فيها من منازلهم في الدنيا.

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾ قال قتادة: حقّ على الله أن يعطي من سأله وينصر من نصره. وقال ابن زيد في قوله: ﴿والذين كفروا فتعساً لهم﴾ قال: شقاء لهم ﴿وأضلّ أعمالهم﴾ قال: الضلالة التي أضلّهم الله، لم يهدهم كما هدى الآخرين. وعن مجاهد في قوله: ﴿وللكافرين أمثالها﴾ قال: مثل ما دمّرت به القرون الأولى، وعيد من الله لهم. ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا﴾ قال: وليّهم ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ **قال ابن كثير**[(1)]: ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد، حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فلم يُجَبْ وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: كذبت يا عدوّ الله، بل أبقى الله لك ما يسوءك، وإن الذين عددت لأحياء، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثلة لم آمر بها ولم أَنْهَ عنها، ثم ذهب يرتجز ويقول: أُعْلُ هبل أعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟»، فقالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال ﷺ: «قولوا: الله أعلى وأجلّ». ثم قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»[(2)].

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

(١) المصدر السابق (٤/ ١٧٥).

(٢) سبق تخريجه.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وكأين من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ قال: هي مكّة. وعن عكرمة عن ابن عباس أن نبيّ الله ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار ــ أراه قال ــ التفت إلى مكة فقال: «أنت أحبّ بلاد الله إلى الله، وأنت أحبّ بلاد الله إليّ، فلو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك»؛ فأعتى الأعداء من عتا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بدخول الجاهلية، فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وكأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾[1] رواه ابن جرير.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/٤٨)، وفي سنده ضعف، وبنحوه من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء مرفوعاً: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»: أخرجه أحمد (٤٠/٣٠٥)، الترمذي (ح/٣٩٢٥)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٢/٤٧٩ و ٤٨٠)، وابن ماجه (ح/٣١٠٨)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/٥١٨)، وهو حديث صحيح. =

قال البغوي[1]: ﴿مثل الجنّة التي وعد المتّقون﴾، أي: صفتها ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ آجن متغيّر منتن ﴿وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه وأنهار من خمر لذّة﴾ لذيذة ﴿للشاربين﴾ لم تدنّسها الأرجل والأيدي ﴿وأنهار من عسل مصفّى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار﴾، أي: من مكان في هذا النعيم، كمن هو خالد في النار؟ ﴿وسُقوا ماء حميماً﴾ شديد الحرّ ﴿فقطّع أمعاءهم﴾ فخرجت من أدبارهم. ﴿ومنهم﴾ يعني من هؤلاء الكفار ﴿من يستمع إليك﴾ وهم المنافقون يستمعون قولك فلا يعونه ولا يفهمونه تهاوناً به وتغافلاً ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾ من الصحابة ﴿ماذا قال﴾ محمد ﴿آنفاً﴾ يعني الآن؟ ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ فلم يؤمنوا ﴿واتّبعوا أهواءهم﴾ في الكفر والنفاق ﴿والذين اهتدوا﴾ يعني المؤمنين ﴿زادهم﴾ ما قال الرسول ﴿هدى وآتاهم تقواهم﴾ وفّقهم للعمل بما أمرهم به وهو التقوى. قال سعيد بن جبير: وآتاهم ثواب تقواهم. ﴿فهل ينظرون إلاّ الساعة أن تأتيهم بغتة﴾ وساق بسنده عن أبـي هريرة عن النبـي ﷺ قال: «ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلاّ غنى مطغياً، أو فقراً مُنْسِياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجّال، فشرّ غائب يُنتظر، أو الساعة، فالساعة أدهى وأمرّ»[2].

قوله عز وجل: ﴿فقد جاء أشراطها﴾، أي: أماراتها وعلاماتها؛ وكان النبـي ﷺ من أشراط الساعة انتهى ملخصاً؛ ثم ساق بسنده عن النبـي ﷺ أنه قال:

= وبنحوه من حديث ابن عباس مرفوعاً: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك»، أخرجه الترمذي (ح/٣٩٢٦)، وقال: «حسن غريب».

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٦٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٠ و ٣٢١)، والبغوي في تفسيره (٤/ ١٦٤)، وأيضاً في «شرح السنة» (١٤٠/ ٢٢٥)، بسند منقطع، وروي بسند متصل: أخرجه الترمذي (ح/٢٣٠٧)، بسند ضعيف جداً.

«بعثت أنا والساعة كهاتين»[١]، يعني أصبعه الوسطى والتي تلي الإبهام. وسأله أعرابـيّ: متى الساعة؟ قال: «فإذا ضيّعت الأمانة فانتظر الساعة». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾، أي: فمن أين لهم التذكّر والاتّعاظ والتوبة إذ جاءتهم الساعة؟ نظيره ﴿ويومئذٍ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى﴾[٣]. وعن قتادة قوله: ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك﴾ هؤلاء المنافقون دخل رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما يسمع، ورجل لم يعقل عن الله فلم ينتفع بما سمع. كان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع تارك. وقال في جامع البيان ﴿فاعلم أنه لا إله إلاَّ الله﴾، أي: إذا علمت حال الفريقين فأثبت على التوحيد. **وقال البخاري**[٤]: باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلاَّ الله﴾ فبدأ بالعلم. قال الحافظ ابن حجر: قوله: باب العلم قبل القول والعمل، قال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلاَّ به، فهو متقدّم عليهما لأنه مصحّح للنيّة المصحّحة للعمل؛ قوله: فبدأ بالعلم، أي: حيث قال: ﴿فاعلم أنه لا إله إلاَّ الله﴾، ثم قال: ﴿واستغفر لذنبك﴾ والخطاب وإن كان للنبـي ﷺ فهو متناول لأمّته، انتهى.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به منّي، اللهمّ اغفر لي هزلي وجِدّي، وخطئي

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩٣٦ و ٥٣٠١ و ٦٥٠٣)، ومسلم (ح/٢٩٥٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٥٩ و ٦٤٩٦).

(٣) سورة الفجر: الآية ٢٣.

(٤) انظر «صحيح البخاري» (١/ ١٩٢ ـــ مع الفتح).

وعمدي، وكلّ ذلك عندي»[1]. وكان يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإنّي أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[2]. وعن عاصم الأحول قال: سمعت عبد الله بن سرخس قال: أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، فقال: «ولك»، فقلت: أَسْتَغْفَرَ لك رسولُ الله ﷺ؟ قال: نعم، ولكم وقرأ: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾[3]؛ **قال البغوي**[4]: هذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمّة حيث أمر نبيّهم ﷺ أن يستغفر لذنوبهم، وهو الشفيع المجاب فيهم. ﴿متقلّبكم ومثواكم﴾، أي: عالم بجميع أحوالكم فلا يخفى عليه منهم شيء.

• • •

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٨٨)، ومسلم (ح/ ٢٧١٩) من حديث عبد الله بن أبـي بردة.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (ح/ ٢٣٤٦).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٦٥).

الدرس الثاني والستون بعد المائتين

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ

لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

قال البغوي[(١)]: وقوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا﴾، حرصاً منهم على الجهاد ﴿لولا نزّلت سورة﴾ تأمرنا بالجهاد ﴿فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال﴾، قال قتادة: كلّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكَمة، وهي أشدّ القرآن على المنافقين ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾، يعني المنافقين ﴿ينظرون إليك﴾ شزراً بتحديق شديد كراهية منهم للقتال، وجبناً عن لقاء العدو ﴿نظر المغشيّ عليه من الموت﴾، كما ينظر الشاخص بصره عند الموت ﴿فأولى لهم﴾ وعيد وتهديد، ومعنى قولهم في التهديد: أولى لك أي وَلِيَكَ وقَارَبَكَ ما تكره.

ثم قال: ﴿طاعة وقول معروف﴾، وهذا ابتداء محذوف الخبر. وقال ابن كثير[(٢)]: ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾، أي: وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا في الحالة الراهنة. ﴿فإذا عزم الأمر﴾، أي: جدّ الحال وحضر القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾، أي: أخلصوا إليه النيّة ﴿لكان خيراً لهم﴾. وقال في

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٦٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧٨).

جامع البيان ﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾، أي: كان الأولى بهم طاعة الله وقول معروف بالإجابة، أو معناه: فالويل لهم من التولّي، وأصله: أولاه الله ما يكرهه، واللام مزيدة، أي: هذا الويل لهم. ثم قال ﴿طاعة﴾، أي: آمرهم طاعة، أو طاعة خير لهم ﴿فإذا عزم الأمر﴾ جدّ الأمر وفرض القتال ﴿فلو صدقوا الله﴾ في الإيمان والطاعة ﴿لكان﴾ الصدق ﴿خيراً لهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿فهل عسيتم﴾، قال بعض المفسّرين: هل يتوقّع منكم ﴿إن تولّيتم﴾، وأعرضتم عن الدين، أو تولّيتم أمور الناس ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾، بالمعاصي والافتراق بعد الاجتماع على الإسلام: ﴿وتقطّعوا أرحامكم﴾، بالقتل والعقوق. وعن قتادة ﴿فهل عسيتم أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم﴾ يقول: فهل عسيتم كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، وقطّعوا الأرحام، وعصوا الرحمن؟ ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، إذاً واللَّهِ، يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله، لو تدبّره القوم فعقلوه، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عند ذلك. وقال خالد بن معدان: ما من آدميّ إلاّ وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبده خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله بعبده غير ذلك طمس عليهما، فذلك قوله: ﴿أم على قلوب أقفالها﴾. وعن عروة بن الزبير قال: «تلا رسول الله ﷺ: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، فقال شابّ من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها؛ فما زال الشابّ في نفس عمر رضي الله عنه حتى وُلِّيَ، فاستعان به»[١].

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/٥٨).

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾.

عن ابن عباس ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم﴾، هم أهل النفاق. وعن قتادة ﴿الشيطان سوّل لهم﴾ يقول: زيّن لهم ﴿وأملى لهم﴾، **قال البغوي**[1]: مدّ لهم في الأمل، وعن ابن عباس ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾، قال: هم أهل النفاق، وقد عرّفهم إياهم في سورة براءة. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم﴾، قال: هؤلاء المنافقون، وقد أراه الله أياهم، وأمرهم أن يخرجوا من المسجد، قالوا: إلّا إن تمسّكوا بلا إلّه إلّا الله حُقنت دماؤهم، ونُكحوا ونوكحوا بها.

وقوله تعالى: ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾، **قال ابن كثير**[2]: أي فيما يبدو من كلامهم الدالّ على مقاصدهم. وفي الحديث: «ما أسرّ أحد سريرة إلّا كساه الله

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٦٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٨٠).

تعالى جلبابها، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ»[1]. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾ قال: نختبركم البلوى الاختباريّ، وقرأ: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون﴾ لا يختبرون. ﴿ونبلو أخباركم﴾.

قال البغوي[2]: نظهرها ونكشفها.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾، أي: دين الله ﴿وشاقّوا الرسول﴾، خالفوه ﴿من بعدما تبيّن لهم الهدى﴾، كاليهود والمنافقين وغيرهم ﴿لن يضرّوا الله شيئاً﴾، فلا يضرّون إلاّ أنفسهم، ﴿وسيحبط أعمالهم﴾، فلا تنفعهم في الآخرة.

قوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ الآية، من استطاع منكم أن لا يبطل عملاً صالحاً عمله بعمل سيِّىء،

(١) أخرجه الطبراني (٢/ ١٧١) بسند ضعيف جداً من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٦٧).

فليفعل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فإن الخير ينسخ الشرّ والشرّ ينسخ الخير، وإن مَلاَك الأعمال خواتيمها. وعن مجاهد ﴿فلا تهنوا﴾، قال: لا تضعفوا، ﴿وتدعوا إلى السَّلْم﴾، قال قتادة: لا تكونوا أول الطائفتين صرعت لصاحبتها ودعتها إلى الموادعة، ﴿وأنتم الأعلون﴾ أولى بالله منهم ﴿والله معكم﴾.

قال ابن كثير[١]: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾، أي: في حال علوّكم على عدوّكم، فأما إذا كان الكفار فيهم قوّة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ورأى الإمام في المهادنة والمصالحة مصلحة، فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ يقول: لن يظلمكم أجور أعمالكم. وقال مجاهد: لن ينقصكم.

وقوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾، أي: هذا حاصلها. ﴿وأن تؤمنوا وتتَّقوا﴾، أن تتركوا المعاصي وتفعلوا الطاعات ﴿يؤتكم أجوركم﴾ في الآخرة ﴿ولا يسألكم أموالكم إن يسألكموها فيحفكم﴾، بمسألة جميعها ﴿تبخلوا﴾ بها فلا تعطوها ﴿ويخرج أضغانكم﴾. قال قتادة: قد علم الله أن في مسألة المال خروج الأضغان[٢]. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء﴾، قال: ليس بالله ــ تعالى ذكره ــ إليكم حاجة، وأنتم أحوج إليه. وعن قتادة: ﴿وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم﴾، قال: إن تولوا عن طاعة الله. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، قالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولّينا استُبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ فضرب على فخذ سلمان قال:

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٨١).

(٢) والأضغان: البغضاء والعداوة.

«هذا وقومه، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس»[1]. رواه ابن جرير وغيره. والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٦٠)، وقال: «حديث غريب في إسناده مقال»، وأيضاً (ح/ ٣٢٦١)، وابن جرير (٢٦/ ٦٦ و ٦٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٨)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وهو صحيح، وبنحوه ــ أيضاً ــ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لو كان الإيمان عند الثرياء لناله رجاله ــ أو رجل ــ من هؤلاء». أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٩٧)، واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٧٣) وبنحوه ــ أيضاً ــ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «لو كان الدين عند الثرياء لذهب به رجل من فارس ــ أو قال من أبناء فارس ــ حتى يتناوله» أخرجه مسلم (ح/ ٢٥٤٦).

الدرس الثالث والستون بعد المائتين

﴿سورة الفتح﴾

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في سيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها، قال معاوية: لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته[1]. متفق عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٢٨١ و ٤٨٣٥ و ٥٠٣٤ و ٥٠٤٧)، ومسلم (ح/ ٧٩٤).

وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ».

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

عن أنس بن مالك في قوله: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ قال: نزلت على النبي ﷺ مرجعه من الحديبية، وقد حيل بينهم وبين نسكهم، فنحر الهدي بالحديبية، وأصحابه مخالطو الكآبة والحزن، فقال: «لقد أنزل عليّ آية أحبّ إليّ من الدنيا جميعاً، فقرأ: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر﴾ إلى قوله: ﴿عزيزاً حكيماً﴾ فقال أصحابه: هنيئاً لك يا رسول الله، قد بيّن الله لنا ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فأنزل الله هذه الآية بعدها: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ إلى قوله: ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾ »[1]. رواه ابن جرير وغيره.

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٢)، وابن جرير (٢٦/ ٦٩)، والحاكم (٢/ ٤٥٩ و ٤٦٠)، مختصراً مطولاً، وهو صحيح، وبنحوه أخرجه البخاري (ح/ ٤١٧٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ قال: السكينة الرحمة ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ قال: إن الله جلّ ثناؤه بعث نبيه محمداً ﷺ بشهادة أن لا إله إلاّ الله، فلما صدّقوا بها زادهم الصلاة، فلما صدّقوا بها زادهم الصيام، فلما صدّقوا به زادهم الزكاة، فلما صدّقوا بها زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم فقال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ قال: فأوثق إيمان أهل الأرض وأهل السموات وأصدقه وأكمله شهادة أن لا إله إلاّ الله.

وقال البغوي[١]: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ الطمأنينة والوقار ﴿في قلوب المؤمنين﴾ لئلاّ تنزعج نفوسهم لما يرد عليهم.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً﴾ يقول: شاهداً على أمته على أنه قد بلّغهم، ومبشّراً بالجنّة لمن أطاع الله، ونذيراً من النار. وعن ابن عباس ﴿وتعزّروه﴾ يعني الإجلال ﴿وتوقّروه﴾ يعني التعظيم. **قال ابن جرير**[٢]: ومعنى التعزير في هذا الموضع التقوية بالنصرة والمعونة، ولا يكون ذلك إلاّ بالطاعة والتعظيم والإجلال. **قال البغوي**[٣]: وهذه الكنايات راجعة إلى النبـي ﷺ، وههنا وَقْفٌ. ﴿وتسبّحوه﴾، أي: تسبّحوا الله، يريد تصلّوا له ﴿بكرة وأصيلاً﴾ بالغداة والعشيّ. قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ليؤمنوا ويعزروه ويوقروه ويسبّحوه بالياء فيهنّ،

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٧١).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/ ٧٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٧٢).

لقوله: ﴿في قلوب المؤمنين﴾، وقرأ الآخرون بالتاء فيهنّ.

﴿إن الذين يبايعونك﴾ يا محمد بالحديبية على أن لا يفروا ﴿إنما يبايعون الله﴾ لأنهم باعوا أنفسهم من الله بالجنّة ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، قال ابن عباس: ﴿يد الله﴾ بالوفاء لما وعدهم من الخير[١] ﴿فوق أيديهم﴾. وقال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه، ويد الله فوق أيديهم في المبايعة. **قال ابن جرير**[٢] **في قوله**: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ وجهان من التأويل: أحدهما يد الله فوق

(١) قلت: استدل أهل السنة ــ رحمهم الله ــ بهذه الآية وما شابهها، على إثبات صفة اليد لله ــ عز وجل ــ حقيقة على الوجه اللائق به تعالى، من غير تكييف، ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل.

أما ما ذكره البغوي عن ابن عباس، فإنه لم يورده بإسناد عنه، حتى يعرف مدى صحته من ضعفه، وأيضاً فإن أكثر ما ينقل عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ في التفسير، إنما هو كذب عليه كما ذكره لك ابن تيمية رحمه الله. قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ كما في «مختصر الصواعق» (٢/ ٣٨٥): «وقوله: (الإيدي ثلاثة، فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى) فهل يصح في عقل أو لغة أو عرف أن يقال: قدرة الله، أو نعمته العليا، ويد المعطي التي تليها، فهل يحتمل هذا التركيب غير يد الذات يومه ما، وهل يصح أن يراد به غير ذلك.. وتأمل قوله: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ فلما كانوا يبايعون رسول الله ﷺ بأيديهم، ويضرب بيده على أيديهم، كان رسول الله ﷺ هو السفير بينه وبينهم، وكانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى، ولما كان سبحانه فوق سماواته على عرشه فوقه الخلائق كلهم، كانت يده فوق أيديهم، كما أنه سبحانه فوقهم، فهل يصح هذا لمن ليس له يد حقيقة، فكيف يستقيم أن يكون المعنى قدرة الله ونعمته فوق قدرهم ونعمهم، أم تقتضي المقابلة أن يكون المعنى هو الذي يسبق إلى الإفهام من هذا الكلام». اهـ.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/ ٧٦).

والتأويل الأول: مقبول، وهو ما عليه أهل السنة في هذه الآية.

وأما التأويل الثاني: فمردود، وهو مخالف لما عليه أهل السنَّة رحمهم الله في هذه الآية، وراجع التعليق في الفقرة السابقة.

أيديهم عند البيعة، لأنهم كانوا يبايعون الله ببيعتهم نبيّه ﷺ؛ والآخر: قوّة الله فوق قوّتهم في نصرة رسوله ﷺ، لأنهم إنما بايعوا رسول الله ﷺ على نصرته على العدوّ.

وقوله تعالى: ﴿فمن نكث﴾، أي: نقض العهد ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾، أي: وباله راجع عليه ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ وهو الجنّة؛ وقرأ حفص بضم هاء عليهُ.

قوله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿سيقول لك المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا

وأهلونا﴾ قال: أعراب المدينة كجهينة ومزينة، استتبعهم لخروجه إلى مكّة، قالوا: نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فنقاتلهم، فاعتلّوا بالشغل. وعن قتادة قوله: ﴿سيقول لك المخلّفون من الأعراب﴾ إلى قوله: ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾، قال: ظنّوا نبيّ الله ﷺ وأصحابه أنهم لن يرجعوا من وجههم ذلك، وأنهم سيهلكون، فذاك الذي خلّفهم عن نبيّ الله ﷺ ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ قال: فاسدين. وقال ابن زيد: البور الذي ليس فيه من الخير شيء. وعن مجاهد قال: رجع ــ يعني رسول الله ﷺ ــ عن مكة، فوعده الله مغانم كثيرة، فعجّل له خيبر فقال المخلّفون ﴿ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله﴾ وهي المغانم ﴿لتأخذوها﴾ التي قال الله جلّ ثناؤه: ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها﴾ وعرض عليهم قتال قوم أولي بأس شديد. وعن مقسم قال: لما وعدهم الله أن يفتح عليهم خيبر، وكان الله قد وعدها من شهد الحديبية، لم يعط أحداً غيرهم منها شيئاً، فلما علم المنافقون أنها الغنيمة قالوا: ﴿ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله﴾ يقول: ما وعدهم. وعن قتادة ﴿سيقول المخلّفون إذا انطلقتم﴾ الآية: وهم الذين تخلّفوا عن رسول الله ﷺ زمن الحديبية؛ ذكر لنا أن المشركين لما صدّوا رسول الله ﷺ زمن الحديبية عن المسجد الحرام والهدي، قال المقداد: «إنا والله لا نقول كالملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبيّهم: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون»(١)، فلما سمع ذلك أصحاب نبيّ الله ﷺ تبايعوا على ما قال، فلما رأى ذلك نبي الله ﷺ صالح قريشاً ورجع من عامه ذلك. وعن قتادة قوله: ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾، أي: إنما جعلت الغنيمة لأهل الجهاد، وإنما كانت غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية، ليس لغيرهم فيها نصيب.

وقوله تعالى: ﴿قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد

---

(١) سبق تخريجه.

تقاتلونهم أو يسلمون﴾ قيل: هوازن وثقيف، وقيل: بنو حنيفة، وقيل: فارس والروم. **قال ابن جرير**[١]: وجائز أن يكون عنى بذلك بعض هذه الأجناس، وجائز أن يكون عنى بهم غيرهم، ولا قول فيه أصح من أن يقال كما قال الله جلّ ثناؤه: إنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد. وعن قتادة قال: ثم عذر الله أهل العذر من الناس فقال: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ قال: هذا كلّه في الجهاد.

● ● ●

(١) انظر «جامع البيان» (٢٦/ ٨٢).

الدرس الرابع والستون بعد المائتين

﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ

ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

عن عكرمة مولى ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكّة، فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكّة من بني عديّ بن كعب من يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إيّاها وغلظتي عليهم، ولكنّي أدلّك على رجل هو أعزّ بها منّي: عثمان بن عفان؛ فدعا رسول الله ﷺ عثمان فبعثه إلى أبـي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظّماً لحرمته؛ فخرج عثمان إلى مكّة فتلقّاه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكّة أو قبل أن يدخلها، فنزل عن دابته فجعله بين يديه، ثم ردفه وأجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل»[1]. قال ابن إسحاق: فحدّثني عبد الله بن أبـي بكر أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل قال: «لا نبرح

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/٨٦).

حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، فكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفرّ، فبايع رسول الله ﷺ الناس ولم يتخلّف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلاّ الجدّ بن قيس أخو بني سلمة، كان جابر بن عبد الله يقول: لكأنّي أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد اختبأ إليها يستتر بها من الناس؛ ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل. رواه ابن جرير.

وعن جابر قال: «كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فبايعنا رسول الله ﷺ على أن لا نفرّ، ولم نبايعه على الموت، قال: فبايعناه كلّنا إلاّ الجدّ بن قيس»[1]. وعن قتادة قوله: ﴿فعلم بما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم﴾، أي: الصبر والوقار ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ وهي خيبر ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ قال البغوي: من أموال يهود خيبر ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ وعن مجاهد قوله ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ قال: المغانم الكثيرة التي وُعدوا: ما يأخذونها إلى اليوم. ﴿فعجّل لكم هذه﴾ قال: عجّل لكم خيبر. وعن قتادة: ﴿وكفّ أيدي الناس عنكم﴾ عن بيوتهم وعيالهم بالمدينة حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ يقول: وذلك آية للمؤمنين: كفّ أيدي الناس عن عيالهم ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾. وعن الحسن ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها﴾ قال: هي فارس والروم. وقال قتادة: بلغنا أنها مكة ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٨٧)، وبنحوه أخرجه مسلم (٣/ ١٤٨٣) من حديث جابر رضي الله عنه.

أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار﴾ يعني كفار قريش؛ قال الله: ﴿ثم لا يجدون وليّاً ولا نصيراً﴾ ينصرهم من الله. وعن عبد الله بن مغفل أن رسول الله ﷺ كان جالساً في أصل شجرة بالحديبية وعلى ظهره غصن من أغصان الشجرة، فرفعتهما عن ظهره، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بين يديه، وسهيل بن عمرو ـ وهو صاحب المشركين ـ فقال رسول الله ﷺ لعليّ: «أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فأمسك سهيل بيده فقال: ما نعرف «الرحمن» أكتب في قصتنا ما نعرف. فقال رسول الله ﷺ: «أكتب: بسمك اللهمّ»، فكتب فقال: «هذا ما صالح محمد رسول الله وأهل مكة»، فأمسك سهيل بيده فقال: لقد ظلمناك إن كنت رسولاً، أكتب في قصتنا ما نعرف. قال: «أكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا رسول الله»، فخرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ: «هل خرجتم في أمان أحد؟» قالوا: لا، فخلّى سبيلهم. قال: فأنزل الله: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾[1]. رواه ابن جرير. وقال قتادة: ذكر لنا أن

(١) أخرجه أحمد (٤/٨٦ ـ ٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٥)، وابن جرير (٢٦/ ٩٣)، =

رجلاً يقال له ابن زنيم اطلع على الثنيّة من الحديبية، فرماه المشركون بسهم فقتلوه، فبعث رسول الله ﷺ خيلاً فأتوه باثني عشر من الكفار فقال لهم: «هل لكم عليّ عهد؟ هل لكم عليّ ذمّة؟» قالوا: لا، فأرسلهم، وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾[1] الآية.

قوله: ﴿هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً﴾ قال قتادة: محبوساً ﴿أن يبلغ مَحِلَّه﴾ قال: وأقبل نبيّ الله ﷺ وأصحابه معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدي، حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون، فصالحهم نبيّ الله ﷺ على أن يرجع من عامه ذلك ثم يرجع من العام المقبل فيكون بمكّة ثلاث ليال، ولا يدخلها إلاّ بسلاح الراكب، ولا يخرج بأحد من أهلها؛ فنحروا الهدي وحلقوا وقصّروا.

﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ حتى بلغ ﴿بغير علم﴾ هذا حين رُدّ محمد ﷺ وأصحابه أن يدخلوا مكّة، فكان بها رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، فكره الله أن يُؤْذَوْا ويوطؤوا بغير علم. **قال البغوي**[2]: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ يعني المستضعفين بمكة ﴿لم تعلموهم﴾ لم تعرفوهم ﴿أن تطؤوهم﴾ بالقتل وتوقعوا بهم ﴿فتصيبكم منهم معرّة بغير علم﴾ قال ابن زيد: معرّة يعني إثم. وقال ابن إسحاق: عزم الدية، وقيل: الكفّارة، لأن الله أوجب على قاتل المؤمن في دار الحرب ـ إذا لم يعلم إيمانه ـ الكفّارة دون الدية، فقال: ﴿فإن كان من قوم عدوّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾[3]، وقيل: هو أن المشركين

= والحاكم (٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وللحديث شاهد من حديث المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم: أخرجه البخاري (/ ٢٧٣١ و ٢٧٣٢) مطولاً، وشاهد آخر من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه، أخرجه مسلم (ح/ ١٨٠٨).

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٩٤) عن قتادة مرسلاً.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٨٤).

(٣) سورة النساء: الآية ٩٢.

يعيبونكم ويقولون: قتلو أهل ديتهم؛ والمعرّة: المشقّة، يقول: لولا أن تطؤوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم، فليزمكم بها كفّارة ويلحقكم سبّة، وجواب «لولا» محذوف تقديره: لأذن لكم في دخولها، ولكنه حال بينكم وبين ذلك ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ يعني حال بينكم وبين ذلك ليدخل ﴿في رحمته﴾ في دين الإسلام ﴿من يشاء﴾ من أهل مكة بعد الصلح قبل أن تدخلوا ﴿لو تزيّلوا﴾ لو تميّزوا يعني المؤمنين من الكفار ﴿لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾. وقال قتادة: إن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار، كما دفع بالمستضعفين من المؤمنين عن مشركي مكة. وعن الزهري قال: كانت حميّتهم التي ذكر الله ﴿إذا جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهلية﴾ أنهم لم يقرّوا أنه: بسم الله الرحمن، الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: بسم الله الرحمن الرحيم. وعن عليّ في قوله: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلاّ الله. وعن عطاء الخراساني: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. وعن عليّ الأزديّ قال: كنت مع ابن عمر بين مكة ومنى، فسمع الناس يقولون: لا إله إلاّ الله، والله أكبر، فقال: هي هي، فقلت: ما هي؟ قال: ﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾ الإخلاص ﴿وكانوا أحقّ بها وأهلها﴾ قال قتادة: وكان المسلمون أحقّ بها وكانوا أهلها، أي: التوحيد وشهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله ﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحقّ﴾ قال: أُرِيَ بالحديبية أنه يدخل مكّة وأصحابه محلّقين؛ وقال أصحابه حين نحر بالحديبية: أين رؤيا محمد ﷺ[1]؟ وقال قتادة: رأى رسول الله ﷺ أنه يطوف بالبيت وأصحابه، وصدّق الله رؤيا فقال: ﴿لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون﴾. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فعلم ما لم تعلموا﴾ قال: ردّه لمكان من بين أظهرهم من المؤمنين والمؤمنات، وأخبره ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ من يريد أن يهديه. وعن الزهري قوله: ﴿فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ يعني صلح الحديبية، وما فتح في الإسلام فتح كأن أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب وأمن الناس كلهم بعضهم بعضاً، التقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلّم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه، فلقد دخل في تينك السنين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر. وعن مجاهد قوله: ﴿من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ قال: النحر بالحديبية، ورجعوا فافتتحوا خيبر ثم اعتمروا بعد ذلك، فكان تصديق رؤياه في السنة القابلة. **قال ابن جرير**[2]: والصواب أن يعمّ صلح الحديبية وفتح خيبر.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/١٠٧).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/١٠٨).

وقوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه وكفى بالله شهيداً﴾، أي: على أنك نبـيّ صالح صادق وسينصرك ويظهر دينك.

وقوله تعالى: ﴿محمد رسول الله﴾ **قال البغوي**[1]: تم الكلام ههنا. قال ابن عباس: شهد له بالرسالة. وعن قتادة في قوله: ﴿والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم﴾ ألقى الله في قلوبهم الرحمة بعضهم لبعض ﴿تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال عكرمة: هو أثر التراب. وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع. وقال مقاتل: هو النور يوم القيامة. قال عطاء الخراساني: دخل في هذه الآية كل من حافظ على الصلوات الخمس. وعن قتادة في قوله: ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال ﴿ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه﴾. وعن الضحاك في قول الله: ﴿محمد رسول الله والذين معه﴾ الآية قال: هذا مثلهم في التوراة، ومثل آخر في الإنجيل ﴿كزرع أخرج شطأه فآزره﴾ الآية. وعن مجاهد في قوله: ﴿كزرع أخرج شطأه﴾ قال: ما يخرج بجنب الحقلة فيتمّ وينهى ﴿فآزره﴾ قال: فشدّه وأعانه. وقوله: ﴿على سوقه﴾ قال: أصوله. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فآزره﴾ اجتمع ذلك فالتفّ؛ وكذلك المؤمنون خرجوا وهم قليل ضعفاء، فلم يزل الله يزيد فيهم ويزيدهم بالإسلام، كما زيد هذا الزرع بأولاده ﴿فآزره﴾ فكان مثلاً للمؤمنين ﴿يعجب الزرّاع﴾ قال: يعجب الزرّاع حسنه ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ بالمؤمنين لكثرتهم. **قال ابن جرير**[2]: وإنما جمع الشطء لأنه أريد به من يدخل في دين محمد ﷺ إلى يوم القيامة ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٨٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/ ١١٥).

الدرس الخامس والستون بعد المائتين

﴿سورة الحجرات﴾

مدنية، وهي ثمان عشرة[١] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا

---

(١) في (الأصل): «ثمانية عشر»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ يقول: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنّة. وقال قتادة: ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون: لو أنزل في كذا لوضع كذا وكذا، قال: فكره الله عز وجل ذلك وقدح فيه. وقال مجاهد: لا تفتأتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه. وعن عبد الله بن الزبير قال: «قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القعقاع بن معبد، وقال عمر: بل أُمِّراً لأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلاّ خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله﴾ حتى انقضت الآية»[1]. رواه البخاري. وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٣٦٧ و ٤٨٤٧ و ٤٨٤٥ و ٧٣٠٢).

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكّساً رأسه فقال له: ما شأنك؟ فقال: شَرٌّ ــ كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار ــ فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنّة»[1]. رواه البخاري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ قال قتادة: أخلص الله قلوبهم فيما أحبّ. وعن مجاهد قال: كُتِبَ إلى عمر: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها، أفضل أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾.

وقال ابن إسحاق: فلما دخل وفد بني تميم المسجد، نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته: أن أخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صاحبهم، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا، قال: «قد أذنت لخطيبكم فليقل»؛ فقام عطارد بن حاجب فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثره عدداً وأيسره عدّة، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس: «قم فأجب الرجل في خطبته»، فقام ثابت بن قيس فقال: الحمد لله الذي له ما في السموات والأرض، خَلْقُهُ قضى فيهنّ أمره، ووسع

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٤٦)، ومسلم (ح/١١٩).

كرسيّه علمه، ولم يك شيء قطّ إلاّ من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى منّا خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً، وأصدقه حديثاً، وأفضله حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على وحيه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله ﷺ من قومه وذوي رحمه أكرم الناس حسباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس فِعالاً، ثم كان أوّل الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله ﷺ، نحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منّا ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. فقام الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع[1]

وكم قسرنا من الأحياء كلّهم ... عند النهاب وفضل الغر يتّبع

ونحن يُطْعِمُ عند القحط مُطْعِمُنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع[2]

بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هوياً ثم نصطنع[3]

فننحر الكوم[4] عبطاً[5] في أرومتنا[6] ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلى حيّ نفاخرهم ... إلاّ استفادوا فكانوا الرأس يقتطع

فمن يفاخرنا في ذاك نعرفه[7] ... فيرجع القوم والأخبار تستمع

إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

---

(١) أي: مواضع العبادة.

(٢) أي: السحاب الخفيف.

(٣) في (الأصل): «هو يأثم تصطنع»، وهو خطأ.

(٤) في (الأصل): «الكرم»، وهو خطأ، والكوم هي: الإبل العظيمة السنام.

(٥) أي: من غير علّة.

(٦) أي: أصلنا.

(٧) في (الأصل): «تعرفه»، والمثبت من سيرة ابن هشام.

قال ابن إسحاق: وكان حسان غائباً فبعث إليه رسول الله ﷺ؛ قال حسان: جاءني رسوله فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله ﷺ وأنا أقول:

منعنا رسول الله إذ دخل وسطنا ... على أنف راض من معد وراغم
منعناه لما حلّ بين بيوتنا ... بأسيافنا من كل باغ وظالم
لبيت حريد عزّه وثراؤه ... بجابية[1] الجولان وسط الأعاجم
هل المجد إلاّ السود والعود[2] والندى ... وجاه الملوك واحتمال العظائم

قال: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ، وقام شاعر القوم فقال ما قال، عرضت في قوله، وقلت على نحو ما قال، قال: فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «قم يا حسّان فأجب الرجل فيما قال» فقام حسان فقال:

إن الذوائب[3] من فهر وإخوتهم ... قد بيّنوا سنّة للناس تتّبع
يرضى بهم كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيّة تلك منهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع[4] الناس ما أوهت[5] أكفّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما وقعوا[6]

---

(١) في (الأصل): «بحابية»، والمثبت من سيرة ابن هشام.
(٢) في الأصل: (إلاّ السود والعود)، والمثبت من سيرة ابن هشام.
(٣) أي: السادة.
(٤) في (الأصل): «لا يرفع»، وهو خطأ، والمثبت من سيرة ابن هشام.
(٥) أي: ما هدمت.
(٦) في (الأصل): «ولا يوقعون ما وقعوا»، وهو خطأ.

إن سابقوا الناس يوماً فإن سبقهم ... أو وازنوا أهل محمد بالندى متعوا

أعفة[١] ذكرت في الوحي عفّتهم ... لا يطبعون[٢] ولا يرديهم طمعوا

لا يبخلون على جار بفضلهم ... ولا يمسّهم من مطمع طبع

إذا نصبنا لحيّ لم ندبّ لهم ... كما يدبّ إلى الوحشية الذرع

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها ... إذا الزعانف[٣] من أظفارها خشعوا

لا يفخرون إذا نالوا عدوّهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا هلع

كأنهم في الوغى والموت مكتنع[٤] ... أسد بحلبة[٥] في أرساغها فدع

خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ... ولا يكن همّك الأمر الذي منعوا

قال ابن إسحاق: فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله، قال الأقرع بن حابس: واللات إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولَشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا، قال: وقد كان الأقرع بن حابس وعيينة شهداء مع رسول الله ﷺ فتح مكة وحنيناً والطائف، فلما قدم وفد بني تميم كانا معهم، وقال حسان بن ثابت أيضاً:

بني دارم[٦] لا تفخروا إن فخركم ... يعود وبالاً عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم ... لنا خول ما بين ظئر وخادم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم ... وأموالكم أن تقسموا في المغانم

فلا تجعلوا لله نداً وأسلموا ... ولا تلبسوا زيّاً كزيّ الأعاجم

---

(١) في (الأصل): «أعفته»، وهو خطأ.

(٢) أي: لا يتدنسون.

(٣) أي: أتباع الناس، خشعوا: ذلوا.

(٤) أي: قريب ودانٍ.

(٥) ويروى: «أسد بحلية».

(٦) في (الأصل): «وارمٍ» وهو خطأ.

قال ابن إسحاق: «فلما فرغ القوم أسلموا، وجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم، وفيهم نزل من القرآن ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ »[1] انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ الآية، قال: «كان رسول الله ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق ليأخذ منهم الصدقات، وإنه لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا ليتلقّوا رسول رسول الله ﷺ، وإنه لما حدّث الوليد أنهم خرجوا يتلقّونه، رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن بني المصطلق قد منعوا الصدقة، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فبينما هو يحدّث نفسه أن يغزوهم، إذ أتاه الوفد فقالوا: يا رسول الله إنا حُدّثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق، وإنا خشينا أنما ردّه كتاب جاءه منك لغضب غضبه علينا، وإنا نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، فأنزل الله عذرهم في الكتاب فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ »[2]. رواه ابن جرير. قال قتادة: فكان نبيّ الله ﷺ يقول: «التبيّن من الله، والعجلة من

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» بنحوه (٥/ ٣١٣ ـ ٣١٥)، وانظر السيرة لابن هشام (٤/ ٢٧٦ ـ ٢٨٣)، و «البداية والنهاية» (٥/ ٤٢ ـ ٤٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٢٤)، والبيهقي في سننه (٩/ ٥٤) بسند ضعيف.

الشيطان»[١].

﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنّتم﴾ قال البغوي[٢]: لأثمتهم وهلكتم. قال قتادة: هؤلاء أصحاب نبيّ الله ﷺ، لو أطاعهم نبيّ الله ﷺ ﴿في كثير من الأمر لعنّتم﴾ فأنتم والله أسخف رأياً وأطيش عقولاً، اتهم رجل رأيه وانتصح كتاب الله، فإن كتاب الله ثقة لمن أخذ به وانتهى إليه، وإنما سوى كتاب الله تغرير. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولكن الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم﴾، قال: حبّبه إليهم وحسّنه في قلوبهم ﴿وكرّه إليكم الكفر والفسوق﴾ قال: الكذب ﴿والعصيان﴾ قال: عصيان النبيّ ﷺ ﴿أولئك هم الراشدون﴾ من أين كان هذا؟ قال: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ قال: والمنافقون سمّاهم الله أجمعين في القرآن: الكاذبين، قال: والفاسق الكاذب في كتاب الله كلّه. **وقال ابن كثير**[٣]: ﴿وكرّه إليكم الكفر والفسوق﴾ وهي الذنوب الكبار ﴿والعصيان﴾ وهي جميع المعاصي، وهذا تدريج لكمال النعمة.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠ ﴾.

قال ابن عباس: فإن الله سبحانه أمر النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ١٢٤) عن قتادة مرسلاً. وروي مسنداً من حديث أنس رضي الله عنه: «التأني من الله...» الحديث، أخرجه أبو يعلى (٤/ ٢٠٦)، والبيهقي في سننه (١٠/ ١٠٤) بسند حسن.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ١٩١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢١٠).

من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحقّ على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقرّوا بحكم الله ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ **قال البغوي**[١]: في الدين والولاية ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ إذا اختلفا واقتتلا ﴿واتقوا الله﴾ فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿لعلّكم ترحمون﴾. ثم ساق بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُهُ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٢].

• • •

(١) المصدر السابق (٤/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٢٤٤٢)، ومسلم (ح/ ٢٥٨٠).

الدرس السادس والستون بعد المائتين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)﴾.

وعن مجاهد: ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾، قال: لا يهزأ قوم بقوم. وقال ابن كثير[١]: ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكبر بطر الحق وغمص الناس»[٢] وروي «وغمط الناس»؛ والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ يقول: لا يطعن بعضكم على بعض. وعن الشعبي قال: حدّثني أبو جبيرة بن الضحاك قال: «فينا نزلت في بني سلمة: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلاّ وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء، قالوا: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ »[٣]. رواه أحمد وغيره. وعن

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٦٩ و ٢٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ح/ ٣٣٠)، وأبو داود (ح/ ٤٩٦٢)، والترمذي (ح/ ٣٢٦٨)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٦)، وابن ماجه (ح/ ٣٧٤١)، وابن جرير (٢٦/ ١٣٢)، والحاكم (٢/ ٤٦٣)، وصححه على شرط =

عكرمة في قوله: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾، قال: هو قول الرجل للرجل: يا فاسق يا منافق.

قال ابن كثير[١]: وقوله جلّ وعلا: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾، أي: بئس الصفة والاسم الفسوق، وهو التنابز بالألقاب ـ كما كان أهل الجاهلية يتداعون ـ بعدما دخلتم في الإسلام وعقلتموه. ﴿ومن لم يتب﴾، أي: من هذا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾.

وعن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ يقول: نهى الله المؤمن أن يظنّ بالمؤمن شرّاً ﴿إن بعض الظنّ إثم﴾، قال سفيان الثوري: الظنّ ظنّان: أحدهما إثم وهو أن تظنّ وتتكلّم به، والآخر ليس بإثم وهو أن تظنّ ولا تتكلّم. وعن ابن عباس ﴿ولا تجسّسوا﴾ قال: نهى الله المؤمن أن يتبع عورات المؤمنين. وقال مجاهد: خذوا ما ظهر لكم ودعوا ما ستر الله.

وقوله تعالى: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الغيبة قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه»[٢]. رواه ابن جرير وغيره. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾؟ قال: حرّم الله على المؤمن أن يغتاب المؤمن بشيء كما حرَّم الميتة. وعن قتادة: ﴿أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾؟ يقول كما أنت كاره لو وجدت جيفته مدوّدة أن تأكل منها، فكذلك فاكره غيبته وهو حيّ ﴿واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برّ تقيّ كريم على الله تعالى، ورجل فاجر

= مسلم، ووافقه الذهبي، و (٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، وهو كما قالا.

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٢٥٨٩).

شقيٌّ هيّن على الله، إن الله عز وجل يقول: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ »[١].

وعن مجاهد قوله: ﴿شعوباً﴾، قال: النسب البعيد، ﴿وقبائل﴾ دون ذلك، ﴿لتعارفوا﴾ قال: جعلنا هذا لتعارفوا فلان بن فلان من كذا وكذا. وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أنسابكم هذه ليست بمساب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم، طفّ الصاع لم تملؤوه، ليس لأحد على أحد فضل إلاّ بدين أو عمل صالح، حسب الرجل أن يكون فاحشاً بذيّاً بخيلاً جباناً»[٢]. رواه ابن جرير. وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس: يوسف نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن نبيّ الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[٣]. رواه البخاري. وعن درّة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أيّ الناس خير؟ فقال ﷺ: «خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله عز وجل، وآمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر،

---

(١) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٧٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٨٦)، قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلاّ من هذا الوجه، وعبد الله بن جعفر يُضَعَّف، ضعفه يحيى بن معين وغيره. . .».
قلت: لكن له شاهد من حديث ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهما وقد خرجتهما في كتاب: «تنبيه ذوي الألباب السليمة» يسّر الله نشره، فالحديث بشاهديه حسن إن شاء الله تعالى. .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥ و ١٥٨)، وابن جرير (٢٦/ ١٤٠)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٢٩٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٣٣٥٣ و ٣٣٨٣)، ومسلم (ح/ ٢٣٧٨).

وأوصلهم للرحم»[١]، رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

عن الزهري ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ إن الإسلام الكلمة، والإيمان العمل[٢]. وعن قتادة قوله: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٣١ و ٤٣)، والطبراني (٢٤/ ٢٥٧)، بسند ضعيف.

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٤/ ٢١٩): «وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة». اهـ.

فائدة: قال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في كتابه «الإيمان» (ص ١٩٩ و ٢٥٨ ط/ المكتب الإسلامي) معلقاً على هذه الآية: «فهذا الإسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم، هل هو إسلام يثابون عليه؟ أم هو من جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف.

أحدهما: أنه إسلام يثابون عليه، ويخرجهم من الكفر والنفاق، **القول الثاني:** أن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل، إلى أن قال: «وحينئذٍ نقول: من قال من السلف: أسلمنا، أي: استسلمنا خوف السيف، وقول من قال: هو الإسلام، الجميع صحيح، فإن هذا إنما أراد الدخول في الإسلام، والإسلام الظاهر يدخل فيه المنافقون، فيدخل فيه من كان في قلبه إيمان ونفاق». اهـ ملخصاً.

تؤمنوا﴾ ولعمري ما عمّت هذه الآية الأعراب، إن من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكن إنما أنزلت في حيّ من أحياء العرب امتنّوا بإسلامهم على نبيّ الله ﷺ فقالوا: أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فقال الله: ﴿لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا﴾، حتى يبلغ في قلوبكم[1].

﴿وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ يقول: لن يظلمكم من أعمالكم شيئاً. وعن مجاهد قوله ﴿لا يلتكم﴾، لا ينقصكم ﴿إن الله غفور رحيم﴾، قال قتادة: غفور للذنوب الكثيرة، رحيم بعباده ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ لم يشكّوا في دينهم ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾، قال ابن زيد: صدقوا إيمانهم بأعمالهم.

قال ابن كثير[2]: وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قل أتعلّمون الله بدينكم﴾، أي: أتخبرونه بما في ضمائركم؟ ﴿والله يعلم ما في السموات وما في الأرض﴾، أي: لا يخفى عليه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿والله بكل شيء عليم﴾. وعن حبيب بن أبي عمرة قال: كان بشر بن غالب ولبيد بن عطارد عند الحجّاج جالسين، فقال بشر بن غالب للبيد بن عطارد: نزلت في قومك بني تميم: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾، فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال: إنه لو علم بآخر الآية أجابه ﴿يمنّون عليك أن أسلموا﴾، قالوا: أسلمنا ولم نقاتلك، بنو أسد. قال ابن كثير[3]: ثم كرّر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون﴾.

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ١٤٢) عن قتادة مرسلاً.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢١٩).

(٣) المصدر السابق (٤/ ١٢٠).

الدرس السابع والستون بعد المائتين

﴿سـورة قٓ﴾

مكية، وهي خمس وأربعون آية

قال ابن كثير[1]: هذه السورة هي أول الحزب المفصّل على الصحيح. وروى أبو داود وغيره عن أوس الثقفي قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحزّبون القرآن؟ فقالوا: «ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصّل وحده»[2]. وروى مسلم وغيره أن النبـي ﷺ «كان يقرأ في العيد بـ «قٓ» و «اقتربت»، وكان يخطب «بقاف» كل جمعة»[3]. قال ابن كثير: والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع مع الكبار كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب. والله أعلم.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٩ و ٣٤٣)، وأبو داود (ح/ ١٣٩٣)، وابن ماجه (١٣٤٥).

(٣) أدخل، المؤلف حديث أبـي واقد الليثي ــ رضي الله عنه ــ مع حديث أم هشام بنت حارثة ــ رضي الله عنه ــ وإليك بيانه، فقوله: (كان يقرأ في العيد بقٓ و «اقتربت») أخرجه مسلم (ح/ ٨٩١) من حديث أبـي واقد الليثي رضي الله عنه، وقوله: «وكان يخطب بـ «قٓ» كل جمعة» أخرجه ــ أيضاً ــ مسلم (ح/ ٨٧٣) من حديث أم هشام بنت حارثة رضي الله عنها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ

ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ».

* * *

قوله عز وجل: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾.

عن سعيد بن جبير ﴿قٓ والقرآن المجيد﴾ يقول: والقرآن الكريم ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾ قال البغوي[1]: يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ غريب ﴿أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ قال الضحاك قالوا: كيف يحيينا الله وقد صرنا عظاماً ورفاتاً وضللنا في الأرض؟ وعن ابن عباس قوله ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ يقول: ما تأكل الأرض من لحومهم وأبصارهم وعظامهم وأشعارهم ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ قال البغوي: وهو اللوح المحفوظ. وقال ابن كثير[2]: ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ وحافظ لذلك، فالعلم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/١٩٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٢٢).

شامل والكتاب أيضاً فيه كلّ الأشياء مضبوطة. وعن قتادة ﴿بل كذّبوا بالحقّ لما جاءهم﴾، أي: كذّبوا بالقرآن ﴿فهم في أمر مريج﴾ يقول: فهم في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقّه من باطله ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج﴾، أي: ليس فيها شقوق، كقوله تعالى: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾[١]. ﴿والأرض مددناها﴾، أي: بسطناها ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ قال قتادة: والرواسي الجبال ﴿وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج﴾، أي: من كلّ نوع حسن.

وعن قتادة قوله: ﴿تبصرة﴾ نعمة من الله يبصرها العباد ﴿وذكرى لكلّ عبد منيب﴾، أي: مقبل إلى الله بقلبه ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات بساتين ﴿وحَبّ الحصيد﴾ **قال ابن جرير**[٢]: من البُرّ والشعير وسائر أنواع الحبوب. وعن ابن عباس قوله: ﴿والنخل باسقات﴾ قال: النخل الطوال ﴿لها طلع نضيد﴾ يقول: بعض على بعض ﴿رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾، أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها، كذلك نحيي الموتى بعد ذهابهم ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبّع كلّ كذّب الرسل فحقّ وعيد﴾ **قال البغوي**[٣]: وجب لهم عذابي. ثم أنزل جواباً لقولهم ﴿ذلك رَجع بعيد﴾ ﴿أفعيينا بالخلق الأوّل﴾ يعني أعجزنا حين خلقناهم أوّلاً فنعيا بالإعادة؟ وهذا تقريع لهم لأنهم اعترفوا بالخلق الأول وأنكروا البعث ﴿بل هم في لَبْس﴾، أي: في شكّ ﴿من خلق جديد﴾ وهو البعث بعد الموت. قال قتادة: فصار الناس فيه رجلين: مكذّب ومصدّق.

---

(١) سورة الملك، الآية ١٧.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/ ١٥٢).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٠١).

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾.

قال ابن جرير[١]: يقول تعالى ذكره: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ ما تحدّث به نفسه، فلا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ قال مجاهد: هو الذي يكون في الحلق. **قال البغوي**[٢]: لأن أبعاضه وأجزاءه يحجب بعضها بعضاً، ولا يحجب علم الله شيء[٣]. ﴿إذ يتلقى

(١) انظر «جامع البيان» (٢٦/ ١٥٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٠١).

(٣) قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ كما في «مختصر الصواعق» (٢/ ٤٥٧ و ٤٥٨): «فهذه الآية لها =

المتلقّيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ قال مجاهد: رصيد، عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيّئات. قال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات، فإذا أذنب قال له: لا تعجل لعلّه يستغفر. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ قال: جعل معه من يكتب كل ما لفظ به، وهو معه رقيب. قال البغوي رقيب: حافظ، عتيد: حاضر أينما كان. وعن أبـي وائل قال: لما كان أبو بكر رضي الله عنه يقضي قالت عائشة رضي الله عنها: هذا كما قال الشاعر: إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر. وقال أبو بكر رضي الله عنه: لا تقولي ذلك، ولكنه كما قال عز وجل: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحقّ ذلك ما كنت تحيد﴾. وعن عثمان رضي الله عنه أنه خطب فقرأ هذه الآية ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾ قال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وعن قتادة قوله: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك﴾ قال: عاين الآخرة ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ قال ابن كثير[1]: أي قويّ، قال الله تعالى: ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾. وقال ابن زيد في قوله

= شأن، وقد اختلف فيها السلف والخلف على قولين:

فقالت طائفة: عند أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة، وعلى هذا فيكون المراد قربه سبحانه بنفسه، وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه وإحاطة عليه به.

والقول الثاني: أن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم، فيقول الملك: نحن قتلناهم، وهزمناهم، قال تعالى: «فإذا قرأناه فاتبع قراءته»، وجبرائيل هو الذي يقرأه على رسول الله ﷺ، وقال: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم» فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه، وملائكته هم الذين باشروه، إذ هو بأمره، وهذا القول أصح من الأول لوجوه» ثم ذكرها، وهو كلام نفيس ينبغي لك مراجعته، وانظر تفسير ابن كثير فقد رجح القول: بأن المراد بالقرب قرب الملائكة لا قرب الله تعالى (٤/ ٢٢٣).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٢٥).

﴿وقال قرينه هذا ما لديّ عتيد﴾ إلى آخر الآية، قال: هذا سائقه الذي وكّل به. وقال ابن كثير: ﴿هذا ما لديّ عتيد﴾، أي: معدّ محضر بلا زيادة ولا نقصان. واختار ابن جرير أن يعمّ السائق والشهيد. قال مجاهد يقول: هذا الذي وكّلتني به من ابن آدم حاضر عندي، وقد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله.

وقوله تعالى: ﴿ألقِيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد﴾ قال الزجاج: هذا أمر للسائق والشهيد. وعن ابن عباس ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ قال: قرينه شيطانه. قال ابن زيد: تبرّأ منه. وعن ابن عباس في قوله: ﴿لا تختصموا لديّ﴾ قال: إنهم اعتذروا بغير عذر، فأبطل الله حجّتهم وردّ عليهم قولهم. وقال أبو عمران في قول الله: ﴿وقد قدّمت إليكم بالوعيد﴾ قال: بالقرآن. وعن مجاهد قوله: ﴿ما يبدّل القول لديّ﴾ قد قضيت ما أنا قاض ﴿وما أنا بظلّام للعبيد﴾. وعن ابن عباس قوله ﴿يوم نقول لجهنّم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾؟ قال ابن عباس: إن الله الملك تبارك وتعالى قد سبقت كلمته ﴿لأملأنّ جهنّم من الجِنّة والناس أجمعين﴾ فلما بعث الناس وأحضروا، وسيق أعداء الله إلى النار زمراً، جعلوا يقتحمون في جهنم فوجاً فوجاً، لا يلقى في جهنّم شيء إلاّ ذهب فيها، ولا يملأها شيء، قالت: ألست قد أقسمت لتملأنّي من الجنّة والناس أجمعين؟ فوضع قدمه، فقالت حين وضع قدمه فيها: قد قد فإنّي قد امتلأت فليس لي مزيد؛ ولم يكن يملأها شيء حتى وجدت مسّ ما وضع عليها، فتضايقت حين جعل عليها ما جعل فامتلأت، فما فيها موضع إبرة[1]. وعن قتادة قوله: ﴿وأزلفت الجنّة للمتّقين﴾ يقول: وأُدنيت ﴿غير بعيد﴾ ﴿هذا ما توعدون لكلّ أوّاب حفيظ﴾، قال قتادة: أي مطيع لله كثير الصلاة ﴿حفيظ﴾ لما استودعه الله من حقّه ونعمته. وقال ابن زيد: الأوّاب: التوّاب الذي يؤوب إلى طاعة الله ويرجع إليها؛ ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء

---

(١) وضع الله ــ عز وجل ــ رجله في النار ثابت في الصحيحين وغيرهما، انظر البخاري (ح/٤٨٤٨ و ٤٨٤٩ و ٤٨٥٠)، ومسلم (٤/٢١٨٦ ــ ٢١٨٨).

بقلب منيب﴾ قال قتادة: أي منيب إلى ربه مقبل ﴿ادخلوها بسلام﴾ قال: سلموا من عذاب الله وسلّم عليهم. ﴿ذلك يوم الخلود﴾ خلدوا واللّهِ فلا يموتون، وأقاموا فلا يظعنون، ونعموا فلا ييأسون؛ ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ قال أنس بن مالك: هو النظر إلى وجه الله الكريم[1].

وقوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدّ منهم بطشاً فنقّبوا في البلاد﴾ قال مجاهد: عملوا. وعن قتادة قوله ﴿فنقبوا في البلاد هل من محيص﴾ قال: حاصَ أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركاً. ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ قال بعض المفسرين: وفي الآية ترتيب حسن، لأنه إن كان إذا قلب ذكيّ يستخرج المعاني بتدبره وفكره، فذاك، وإلاّ فلا بدّ أن يكون مستمعاً مصغياً إلى كلام المنذر ليحصل له التذكّر.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا

---

(١) فسر أهل السنة ــ رحمهم الله ــ هذه الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، وهذه الآية كقوله تعالى: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»، روى مسلم في صحيحه (ح/٢٩٨) من حديث صهيب ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً: «إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تبارك وتعالى: «تريدون شيئاً أزيدكم، فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»، وفي رواية: (ثم قال: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»).

يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض﴾ الآية: أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفِرى على الله، وذلك أنهم قالوا: أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة، قال: فأكذبهم الله وقال: ﴿وما مسّنا من لُغُوب﴾ قال مجاهد: نَصَب. وقال ابن زيد: لم يمسّنا في ذلك عناء، ذلك اللغوب ﴿فاصبر على ما يقولون وسبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ قال قتادة: صلاة الفجر وصلاة العصر. وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا؛ ثم قرأ ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾ »[1]. متفق عليه.

وقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبّحه﴾، أي: صلّ له ﴿وأدبار السجود﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. وعن قتادة ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ قال: كنا نحدّث أنه ينادي من بيت المقدس من الصخرة، وهي أوسط الأرض، قال بريدة: ملك ينادي يقول: يا أيها الناس هلمّوا إلى الحساب، قال فيُقبلون كما قال الله ﴿كأنهم جراد منتشر﴾. ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحقّ﴾ قال البغوي[2]: وهي الصيحة الأخيرة ﴿ذلك يوم الخروج﴾ من القبور ﴿إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير نحن

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٥٤ و ٥٧٣ و ٤٨٥١ و ٧٤٣٤ و ٧٤٣٠ و ٧٤٣٦)، ومسلم (ح/٦٣٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٠٦).

أعلم بما يقولون﴾ فيه تهديد للكفار وتسلية للنبي ﷺ. وعن قتادة قوله ﴿وما أنت عليهم بجبّار﴾ فإن الله عز وجل كره الجبريّة ونهى عنها وقدّم فيها. وعن ابن عباس قال قالوا: يا رسول الله لو خوّفتنا، فنزلت ﴿فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾[١] وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك يا برّ يا رحيم.

● ● ●

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/١٨٥) بسند ضعيف.

الدرس الثامن والستون بعد المائتين

﴿سـورة الذاريـات﴾

مكية، وهي ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

عن عليّ في قول الله تعالى: ﴿والذاريات ذروا﴾ قال: هي الرياح. قيل له: ما ﴿الحاملات وقرا﴾؟ قال: هي السحاب. قيل فما ﴿الجاريات يسرا﴾؟ قال: هي السفن. قيل فما ﴿المقسّمات أمرا﴾؟ قال: الملائكة. وعن قتادة قوله: ﴿إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع﴾ وذلك يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم. وعن ابن عباس ﴿والسماء ذات الحبك﴾ قال: ذات الخَلْق الحسن. وعن قتادة قوله ﴿إنكم لفي قول مختلف﴾ قال: مصدّق بهذا القرآن ومكذّب. وقال ابن زيد يتخرّصون يقولون هذا سحر، ويقولون: هذا أساطير الأولين، فبأي قولهم يؤخذ؟ ﴿قتل الخرّاصون﴾. وعن الحسن ﴿يؤفك عنه من أُفِكَ﴾ قال: يُصرف عنه من صُرف.

وعن ابن عباس قوله: ﴿قتل الخرّاصون﴾ يقول: لُعن المرتابون. وعن مجاهد ﴿قتل الخرّاصون﴾ قال: الذين يتخرّصون الكذب ﴿الذين هم في غمرة ساهون﴾ قلبه في كنانة. وقال ابن زيد: ﴿ساهون﴾ عما أتاهم وعما نزل عليهم، وعما أمرهم الله تبارك وتعالى. وعن مجاهد: ﴿يسألون أيان يوم الدين﴾ يقولون: متى يوم الدين؟ ويكون يوم الدين ﴿يوم هم على النار يُفتنون﴾ كما يُفتن الذهب في النار. وعن ابن عباس قوله ﴿يسألون أيان يوم الدين يوم هم على النار يُفتنون﴾

قال: فتنتهم أنهم سألوا عن يوم الدين وهم موقوفون على النار ﴿ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾ فقالوا حين وُقفوا: يا ويلنا هذا يوم الدين. قال الله تبارك وتعالى: ﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذّبون﴾ وعن قتادة ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ ذوقوا عذابكم ﴿هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم﴾ ما أعطاهم ﴿ربّهم﴾ من الخير والكرامة ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ قبل دخولهم الجنة ﴿محسنين﴾ في الدنيا. وعن ابن عباس ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ قال: لم يكن يمضي عليهم ليلة إلاّ يأخذون منها ولو شيئاً. وقال الحسن: كابدوا قيام الليل ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ قال: مدّوا في الصلاة ونشطوا، حتى كان الاستغفار بِسَحَرٍ. وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ قال: السائل الذي يسأل، والمحروم المحارف. وقال الضحاك: والمحروم هو الرجل المحارف الذي لا يكون له مال إلاّ ذهب، قضى الله له ذلك. وعن قتادة: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ هذان فقيرا أهل الإسلام: سائل يسأل في كفّه وفقير متعفّف، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم. وروى ابن جرير عن الزهريّ [أن النبي ﷺ] قال: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، والأكلة والأكلتان». قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٠٨).

لا يجد غنى ولا يعلم بحاجته فيتصدّق عليه، فذلك المحروم»[١]. وقال ابن زيد: المحروم المصاب ثمره وزرعه، وقرأ: ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه﴾ حتى بلغ: ﴿بل نحن محرومون﴾؛ وقال أصحاب الجنة: ﴿إنا لضالّون بل نحن محرومون﴾. وقال زيد بن أسلم: ليس ذلك بالزكاة، ولكن ذلك مما ينفقون من أموالهم بعد إخراج الزكاة؛ والمحروم الذي يصاب زرعه أو ثمره أو نسل ماشيته، فيكون له حقّ على من لم يصبه ذلك من المسلمين. **قال** ابن جرير[٢]: والصواب أن الآية عامة في كلّ من حرم الرزق واحتاج.

وقوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ قال قتادة: معتبر لمن اعتبر. وعن ابن الزبير: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ قال: سبيل الخلاء والبول. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ وقرأ: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[٣] قال: وفينا آيات كثيرة: هذا السمع والبصر واللسان والقلب يجعل الله فيه العقل. وعن الضحاك في قوله ﴿وفي السماء رزقكم﴾ قال: المطر. وقال مجاهد: الجنّة في السماء ﴿وما توعدون﴾ من خيرٍ أو شرّ. وقيل: إن أرزاقكم في الدنيا ﴿وما توعدون﴾ في العقبى كلّها مقدّرة مكتوبة في السماء. وعن الحسن في قوله: ﴿فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنّكم تنطقون﴾ قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم بنفسه فلم يصدّقوه»[٤].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/٢٠٢) عن الزهري مرسلاً، وروي مسنداً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه البخاري (ح/١٤٧٦ و ١٤٧٩ و ٤٥٣٩)، ومسلم (ح/١٠٣٩) بنحوه.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٦/ ٢٠٤).

(٣) سورة الروم: الآية ٢٠.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٢٠٦).

قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

قال في جامع البيان: ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم﴾ فيه تعظيم لشأن الحديث، وتنبيه على أنه إنما عرفه بالوحي ﴿المكرمين﴾ عند الله تعالى وعند إبراهيم عليه السلام. قال مجاهد: أكرمهم إبراهيم وأمر أهله لهم بالعجل حينئذ. وعن قتادة قوله: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ قال: كان عامة مال نبيّ الله إبراهيم عليه السلام البقر. وعن ابن عباس: ﴿فأقبلت امرأته في صرّة﴾ يقول: في صيحة ﴿فصكّت وجهها﴾ قال السدي: لما بشّر جبريل سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ضربت جبهتها عجباً. ﴿وقالت عجوز عقيم﴾! قال الضحاك: لا تلد ﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ قال البغوي، أي: كما قلنا لك قال ربك: إنك

ستلدين غلاماً ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾. ﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، لنرسل عليهم حجارة من طين، مسوّمة عند ربك للمسرفين﴾ قال ابن عباس: المسوّمة الحجارة المختومة، يكون الحجر أبيض فيه نقطة سوداء، ويكون الحجر أسود فيه نقطة بيضاء، فذلك تسويمها ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ قال قتادة: لو كان فيها من ذلك لأنجاهم الله، ليعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعة على أهله. **قال البغوي**[1]: وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً، لأنه ما من مؤمن إلاّ وهو مسلم.

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾، أي: جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجّيل، وجعلنا محلّتهم بحيرة منتنة خبيثة، ففي ذلك عبرة للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وفي موسى﴾، أي: وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة: ﴿إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ قال ابن كثير، أي: بدليل باهر وحجّة قاطعة ﴿فتولّى بركنه﴾ قال قتادة: غلب عدوّ الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فتولّى بركنه﴾ قال: بمجموعته التي معه ﴿وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ وهو مليم﴾ **قال ابن جرير**[3]: والمليم هو الذي قد أتى ما يلام عليه من الفعل. **قال البغوي**[4]: أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبيّة وتكذيب الرسل ﴿وفي عاد﴾، أي: وفي إهلاك عاد أيضاً آية ﴿إذا أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾ وهي التي لا خير فيها ولا بركة، ولا تلقّح شجراً ولا تحمل مطراً. وعن

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢١١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٣٦).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٧/ ٣).

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢١١).

ابن عباس قوله: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلاَّ جعلته كالرميم﴾ قال: كالشيء الهالك: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتّعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ قال ابن كثير[1]: وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام، فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار: ﴿فما استطاعوا من قيام﴾، أي: من هرب ولا نهوض ﴿وما كانوا منتصرين﴾ قال قتادة: ما كانت عندهم من قوّة يمتنعون بها من عذاب الله عز وجل ﴿وقوم نوح من قبل﴾ قال ابن كثير: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ يقول: بقوّة ﴿وإنا لموسعون﴾ قال ابن كثير، أي: قد وسّعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد ﴿والأرض فرشناها﴾ قال البغوي[2]: بسطناها ومهّدناها لكم ﴿فنعم الماهدون﴾ الباسطون نحن. قال ابن

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٣٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢١٢).

عباس: نِعْمَ ما وَطَّأْتُ لعبادي. وقال مجاهد في قوله: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكرون﴾ قال: الكفر والإيمان، والشقاوة والسعادة، والهدى والضلالة، والليل والنهار، فوالسماء والأرض، والإنس والجنّ. وقال ابن زيد: ذكر وأنثى ذاك الزوجان. **وقال البغوي**[1]: ﴿لعلّكم تذكرون﴾ فتعلمون أن خالق الأزواج فرد ﴿ففرّوا إلى الله﴾ فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾. ﴿كذلك﴾، أي: كما كذّبك قومك يا محمد وقالوا: ساحر أو مجنون ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾ **قال البغوي**[2]: والألف فيه للتوبيخ. **قال ابن كثير**[3]: أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ﴿بل هم قوم طاغون﴾، أي: لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم، فقال متأخّرهم كما قال متقدّمهم. قال الله تعالى: ﴿فأعرض عنهم﴾ يا محمد: ﴿فما أنت بمَلوم﴾ يعني فما نلومك على ذلك ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، أي: إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة.

وعن عليّ بن أبـي طالب في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾، أي: إلاّ لآمرهم أن يعبدون وأدعوهم لعبادتي. قال السدي: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ الله﴾ هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. **قال ابن كثير**: ومعنى الآية: أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتمّ الجزاء، ومن عصاه عذّبه أشدّ العذاب؛ وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. وعن أبـي هريرة مرفوعاً: «قال الله

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢١٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢١٣).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٣٨).

تعالى: يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإلاَّ تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك»[1]. رواه أحمد وغيره. وعن ابن عباس قوله: ﴿ذو القوّة المتين﴾ يقول: الشديد ﴿فإن للذين ظلموا ذَنُوباً﴾ يقول: دلواً ﴿مثل ذَنُوبِ أصحابهم﴾ يقول: للذين ظلموا عذاباً مثل عذاب أصحابهم. وقال ابن زيد يقول: لهم سَجْلٌ من عذاب الله، وقد فعل هذا بأصحابهم من قبلهم، فلهم عذاب مثل عذاب أصحابهم: ﴿فلا يستعجلون﴾ قال ابن كثير[2]، أي: فلا يستعجلون ذلك فإنه واقع لا محال ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ يعني يوم القيامة.

• • •

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٥٨)، والترمذي (ح/٢٤٦٦)، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (ح/٤٠١٧)، بسند ضعيف. وفي (الأصل): «يتضرع»، وهو خطأ.

(٢) المصدر السابق (٤/٢٣٨).

الدرس التاسع والستون بعد المائتين

﴿سـورة الطـور﴾

مكية، وهي تسع وأربعون آية

في الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبـي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾، كاد قلبـي أن يطير»[1]؛ **قال ابن كثير**[2]: وجبير بن مطعم قد قدم على النبـي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَـٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٥٤)، وبنحوه ومسلم (ح/ ٤٦٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٣٩).

ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ».

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال البغوي[١]: ﴿والطور﴾ أراد به الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام. قال ابن كثير[٢]: فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار. وعن مجاهد في قوله: ﴿وكتاب مسطور﴾، قال: صحف قال قتادة: والمسطور المكتوب. ﴿في رَقّ منشور﴾، قال البغوي[٣]: الرَقّ ما يُكتب فيه. وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن رجلاً قال له: ما البيت المعمور؟ قال: «بيت في السماء يقال له الضراح، وهو بحيال الكعبة من فوقها، حرمته في السماء كحرمة البيت في الأرض»[٤]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رُفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢١٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٣٩).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢١٥).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٧/١٧).

يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[١].

وعن عليّ قال: ﴿السقف المرفوع﴾ السماء. وقال ابن زيد في قوله ﴿والبحر المسجور﴾، قال: الموقد، وقرأ ﴿وإذا البحار سجّرت﴾. وعن ابن عباس في قوله ﴿والبحر المسجور﴾ قال: المحبوس. وعن عليّ ﴿والبحر المسجور﴾، قال: بحر في السماء تحت العرش. وقال قتادة: المسجور المملوء. وعن جعفر بن زيد العبيديّ قال: خرج عمر يعسّ في المدينة ذات ليلة، فمرّ بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلّي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿والطور﴾ حتى بلغ: ﴿إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع﴾ قال: «قَسَمٌ وربِّ الكعبة حَقٌّ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه»[٢]. وعن قتادة: ﴿إن عذاب ربك لواقع﴾، وذلك يوم القيامة ﴿يوم تمور السماء موراً﴾ مورها: تحريكها. وقال مجاهد: تدور دوراً. ﴿وتسير الجبال سيراً، فويل يومئذٍ للمكذِّبين الذين هم في خوض يلعبون﴾، قال البغوي[٣]: يخوضون في الباطل، يلعبون غافلين لاهين. وعن ابن عباس ﴿يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّاً﴾ قال: يُدفع بأعناقهم حتى يَرِدُوا النار. قال البغوي: فإذا دنوا منها قال لهم خزنتها: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذّبون﴾، في الدنيا ﴿أفسحر هذا﴾؟ وذلك أنهم كانوا ينسبون محمداً ﷺ إلى السحر، وإلى أنه يغطي على الأبصار بالسحر، فوُبِّخوا به وقيل لهم: ﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها﴾، قاسوا شدتها ﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾، الصبر والجزع ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.

(١) سبق تخريجه تحت حديث الإسراء الطويل.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (رقم/ ١٠٠).

(٣) المصدر السابق (٤/٢١٦).

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾.

قال البغوي[1]: ﴿إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين﴾ معجبين بذلك ناعمين بما آتاهم ربهم ﴿ووقاهم ربهم عذاب الجحيم﴾. وعن ابن عباس في هذه الآية: ﴿والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرّيّتهم﴾، قال: إن الله تبارك وتعالى يدفع للمؤمن ذرّيّته وإن كانوا دونه في العمل، ليقرّ الله بهم عينه؛ ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾، يقول: ما نقصناهم ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾، قال ابن كثير[2]: أي مرتهن بعمله، أي لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم﴾، قال قتادة: إنما كان اللغو والباطل في الدنيا ﴿ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون﴾، ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبيّ الله، هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال: «والذي نفس محمد بيده، إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[3]. ﴿وأقبل

(١) المصدر السابق (٤/٢١٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٤١).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٢٩) عن قتادة مرسلاً.

بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السّموم﴾، قال ابن زيد: عذاب النار. قال ابن جرير وقوله: ﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ يقول: إنا كنا في الدنيا من قبل يومنا هذا ﴿ندعوه﴾ يقول: نعبده مخلصين له الدين لا نشرك به شيئاً ﴿إنه هو البرّ الرحيم﴾، يعني اللطيف بعباده، الرحيم بخلقه أن يعذّبهم بعد توبتهم.

قوله عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

قال البغوي[١]: ﴿فذكّر﴾، يا محمد بالقرآن ﴿فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾، نزلت في الذين اقتسموا عقبات مكة، يرمون رسول الله ﷺ بالكهانة والسحر والجنون والشعر. وعن ابن عباس: إن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبيّ ﷺ، قال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربّصوا به المنون حتى يهلك، كما هلك من قبله من الشعراء زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون﴾[٢]؛ قال

(١) المصدر السابق (٤/٢١٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧/٣١) بسند ضعيف.

البغوي[١]: حوادث الدهر. ﴿قل تربّصوا﴾، انتظروا ﴿فإني معكم من المتربّصين﴾ حتى يأتي أمر الله فيكم. ﴿أم تأمرهم أحلامهم﴾ عقولهم ﴿بهذا﴾ وذلك أن عظماء قريش كانوا يوصفون بالأحلام والعقول، فأزرى الله بعقولهم حين لم تميّز لهم معرفة الحقّ من الباطل ﴿أم هم﴾ بل هم ﴿قوم طاغون أم يقولون تقوّله﴾، أي: تخلّق القرآن من تلقاء نفسه ﴿بل لا يؤمنون﴾ بالقرآن ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾. وقوله تعالى: ﴿أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾، يعني: أوُجِدُوا من غير مُوجِد أم هم أوَجَدُوا أنفسهم؟ أي لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأوجدهم. ﴿أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾، قال ابن كثير[٢]: وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له. ﴿أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون﴾؟، أي: المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك. وعن ابن عباس قوله: ﴿أم هم المسيطرون﴾، يقول: المسلّطون. ﴿أم لهم سلّم يستمعون فيه﴾ الوحي ﴿فليأت مستمعهم بسلطان مبين﴾، حجّة بيّنة. ﴿أم له البنات ولكم البنون﴾؟

قال البغوي[٣]: هذا إنكار عليهم حين جعلوا لله ما يكرهون. وعن قتادة قوله: ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾، يقول: هل سألت هؤلاء القوم أجراً فجهدهم فلا يستطيعون الإسلام؟ ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾؟ قال ابن عباس معناه: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس به؟ ﴿أم يريدون كيدا﴾ مكراً بك ليهلكوك ﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾، قال البغوي: أي هم المجزيّون بكيدهم، يريد أن ضرر ذلك يعود عليهم ﴿أم لهم إلّه غير الله يرزقهم وينصرهم سبحان الله عما يشركون﴾.

---

(١) انظر «معالمُ التنزيل» (٤/٢١٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٢٤٤).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٢٠).

قوله عز وجل: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن يروا كسفاً﴾، يقول: وإن يروا قطعاً ﴿من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم﴾، يقول: لا يصدقوا بحديث ولا يؤمنوا بآيات ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون﴾؛ قال ابن كثير: وذلك يوم القيامة ﴿يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾. وقوله تعالى: ﴿وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك﴾، أي: ما يصيبهم في الدنيا من المصائب، فإنما عذاب للفاجر وكفّارة للمؤمن ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾. ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾، قال ابن جرير: يقول جلّ ثناؤه: فإنك بمرأى منا، نراك ونرى عملك، ونحن نحوطك ونحفظك[1]. ﴿وسبّح بحمد ربك حين تقوم﴾، قال أبو الأحوص: سبحان الله وبحمده. وقال ابن زيد: إذا قام لصلاة ليل أو نهار. ﴿ومن الليل فسبّحه وإدبار النجوم﴾، قال الضحاك: صلاة الصبح.

● ● ●

(١) قلت: وفي هذه الآية: إثبات صفة العين لله عز وجل حقيقة على الوجه اللائق به تعالى من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل.

الدرس السبعون بعد المائتين

﴿سـورة النجـم﴾

مكية، وهي اثنان وستون آية

في الصحيحين عن ابن مسعود قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿والنجم﴾، فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه، إلاَّ رجلاً رأيته أخذ كفّاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٦٣)، ومسلم ــ بنحوه ــ (ح/ ٥٧٦).

وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ
أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ
ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾
فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ
يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ
بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ
يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ
يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ
هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ
ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا
ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ
ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

عن ابن عباس ﴿والنجم إذا هوى﴾ يعني الثريا إذا سقطت وغابت. وقال مجاهد: هي نجوم السماء كلّها حين تغرب. وقال الضحاك: ﴿والنجم إذا هوى﴾ إذا رمي به الشياطين. وعن ابن عباس: يعني النجوم التي يرمى بها الشياطين. قال ابن القيّم[١]: «وهذا قول الحسن وهو أظهر الأقوال، لما بين المقسَم به والمقسَم عليه من التناسب». انتهى. قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلاّ بالخالق. وعن قتادة أن النبي ﷺ تلا ﴿والنجم إذا هوى﴾ فقال عتبة بن أبي لهب: كفرتُ بربّ النجم، فقال: «أما تخاف أن يأكلك كلب الله»؟ فخرج في تجارة إلى اليمن، فبينما هم قد عرّسوا إذ يسمع صوت الأسد فقال لأصحابه: إنّي مأكول، فأحدقوا به، وضُرب على أصمختهم فناموا، فجاء حتى أخذه فما سمعوا إلاّ صوته»[٢].

قال البغوي[٣]: وجواب القسم قوله: ﴿ما ضلّ صاحبكم﴾ يعني محمداً ﷺ،

(١) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٢٤٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٤٠١) عن قتادة مرسلاً.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٢٣).

ما ضلّ عن طريق الهدى ﴿وما غوى﴾. **قال ابن كثير**[(١)]: والغاوي هو العالم بالحقّ العادل عنه إلى غيره. وعن قتادة قوله: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾، أي: ما ينطق عن هواه ﴿إن هو إلاّ وحي يوحى﴾ قال: يوحي الله تبارك وتعالى إلى جبريل، ويوحي جبريل إلى محمد ﷺ. ﴿علّمه شديد القوى﴾ يعني جبريل ﴿ذو مرّة فاستوى﴾ ذو خلق طويل حسن ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ الأفق: الذي يأتي منه النهار. وعن الربيع ﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ قال: السماء ﴿الأعلى﴾ يعني جبريل عليه السلام. وعن قتادة ﴿ثم دنا فتدلّى﴾ يعني جبريل ﴿فكان قاب قوسين﴾ قال مجاهد: قيد أو قدر قوسين. وعن ابن مسعود في هذه الآية ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ستمائة جناح»[(٢)]. وعن مسروق قال: قلت لعائشة: ما قوله: ﴿ثم دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾؟ فقالت: «إنما ذلك جبريل، كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه هذه المرة في صورته فسدّ أفق السماء»[(٣)].

وقال ابن زيد في قوله: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ قال: أوحى جبريل إلى رسول الله ﷺ ما أوحى الله إليه. وعن قتادة في قوله: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ قال: رأى جبريل في صورته، وهو الذي رآه نزلة أخرى. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى له ستمائة جناح»[(٤)]. **وقال البغوي**[(٥)]: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ قرأ أبو جعفر: ما كذّب أي ما كذّب قلب محمد ﷺ ما رأى بعينه تلك الليلة، بل صدّقه وحقّقه؛ وقرأ الآخرون

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٥٦ و ٤٨٥٧)، ومسلم (ح/ ١٧٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٤٦).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٩٥)، وابن جرير (٢٧/ ٤٩)، وقال ابن كثير في تفسيره عن سنده (٤/ ٢٥١): «إسناد جيد».

(٥) المصدر السابق (٤/ ٢٢٥).

بالتخفيف: أي ما كَذَبَ فؤاد محمد ﷺ الذي رأى بل صدّقه، مجازه: ما كذب الفؤاد فيما رأى[١]. انتهى ملخصاً. وعن قتادة قال: قال نبي الله ﷺ: «لما انتهيت إلى السماء السابعة أتيت على إبراهيم فقلت: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّمت عليه فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح، قال: ثم رفعت لي سدرة المنتهى. فحدّث نبيّ الله أن نبقها مثل قلال هجر، وأن ورقها مثل آذان الفيلة»[٢].

وعن ابن عباس: ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتها حتى اسْتَثْبَتُّهَا، ثم حال دونها فَرَاشٌ من ذهب»[٣]. وعن الربيع ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ قال: غشيها نور الربّ، وغشيتها الملائكة، من حبّ الله مثل الغربان حين يقعن على الشجرة. قوله: مثل الغربان: أي الغرانيق البيض. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ قال: ﴿ما زاغ﴾ يميناً ولا شمالاً ﴿ولا طغى﴾ ولا جاوز ما أُمر به ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ قال ابن

---

(١) وهذا على قول من يقول: أن الذي رآه فؤاده جبريل عليه السلام، وهناك قول آخر في هذه المسألة وهو: أن الذي رآه بفؤاده رب العالمين.

قال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ: (وأما الرؤية فالذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين»، وعائشة أنكرت الرؤية، فمن الناس من جمع بينهما فقال: عائشة أنكرت رؤية العين، وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد.

والألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد، تارة يقول: رأى محمد ربه، وتارة يقول رآه محمد، ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه، وكذلك الإمام أحمد... وليس في الأدلة ما يقتضي، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفسيه أول، كما في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: «سألت رسول الله ﷺ، هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أني أراه»). اهـ.

(٢) روي مسنداً من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه أخرجه البخاري (ح/٣٨٨٧)، وقد سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧/٥٦) بسند ضعيف.

مسعود: «رأى النبي ﷺ رفرفاً أخضر من الجنة قد سدّ الأفق»[1]. وقال ابن زيد في قوله: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ قال: جبريل، رآه في خلقه الذي يكون به في السموات، قدر قوسين من رسول الله ﷺ فيما بينه وبينه.

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

قال البغوي قوله: ﴿أفرأيتم اللات والعزى﴾ هذه أسماء أصنام اتخذوها آلهة يعبدونها، اشتقّوا لها أسماء من أسماء الله تعالى فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزّى. وقال ابن عباس: كان اللات رجلاً يلتّ السويق للحاجّ، فلما مات عكفوا على قبره. قال ابن إسحاق: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهي بيوت تعظّمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجّاب، وتهدي لها كما تهدي للكعبة، وتطوف بها كطوافها بها، وتنحر عندها، وهي تعرف فضل الكعبة عليها، فكانت لقريش؛ ولبني كنانة العزّى بنخلة، وكان سدنتها وحجّابها بني شيبان من سليم حلفاء بني هاشم؛ وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجّابها بني معتّب، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب، على ساحل البحر من ناحية المشلّل بقديد؛ وكانت ذو الخلصة لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٨٥٨).

ببلادهم من العرب بتبالة؛ وكانت قلّس لطيء ومن يليها بجبل طيء بين سلمى وأجأ؛ وكان لحمير وأهل اليمن بيت بصنعاء يقال له ريام؛ وكانت رضاء بيتاً لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم؛ وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد.

وقال البغوي[١]: ومعنى الآية: أفرأيتم أخبرونا أيها الزاعمون أن اللات والعزّى ومناة بنات الله تعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً. وقال الكلبـي: كان المشركون بمكة يقولون: الأصنام والملائكة بنات الله؛ وكان الرجل منهم إذا بشّر بالأنثى كره ذلك، فقال الله تعالى منكراً عليهم ﴿ألكم الذكر وله أنثى تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ قال ابن عباس: جائرة.

﴿إن هي إلاَّ أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتّبعون إلاَّ الظنّ وما تهوى الأنفس﴾ **قال ابن كثير**[٢]: أي ليس لهم مستند إلاَّ حسن ظنّهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلاَّ حظّ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي البيان بالكتاب والرسول أنها ليست بآلهة، وأن العبادة لا تصلح إلاَّ لله الواحد القهار. ﴿أم للإنسان ما تمنّى﴾ أيظنّ الكافر أن له ما يتمنّى ويشتهي من شفاعة الأصنام؟ ﴿فللّه الآخرة والأولى وكم من ملك في السموات﴾ ممن يعبدهم هؤلاء الكفار ويرجون شفاعتهم عند الله ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً إلاَّ من بعد أن يأذن الله﴾ في الشفاعة ﴿لمن يشاء ويرضى﴾، أي: من أهل التوحيد. وقال ابن كثير: ﴿أم للإنسان ما تمنّى﴾، أي: ليس كل من تمنّى خيراً حصل له، ﴿ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب﴾.

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٢٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٥٤).

قوله عز وجل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدركه ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنّى وتشتهي، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه»(١). وعن قتادة قوله ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمم﴾ ما كان بين الحدّين لم يبلغ حدّ الدنيا ولا حدّ الآخرة موجبة قد أوجب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليه الحدّ في الدنيا. وقال ابن زيد في قوله ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ قد غفرت ذلك لهم إذ ﴿هو أعلم بكم أنشأكم من الأرض﴾ قال مجاهد: كنحو قوله: ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾. ﴿وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾، أي: ترك المعاصي وفعل الطاعات. قال البغوي: ﴿فلا تزكّوا أنفسكم﴾ لا تبرّئوها عن الآثام ولا تمدحوها بحسن أعمالها ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٢٤٣ و ٦٦١٢) معلقاً، ومسلم (ح/ ٢٦٥٧).

وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ .

قال البغوي[1] قوله عز وجل: ﴿أفرأيت الذي تولّى﴾ نزلت في الوليد بن المغيرة، كان قد اتّبع النبيّ ﷺ على دينه، فعيّره بعض المشركين وقال له: أتركت دين الأشياخ وضلّلتهم؟ قال: إني خشيت عذاب الله؛ فَضَمِنَ الذي عاتبه إن هو أعطي كذا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمّل عنه عذاب الله، فرجع الوليد إلى الشرك وأعطى الذي عيّره بعض ذلك المال الذي ضمن ومنعه تمامه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أفرأيت الذي تولّى﴾ أدبر عن الإيمان ﴿وأعطى﴾ صاحبه ﴿قليلاً وأكدى﴾ بخل بالباقي؛ وأصله من الكدية، وهي حجر يظهر في البئر يمنع من الحفر؛ ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ ما غاب عنه، ويعلم أن صاحبه يتحمّل عنه عذابه؟ ﴿أم لم ينبّأ﴾ يخبر ﴿بما في صحف موسى﴾ يعني أسفار التوراة ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ تمّم وأكمل ما أُمر به؛ ثم بيّن ما في صحفهما فقال: ﴿ألاّ تزر وازرة وزر أخرى﴾، أي: لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى، ومعناه: لا تؤخذ نفس بإثم غيرها ﴿وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى﴾ عمل ﴿وأن سعيه سوف يُرى﴾ في ميزانه يوم القيامة ﴿ثم يُجزاه الجزاء الأوفى﴾ الأكمل الأتمّ ﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾، أي: منتهى الخلق ومصيرهم إليه.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣١).

﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾ قال مجاهد: أضحك أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار ﴿وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ من كل حيوان ﴿من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى﴾، أي: الخلق الثاني للبعث يوم القيامة ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾ قال أبو صالح ﴿أغنى﴾ الناس بالأموال ﴿وأقنى﴾، أي: أعطى القنية وأصول الأموال وما يدّخرونه بعد الكفاية ﴿وأنه هو ربّ الشعرى﴾ وهو كوكب خلف الجوزاء وكانت خزاعة تعبدها ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾ وهم قوم هود وثمود ﴿فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ لطول دعوة نوح إياهم وعتوّهم على الله بالمعصية والتكذيب ﴿والمؤتفكة﴾ يعني قرى قوم لوط ﴿أهوى﴾ أسقط، أي أهواها جبريل بعد ما رفعها إلى السماء ﴿فغشّاها ما غشّى﴾ يعني الحجارة ﴿فبأيّ آلاء ربك﴾ نِعَم ربك أيها الإنسان ﴿تتمارى﴾ تشكّ وتجادل؟ ﴿هذا نذير﴾ يعني محمداً ﴿من النذر الأولى﴾، أي: رسول من الرسل، أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم. ﴿أزفت الآزفة﴾ دنت القيامة واقتربت الساعة ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾، أي: لا يكشف عنها ولا يظهرها غيره ﴿أفمن هذا الحديث﴾ يعني القرآن ﴿تعجبون وتضحكون﴾ استهزاء ﴿ولا تبكون﴾ لما فيه من الوعد والوعيد ﴿وأنتم سامدون﴾ لاهون غافلون. وقال عكرمة: هو الغناء بلغة أهل اليمن، وكانوا إذا سمعوا القرآن تغنّوا ولعبوا. ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾، أي: واعبدوه. انتهى ملخصاً، والله أعلم.

• • •

الدرس الحادي والسبعون بعد المائتين

﴿سورة القمر﴾

مكية، وهي خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٢٢ كَذَّبَتْ ثَمُودُ

بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

عن أنس بن مالك: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقّتين، حتى رأوا حراء بينهما»[1]. متفق عليه. وعند ابن جرير من حديث ابن مسعود قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، فسلوا السُّفّار فسألوهم فقالوا: نعم، قد رأيناه فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾[2]. وعن قتادة قوله: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ قال: إذا رأى أهل الضلالة آية من آيات الله قالوا: إنما هذا عمل السحر، يوشك هذا أن يستمرّ ويذهب ﴿وكذّبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر﴾، أي: واقع، بأهل الخير الخير وبأهل الشرّ الشرّ ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾، أي: هذا القرآن. قال سفيان: المزدجر المنتهي.

﴿حكمة بالغة﴾ قال البغوي[3]: يعني القرآن حكمة تامّة، وقد بلغت الغاية

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٨٦٨)، ومسلم (ح/٢٨٠٢).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٨٥)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٦٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٦).

في الزجر ﴿فما تغني النذر﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾[(١)]. ﴿فتولّ عنهم﴾ قال ابن كثير[(٢)]: أعرض عنهم وانتظرهم ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نُكُر﴾ وهو موقف الحساب ﴿خشّعاً أبصارهم﴾، أي: ذليلة أبصارهم ﴿يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع﴾ قال قتادة: عامدين إلى الداعي ﴿يقول الكافرون هذا يومٌ عَسِرٌ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ويومئذ يتّبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً﴾[(٣)].

قوله عز وجل: ﴿ ۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

عن مجاهد: ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ قالوا: استطير جنوناً. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وقالوا مجنون وازدجر﴾ قال اتهموه وزجروه وأوعدوه، وقرأ: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين﴾. وعن سفيان: ﴿فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾ قال: ماء السماء وماء الأرض. وعن قتادة في قوله: ﴿ذات ألواح﴾ قال: معاريض السفينة: ﴿ودسر﴾ قال: دسرت بمسامير. وقوله تعالى: ﴿تجري بأعيننا﴾ قال ابن كثير[(٤)]، أي: بأمرنا، بمرأى منا وتحت حفظنا

---

(١) سورة يونس: الآية ١٠١.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٦٣).

(٣) سورة طه: الآية ١٠٨.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٦٤).

وكلاءتنا[١] ﴿جزاء لمن كان كُفِرَ﴾، أي: جزاء لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام. وعن قتادة في قوله: ﴿ولقد تركناها آية﴾ قال: ألقى الله سفينة نوح على الجوديّ حتى أدركها أوائل هذه الأمة. وقال البغوي[٢]: ﴿ولقد تركناها آية﴾ يعني الفعلة التي فعلنا. قال ابن كثير[٣]: والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذرّيّتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿فهل من مدّكر﴾ قال البغوي[٦]، أي: متذكّر متّعظ خائف مثل عقوبتهم ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾، أي: إنذاري. وقال ابن كثير[٧]، أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذّب رسلي، ولم يتّعظ بما جاءت به نذري، وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر﴾، أي: سهّلنا لفظه ويسّرنا معناه لمن أراده ليتذكّر الناس، كما قال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب﴾. ﴿فهل من مدّكر﴾، أي: فهل من متذكّر بهذا القرآن الذي قد يسّر الله حفظه ومعناه؟ وعن ابن عباس: لولا أن الله يسّره على لسان

(١) قلت: وفي هذه الآية إثبات صفة للعين لله ــ عز وجل ــ حقيقة على ما يليق بجلاله تعالى، وهذا هو قول أهل السنة سلفاً وخلفاً. أما أذناب الجهمية كالمعتزلة والأشاعرة، فأولوها بالحفظ والرعاية، فراراً من التشبيه فوقعوا في شر مما فروا منه، وهو التعطيل، فنعوذ بالله من الأهواء والبدع، والقول على الله بلا علم.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٧).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٦٤).

(٤) سورة يس: الآية ٤٢.

(٥) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٦) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٨).

(٧) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٦٤).

الآدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلّم بكلام الله عز وجل. وعن قطر الورّاق في قوله: ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ قال: هل من طالب علم فيُعانُ عليه؟ **قال الحافظ ابن حجر**[١]: وقد تكرّر في هذه السورة قوله: ﴿فهل من مدّكر﴾ بحسب تكرّر القصص من أخبار الأمم، استدعاء لأفهام السامعين ليعتبروا.

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿ريحاً صرصراً﴾ قال: الصرصر الشديدة. وقال قتادة الصرصر الباردة. **قال ابن جرير**[٢]: وهي الشديدة العصوف في بَرْدٍ التي لصوْتها صرير. وعن قتادة: ﴿في يوم نحس﴾ قال: النحس الشؤم ﴿مستمر﴾ يستمرّ بهم إلى نار جهنم. وعن مجاهد في قوله: ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ قال: سقطت رؤوسهم كأمثال الأخبية، وتفرّدت عن أعناقهم.

قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) انظر «فتح الباري» (٨/ ٤٨٥).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٧/ ٩٧).

قال البغوي[1]: ﴿كذّبت ثمود بالنذر﴾ بالإنذار الذي جاءهم به صالح: ﴿فقالوا أبشراً﴾ آدمياً ﴿منا واحداً نتّبعه﴾ ونحن جماعة كثيرة ﴿إنا إذاً لفي ضلال﴾ مبين، ضلال: خطأ وذهاب عن الصواب ﴿وسعر﴾ قال ابن عباس: عذاب، وقال الفرّاء: جنون. ﴿أءلقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذّاب أشر﴾ بطر متكبّر ﴿سيعلمون غداً﴾ حين ينزل بهم العذاب ﴿من الكذّاب الأشر إنا مرسلوا الناقة﴾، أي: باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا أن يخرجها منها ﴿فتنة لهم﴾ محنة واختباراً ﴿فارتقبهم﴾ فانتظر ما هم صانعون ﴿واصطبر ونبّئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ وبين الناقة ﴿كلّ شرب محتضر﴾ قال مجاهد: يعني يحضرون الماء إذا غابت الناقة، فإذا جاءت حضروا اللبن ﴿فنادوا صاحبهم فتعاطى﴾ فتناول الناقة بسيفه: ﴿فعقر﴾ انتهى ملخصاً.

وعن الضحاك في قوله: ﴿كهشيم المحتظر﴾ قال: هو الشوك الذي تحظر به العرب حول مواشيها من السباع.

قوله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فتماروا بالنذر﴾ لم يصدّقوه ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ وذكر لنا أن جبريل عليه السلام استأذن ربه في عقوبتهم ليلة أتوا لوطاً، وأنهم عالجوا الباب ليدخلوا عليه، فصفقهم بجناحه وتركهم عمياً يتردّدون

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٣٨).

﴿فذوقوا عذابي ونذر ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر﴾ يقول: استقر بهم إلى نار جهنم.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ يقول: عزيز في نقمته إذا انتقم: ﴿أكفّاركم خير من أولئكم﴾ يقول: ليس كفّاركم خيراً من قوم نوح ولوط. وقال ابن زيد في قوله: ﴿أم لكم براءة في الزبر﴾ في كتاب الله براءة مما تخافون ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولّون الدبر﴾ قال عمر: لما نزلت: ﴿سيهزم الجمع﴾ جعلت أقول: أيّ جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: «سيهزم الجمع ويولّون الدبر»[(١)]. ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ قال البغوي[(٢)]: أي أعظم داهية وبليّة، وأشدّ مرارة من الأسر والقتل يوم بدر.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/١٠٨)، وبنحوه عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أخرجه البخاري (ح/ ٢٩١٥ و ٣٩٥٣ و ٤٨٧٥).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٤١).

وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

قال الحسين بن فضل: ﴿إن المجرمين في ضلال﴾ في الدنيا ونار في الآخرة ﴿يوم يُسْحَبُونَ في النار على وجوههم﴾ قال ابن عباس: إني أجد في كتاب الله قوماً يسحبون في النار على وجوههم، يقال لهم: ﴿ذوقوا مسّ سقر﴾ لأنهم كانوا يكذبون بالقدر. وعن أبي هريرة أن قريشاً خاصمت النبي ﷺ في القدر، فأنزل الله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا إلاَّ واحدة كلمح بالبصر﴾[1] قال ابن عباس: يريد أن قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر[2]. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولقد أهلكنا أشياعهم فهل من مدّكر﴾ قال: أشياعكم من أهل الكفر من الأمم الماضية، يقول: فهل من أحد يتذكّر وكلّ شيء فعلوه في الزبر؟ قال ابن كثير: أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿وكل صغير وكبير﴾، أي: من أعمالهم ﴿مستطر﴾، أي: مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم. ذكر أن رجلاً عمل ذنباً فاستصغره، فأتاه آت في منامه فقال له:

لا تحقرنّ من الذنوب صغيرا ... إن الصغير غداً يعود كبيرا
إن الصغير ولو تقادم عهده ... عند الإله مسطّر تسطيرا
فازجر هواك عن البطالة لا تكن ... صعب القياد وشمّرن تشميرا
إن المحبّ إذا أحبّ إلهه ... طار الفؤاد وأُلهم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بنيّة ... فكفى بربك هادياً ونصيرا

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٦٥٦).

(٢) قال ابن كثير في تفسيره: «ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة أهل السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، ورووا بهذه الآية، وبما شاء كلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين بلغوا في أواخر عصر الصحابة» (٤/٢٦٧).

وقوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ قال جعفر الصادق: مدح الله المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلاَّ أهل الصدق. وروى مسلم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا»[1]. والله أعلم.

• • •

(١) سبق تخريجه.

الدرس الثاني والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الرحمن﴾

مكية، وهي ثمان وسبعون آية

عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلّما أتيت على قوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذّب فلك الحمد»[1]. رواه الترمذي. وعن عليّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لكل شيء عروس، وعروس القرآن: الرحمن»[2]. رواه البيهقي في شعب الإيمان.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟

---

(١) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٢٩١)، وقال: «حديث غريب»، والحاكم (٢/ ٤٧٣) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٣٢)، وفي سنده ضعف، وله شاهد من حديث ابن عمر مرفوعاً بنحوه: أخرجه البزار كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/ ١٥١٤)، وابن جرير (٢٧/ ١٢٤)، فهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٩٠) بسند ضعيف.

ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ

قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

عن قتادة أنه قال في تفسير قوله: ﴿الرحمن علّم القرآن﴾ نعمة والله عظيمة ﴿خلق الإنسان علّمه البيان﴾ قال ابن زيد: البيان الكلام ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ قال ابن عباس: يجريان بعدد وحساب ومنازل ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ قال مجاهد: النجم هو الكوكب، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوابّ وكثير من الناس وكثير حقّ عليه العذاب﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ قال مجاهد: العدل ﴿ألاّ تطغوا في الميزان﴾ قال قتادة: اعدل يا ابن آدم كما تحبّ أن يعدل عليك، وأوف كما تحبّ أن يوفّى لك، فإن بالعدل صلاح الناس. وكان ابن عباس يقول: يا معشر الموالي، إنكم قد ولّيتم أمرين بهما هلك من كان قبلكم، هذا المكيال والميزان ﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾؛ قال ابن زيد: تخسيره نقصه ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ قال مجاهد: للخلائق ﴿فيها فاكهة والنخل ذات

---

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

الأكمام﴾ قال ابن زيد: هو الطلع قبل أن ينفتق ﴿والحبّ ذو العصف والريحان﴾ قال مجاهد: العصف الورق من كل شيء، والريحان الرزق؛ وقال الحسن: هو ريحانكم الذي يشمّ. **قال البغوي**[1]: كلّها مدفوعات بالردّ على الفاكهة؛ وقرأ ابن عامر بنصب الباء والنون، و «ذا» بالألف؛ وقرأ حمزة والكسائي «والريحان» بالجر عطفاً على «العصف»؛ فذكر قوت الناس والأنعام، ثم خاطب الجن والإنس فقال: ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذبان﴾ أيها الثقلان؟ يريد من هذه الأشياء المذكورة؛ وكرّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها، على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدّد على الخلق آلاءه ويفصل بين كل نعمتين بما ينبّههم عليها.

قوله عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

عن قتادة: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾ قال: من طين له صلصلة كان يابساً. وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[2]. رواه مسلم وغيره. وقال ابن زيد: المارج اللهب. وعن مجاهد قوله: ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ قال: مشرق الشتاء ومغربه، ومشرق الصيف ومغربه.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٤٤).

(٢) سبق تخريجه.

وعن ابن عباس قوله: ﴿مرج البحرين﴾ يقول: أرسل. وقال ابن زيد في قوله: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾ قال منعهما أن يلتقيا بالبرزخ الذي جعل بينهما من الأرض. **قال ابن كثير**[١]: والمراد بقوله البحرين: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. قال وقوله تعالى: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾، أي: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾[٢] والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجنّ. وعن ابن عباس قال: إذا أمطرت السماء فتحت الأصداف في البحر أفواهها، فما وقع فيها ــ يعني من قطر ــ فهو اللؤلؤ. وعن قتادة: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ قال: اللؤلؤ: الكبار من اللؤلؤ، والمرجان: الصغار منه. وعن ابن مسعود قال: المرجان الخرز الأحمر. وعن قتادة قوله: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾ يعني السفن. وقال مجاهد: ما رفع قطعة من السفن فهي منشآت، وإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشآت.

قوله عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٧٢).

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٣٠.

إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿ذو الجلال﴾ العظمة والكبرياء(١). وعن قتادة قوله: ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ لا يستغني عنه أهل السماء ولا أهل الأرض، يحيي حيّاً ويميت ميتاً، ويربّي صغيراً ويذلّ كبيراً، وهو مسأل حاجات الصالحين ومنتهى شكواهم. وروى ابن جرير عن منيب بن عبد الله الأزديّ قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كلّ يوم هو في شأن﴾ فقلنا: يا رسول الله وما ذاك الشأن؟ قال: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين»(٢).

وعن ابن عباس قوله: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل. وقال الضحاك بن مزاحم: إذا كان يوم القيامة، أمر الله السماء الدنيا فتشقّقت بأهلها، ونزل من فيها من الملائكة فأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم بالثانية ثم بالثالثة ثم بالرابعة ثم بالخامسة ثم بالسادسة ثم بالسابعة، فصفّوا صفّاً دون صفّ، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم، فإذا رآها أهل

---

(١) قلت: وقد استدل أهل السنة ــ رحمهم الله ــ بهذه الآية وما شابهها على إثبات صفة الوجه لله حقيقة، بلا تشبيه، ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف.

(٢) أخرجه البزار ــ كما في مختصر زوائد البزار» (ح/١٥١٦)، وابن جرير (٢٧/ ١٣٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/١٤٩) بسند ضعيف. وبنحوه من حديث أبي الدرداء مرفوعاً: أخرجه ابن ماجه (ح/٢٠٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٢٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/١٤٨)، وابن حبان ــ «كما في الإحسان» ــ (٢/ ٣٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٥٢)، وهو حديث حسن، وبنحوه من حديث ابن عمر مرفوعاً: أخرجه البزار كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/١٥١٦) بسند ضعيف.

الأرض ندّوا، فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلاّ وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولّون مدبرين﴾، وذلك قوله: ﴿وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً وجيء يومئذ بجهنّم﴾[(١)].

وقوله: ﴿يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان﴾ وذلك قوله: ﴿وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها﴾[(٢)]. وعن مجاهد قوله: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار﴾ قال: اللهب المنقطع ﴿ونحاس﴾ قال: يذاب الصفر من فوق رؤوسهم، وعن قتادة في قوله: ﴿فإذا انشقّت السماء فكانت وردة كالدهان﴾ قال: هي اليوم خضراء، ولونها يومئذ الحمرة. وعن مجاهد: ﴿كالدهان﴾ قال: كالدهن. وعن قتادة في قوله: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ﴾ قال: حفظ الله عز وجل عليهم أعمالهم: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ قال: زرق العيون سود الوجوه ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ قال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه، فيكسر كما يكسر الحطب في التنور ﴿هذه جهنّم التي يكذّب بها المجرمون يطوفون بينهما وبين حميم آن﴾ قال: الآني ما اشتدّ غليانه ونضجه.

قوله عز وجل: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٣.

(٢) سورة الحاقة: الآية ١٦.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنّتان﴾ قال: وعد الله جلّ ثناؤه المؤمنين الذين خافوا مقامه فأدّوا فرائضه الجنّة؛ قال: والخائف من ركب طاعة الله وترك معصيته. وقال ابن زيد: مقامه حين يقوم العباد يوم القيامة، وقرأ: ﴿يوم يقوم الناس لربّ العالمين﴾. وعن مجاهد: ﴿ذواتا أفنان﴾ أغصان. وقال عكرمة: ظلّ الأغصان. وقال الضحاك: ذواتا ألوان من الفاكهة ﴿فيهما عينان تجريان﴾ قال الحسن: إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل. وقوله تعالى: ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: فيهما من كل نوع من الفاكهة ضربان ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ قال ابن مسعود: قد أُخبرتم بالبطائن، فكيف لو أُخبرتم بالظهائر؟ وعن قتادة قوله: ﴿وجنى الجنتين دان﴾ ثمارهما دانية لا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك؛ ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا يقطع رجل ثمرة من الجنّة فتصل إلى فيه، حتى يبدّل الله مكانها خيراً منها»[1]. وعن مجاهد في قوله: ﴿فيهنّ قاصرات الطرف﴾ قال: قصرن طرفهنّ عن الرجال، فلا ينظرن إلاّ إلى أزواجهنّ ﴿لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ﴾ قال: لم يمسّهنّ. وروى ابن جرير عن ابن مسعود مرفوعاً قال: «إن المرأة من أهل الجنة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلّة من حرير، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿كأنّهنّ الياقوت والمرجان﴾؛ أما الياقوت فإنه لو أدخلت فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه»[2]. وعن السدي في قوله: ﴿كأنّهنّ الياقوت

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ١٤٩) عن قتادة مرسلاً.

(٢) أخرجه الترمذي (ح/ ٢٥٣٣)، وابن جرير (٢٧/ ١٥٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٥٨٤) بسند ضعيف. وبنحوه من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «إن للمؤمن زوجتين يرى في سوقهما من فوق ثيابهما»، أخرجه البخاري (ح/ ٣٢٤٥ و ٣٢٤٦)، ومسلم (ح/ ١٧٠ و ١٧٣).

والمرجان﴾ قال: صفاء الياقوت وحسن المرجان. وعن قتادة: ﴿كأنهنّ الياقوت والمرجان﴾ صفاء الياقوت في بياض المرجان ﴿هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان﴾؟ قال: عملوا خيراً فجوزوا خيراً.

قوله عز وجل: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنّتان﴾ جنّتا السابقين، فقرأ: ﴿ذواتا أفنان﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿كأنهنّ الياقوت﴾ ثم رجع إلى أصحاب اليمين فقال: ﴿ومن دونهما جنّتان﴾ فذكر فضلهما وما فيهما. وعن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «جنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم عز وجل إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عَدْنٍ»[1]. متفق عليه. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ومن دونهما جنّتان﴾ هما أدنى من هاتين، لأصحاب اليمين. وعن ابن عباس قوله: ﴿مدهامّتان﴾ قال خضراوان من الريّ ﴿فيهما عينان نضّاختان﴾ بالماء. قال ابن جرير: يعني فوّارتان. وعن سعيد بن جبير قال: نخل الجنّة جذوعها من ذهب، وعروقها من ذهب، وكرانيفها من زمرّد، وسعفها كسوة لأهل الجنّة، ورطبها

(١) سبق تخريجه.

كالدلاء أشدّ بياضاً من اللبن، وألين من الزبد وأحلى من العسل ليس له عجم وعن قتادة في قوله: ﴿خيرات حسان﴾ قال: خيرات في الأخلاق، حسان في الوجوه ﴿حور مقصورات في الخيام﴾ قال الضحاك: الحوراء العيناء الحسناء. وقال مجاهد: ﴿حور﴾ بيض: ﴿مقصورات﴾ على أزواجهنّ فلا يردن غيرهم ﴿في الخيام﴾ قال: لا يبرحن الخيام. وقال عمر بن الخطاب: الخيام درّ مجوّف. وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿متكئين على رفرف خضر﴾ قال: رياض الجنّة. وقال ابن عباس: الرفرف فضول المجالس والبسط ﴿وعبقريّ حسان﴾ قال: الزرابيّ. وقال مجاهد هو الديباج. وعن ابن عباس قوله: ﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾ يقول: ذو العظمة والكبرياء.

● ● ●

الدرس الثالث والسبعون بعد المائتين

﴿سـورة الواقعـة﴾

مكية، وهي ست وتسعون آية

عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت! قال: «شيّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون»[١]. رواه الترمذي. وعن جابر بن سمرة قال: «كان رسول الله ﷺ يصلّي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلّون اليوم، ولكنه كان يخفف، كانت صلاته أخفّ من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر «الواقعة» ونحوها من السور»[٢]. رواه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا

(١) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٠٤)، وابن خزيمة (١/ ٢٦٥).

يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾
وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا
لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى
سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾
فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ
مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن
يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى
ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ
ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾
ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾
فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ
خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾
نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا
لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ
ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ
ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً
وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ».

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦)﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ و ﴿الطامّة﴾ و ﴿الصاخّة﴾ ونحو هذا من أسماء ﴿القيامة﴾، عظّمه الله وحذّره عباده. وعن قتادة ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾، أي: ليس لها مثنويّة ولا رجعة ولا ارتداد. وقوله ﴿خافضة رافعة﴾ قال: أَسْمَعَتِ القريبَ والبعيدَ. ﴿خافضة﴾ أقواماً إلى عذاب الله و ﴿رافعة﴾ أقواماً إلى كرامة الله ﴿إذا رجّت الأرض رجّاً﴾ قال: زلزلت زلزالاً. وعن مجاهد ﴿وبسّت الجبال بسّاً﴾ قال: كما يُبَسُّ السويق[1]. وقال ابن زيد: صارت كثيباً مهيلاً كما قال الله. وعن مجاهد في قوله: ﴿فكانت هباء منبثّاً﴾ قال: شعاع الشمس يدخل من الكوّة ليس بشيء. وعن عليّ رضي الله عنه في قوله:

(١) قال ابن عباس ومجاهد، وعكرمة، وقتادة في قوله تعالى: ﴿وبست الجبال بساً﴾: «فتت الجبال فتاً».

﴿فكانت هباء منبثاً﴾ كوهج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء. وعن قتادة ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة﴾ قال: منازل الناس يوم القيامة ﴿فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعدّ لهم ﴿وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعدّ لهم ﴿والسابقون السابقون﴾، أي: من كلّ أمّة. وعن عثمان بن أبـي سودة أنه قرأ هذه الآية ﴿والسابقون السابقون أولئك المقرّبون﴾ ثم قال: أوّلهم رواحاً إلى المسجد وأوّلهم خروجاً في سبيل الله. وروى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظلّ الله يوم القيامة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أُعطوا الحقّ قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»[1]. وعن الحسن أنه أتى على هذه الآية ﴿والسابقون السابقون أولئك المقرّبون﴾ فقال: أما السابقون فقد مضوا، ولكن: اللهمّ اجعلنا من أصحاب اليمين. وعن ابن عباس ﴿على سرر موضونة﴾ قال: مرمولة بالذهب. وقال عكرمة: مشبّكة بالدرّ والياقوت. ﴿متّكئين عليها متقابلين﴾ قال مجاهد: لا يناظر أحدهم في قفا صاحبه ﴿يطوف عليهم ولدان مخلّدون﴾ قال: لا يموتون. وعن قتادة في قوله: ﴿بأكواب وأباريق﴾ قال: الأكواب التي دون الأباريق ليس لها عرى ﴿وكأس من مَعين﴾، أي: من خمر جارية ﴿لا يصدّعون عنها﴾ ليس لها وجع رأس ﴿ولا ينزفون﴾ لا يغلب أحد على عقله. **وقال البغوي**[2]: ﴿ولا ينزفون﴾ ولا يسكرون؛ هذا إذا قرىء بفتح الزاي، ومن كسرها فمعناها: لا ينفد شرابهم. وقال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصدع، والقيـيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنّة ونزّهها عن هذه الخصال. وعن أم سلمة قالت: قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله الله: ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ قال: «صفاؤهنّ كصفاء الدرّ الذي في الأصداف الذي لا تمسّه

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٦٧، ٦٩) بسند ضعيف.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٥٦).

الأيدي»[١]. رواه ابن جرير. **قال البغوي**[٢]: ويروى أن الحوراء إذا مشت، ليسمع تقديس الخلاخيل من ساقيها، وتمجيد الأسورة من ساعديها، وأن عقد الياقوت ليضحك من نحرها، وفي رجليها نعلان من ذهب، شراكهما من لؤلؤ، يصرّان بالتسبيح. ﴿جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً﴾ قال عطاء: يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام.

قوله عز وجل: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

عن قتادة في قوله: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعدّ لهم ﴿في سدر مخضود﴾ قال: كنا نحدّث أنه الموقر الذي لا شوك فيه. ﴿وطلح منضود﴾ كنا نحدّث أنه الموز. وقال معمر بن المثنى: هو عند العرب شجر عظام كثير الشوك. وقال مجاهد ﴿منضود﴾ أي متراكم الثمر. قال ابن عباس: يشبه طلح الدنيا، ولكن له ثمر أحلى من العسل. وروى النجار[٣] عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم[٤]، قال: أقبل أعرابيّ يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «وما هي»؟ قال: السدر، فإن له شوكاً

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/١٧٨) بسند ضعيف.

(٢) المصدر السابق (٤/٢٥٦).

(٣) في (الأصل): «النجاد» بالدال، والمثبت من تفسير ابن كثير، وهو الصواب.

(٤) في (الأصل): «وما مثلهم»، وهو خطأ.

مؤذياً؛ فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله تعالى يقول: ﴿في سدر مخضود﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمراً وتنفق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر»[١]. وعن أبـي هريرة يبلغ به النبـي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها، اقرأوا إن شئتم ﴿وظلّ ممدود﴾ »[٢]. متفق عليه. وعن سفيان ﴿وماء مسكوب﴾ قال: يجري في غير أخدود. وعن قتادة في قوله ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ قال: لا يمنعه شوك ولا بعد.

وقوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة﴾ قال ابن كثير: أي عالية وطيئة ناعمة. وقوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهنّ إنشاءً﴾ قال أبو عبيدة: يعني بذلك الحور العين. وعن الحسن قال: أتت عجوز فقالت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز»، فولّت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهنّ أبكاراً﴾ »[٣]. رواه الترمذي. وعن ابن عباس: ﴿عرباً أتراباً﴾ قال: العُرب المتحبّبات المتودّدات إلى أزواجهنّ، والأتراب المستويات. وعن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشدّ كوكب درّيّ في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة،

---

(١) أخرجه أبو بكر النجار كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٨) عن سليم بن عامر مرسلاً، وروي مسنداً من حديث أبـي أمامة رضي الله عنه أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦) وصححه ووافقه الذهبـي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الترمذي في (الشمائل) (ح/ ٢٤١)، والبغوي في تفسيره (٤/ ٢٥٨) عن الحسن مرسلاً.

وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، هم على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»[١]. متفق عليه. وقوله تعالى: ﴿ثلّة﴾، أي: جماعة ﴿من الأوّلين وثلة من الآخرين﴾ قال الحسن: ﴿ثلّة من الأوّلين﴾ من الأمم ﴿وثلّة من الآخرين﴾ أمة محمد ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحۡمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٍ مَّعۡلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾، أي: ماذا لهم وماذا أعدّ لهم ﴿في سموم وحميم وظلّ من يحموم﴾ كنا نحدّث أنها ظلّ الدخان ﴿لا بارد ولا كريم﴾ قال: لا بارد المنزل ولا كريم المنظر. وقال الضحاك: كلّ شراب ليس بعذب فليس بكريم. وعن ابن عباس ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ يقول: منعمين ﴿وكانوا يصرّون على الحنث العظيم﴾ قال الضحاك: يعني الشرك. وقال مجاهد: يدمنون على الذنب. وعن ابن عباس قوله: ﴿شرب الهيم﴾ قال:

(١) سبق تخريجه.

الإبل العطاش. وقال عكرمة: هي الإبل المراض تمصّ الماء مصاً ولا تروى.

وقوله تعالى: ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ قال ابن كثير[1]: أي هذا الذي وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، كما قال تعالى في حقّ المؤمنين: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً﴾[2]. وقال البغوي: ﴿هذا نزلهم﴾ يعني ما ذكر من الزقّوم والحميم رزقهم وغذاؤهم، وما أعدّ لهم يوم الدين، يوم يجازون بأعمالهم؛ ثم احتجّ عليهم في البعث فقال تعالى: ﴿نحن خلقناكم﴾ قال مقاتل: خلقناكم ولم تكونوا شيئاً وأنتم تعلمون ذلك ﴿فلولا﴾ فهلاّ ﴿تصدّقون﴾ بالبعث؟ ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ ما تصبّون في الأرحام من النطف ﴿أأنتم تخلقونه﴾ يعني أأنتم تخلقون ما تمنون بشراً ﴿أم نحن الخالقون﴾؟ ﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾ بمغلوبين عاجزين عن إهلاككم وإبدالكم بأمثالكم، فذلك قوله عز وجل ﴿على أن نبدّل أمثالكم﴾ يعني نأتي بخلق مثلكم بدلاً منكم. ﴿وننشئكم﴾ نخلقكم ﴿فيما لا تعلمون﴾ من الصور. وقال الحسن: أي نبدّل صفاتكم فنجعلكم قردة وخنازير. ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿فلولا تذكّرون﴾ إني قادر على إعادتكم كما قدرت على إبدائكم.

قوله عز وجل: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٥).

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٧.

قال البغوي[١]: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ يعني تثيرون من الأرض وتلقون فيها من البذور ﴿ءأنتم تزرعونه﴾ تنبتونه ﴿أم نحن الزارعون﴾ المنبتون؟ وعن حجر المنذريّ أنه كان إذا قرأ ﴿ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ وأمثالها ويقول: بل أنت يا رب. ﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكّهون﴾ قال الكسائي: هو تلهّف على ما فات، وهو من الأضداد. **وقال ابن كثير**[٢]: أي لو جعلناه حطاماً لظلتم تفكّهون في المقالة، تنوّعون كلامكم فتقولون تارة: إنا لمغرمون، وتارة تقولون: بل نحن محرومون. **قال البغوي**[٣]: والغرام العذاب. وقال الضحاك وابن كيسان: غرمنا أموالنا وصار ما أنفقنا غرماً علينا، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض، وهو قوله: ﴿بل نحن محرومون﴾ محدودون ممنوعون أي حُرِمْنا ما كنا نطلبه من الربح في الرزق. وقال ابن زيد: المزن السحاب. وقال الحسن ﴿أجاجاً﴾ مرّاً. وقال ابن عباس: شديد الملوحة.

وعن قتادة قوله: ﴿أفرأيتم النار التي تورون ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون نحن جعلناها تذكرة﴾ للنار الكبرى. ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ قال: «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، قالوا: يا نبي الله إن كانت لكافية. قال: «قد ضُربت بالماء ضربتين لينتفع بها بنو آدم ويدنوا منها»[٤]. ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ قال: للمرمل المسافر. وعن مجاهد ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ للمستمتعين، المسافر والحاضر، لكلّ طعام لا يصلحه إلاّ النار. وقال ابن زيد: المقوي الجائع.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦١).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٢).

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٢٠١) عن قتادة مرسلاً.

وقوله تعالى: ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾ قال ابن كثير[1]: أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة: الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء جعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة، وخلق النار المحرقة وجعل ذلك مصلحة للعباد، وجعل هذه منفعة لهم في معاش دنياهم وزجراً لهم في المعاد.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٧).

الدرس الرابع والسبعون بعد المائتين

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ ﴾.

قال جمهور المفسرين: هذا قسم من الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، و «لا» مزيدة لتأكيد القسم. وعن مجاهد قوله: ﴿بمواقع النجوم﴾، قال: في السماء؛ وهذه الآية كقوله: ﴿فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس﴾[1]. وعن ابن عباس قال: نزل القرآن في ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا جملة واحدة، ثم فرق في السنين بعد، وتلا هذه الآية: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾، قال: نزل متفرّقاً. وقال الحسن: أراد انكدار النجوم وانتثارها يوم القيامة.

وقال ابن كثير[2]: وقوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾، أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به ﴿لقسم﴾ عظيم ﴿لو تعلمون﴾ عظمته لعظّمتم المقسم به عليه ﴿إنه لقرآن كريم﴾، قال البغوي: ﴿إنه﴾، يعني هذا الكتاب، وهو موضع القسم ﴿لقرآن كريم﴾ عزيز مكرّم لأنه كلام الله؛ قال بعض أهل المعاني: الكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير. ﴿في كتاب مكنون﴾ مصون عند الله في اللوح المحفوظ. وعن ابن عباس قال: إذا أراد الله أن ينزل كتاباً نسخته السفرة فـ﴿ـلا يمسّه إلاّ المطهّرون﴾، يعني الملائكة. وعن قتادة قوله: ﴿لا يمسّه إلاّ المطهّرون﴾، ذاكم عند ربّ العالمين، فأما عندكم فيمسّه المشرك النجس والمنافق

---

(١) سورة التكوير: الآية ١٦.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٨).

الرجس. وفي الموطّأ أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «أن لا يمسّ القرآن إلاّ طاهر»[١].

وعن جابر بن زيد في قوله: ﴿تنزيل من ربّ العالمين﴾، قال: القرآن ينزل من ذلك الكتاب. وقال الضحاك: زعموا أن الشياطين تنزّلت به على محمد، فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك وما تستطيعه، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا وهو محجوب عنهم، وقرأ قول الله: ﴿وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون تنزيل من ربّ العالمين﴾[٢]. وعن ابن عباس قوله: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ يقول: مكذّبون غير مصدّقين ﴿وتجعلون رزقكم﴾ يقول: شكركم ﴿أنكم تكذّبون﴾، وقال الحسن في هذه الآية: خسر عبد لا يكون حظّه من كتاب الله إلاّ التكذيب. وعن ابن عباس أنه كان يقرأ: ﴿أو تجعلون رزقكم أنكم تكذّبون﴾، ثم قال: ما مطر الناس ليلة قطّ إلاّ أصبح بعض الناس مشركين يقولون: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا وكذا. وفي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. «قال: أصبح من عبادي مؤمن بـي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بـي كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطِرْنَا بنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافر بـي مؤمن بالكوكب»[٣].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ١٩٩) عن عبد الله بن أبـي بكر بن حزم مرسلاً.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤٢.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٨٤٦ و ١٠٣٨ و ٤١٤٧ و ٧٥٠٣)، ومسلم (ح/ ٧١).

قوله عز وجل: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قال ابن كثير[1] **يقول تعالى:** ﴿فلولا إذا بلغت﴾ الروح ﴿الحلقوم﴾، أي: الحلق ﴿وأنتم حينئذٍ تنظرون﴾، أي: إلى المحتضَر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ونحن أقرب إليه منكم﴾، أي: بملائكتنا ﴿ولكن لا تبصرون﴾، أي: ولكن لا ترونهم، كما قال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا وهم لا يفرّطون ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحقّ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[2]. وعن ابن عباس قوله: ﴿فلولا إن كنتم غير مَدينين﴾، يقول: غير محاسَبين. وقال ابن زيد في قوله: ﴿ترجعونها﴾، قال: لتلك النفس ﴿إن كنتم صادقين﴾، **قال البغوي**[3]: أي تردّون نفس هذا الميت إلى جسده بعدما بلغت الحلقوم، فأجاب عن قوله: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾. وعن قوله: ﴿فلولا إن كنتم غير مَدينين﴾ بجواب واحد معناه: إن كان الأمر كما تقولون: أنه لا بعث ولا حساب ولا إلّه يجازي، فهلاّ تردّون نفس من يعزّ عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ وإذا لم يمكنكم ذلك فاعلموا أن الأمر إلى غيركم وهو الله عز وجل، فآمِنوا به. ثم ذكر طبقات الخلق عند الموت وبيّن درجاتهم فقال: ﴿فأما إن

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٩٩).

(٢) سورة الأنعام: الآية ٦٢.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٤).

كان من المقرّبين فروح وريحان وجنَّة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالّين فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾.

وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فروح وريحان﴾، قال: الروح الفرح، والريحان الرزق؛ قال قتادة: يتلقّى به عند الموت. ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾، قال سلام من عند الله، سلّمت عليه ملائكة الله. وقال ابن زيد: سَلِمَ مما يكون. وقال مقاتل: هو أن الله تعالى يتجاوز عن سيّئاتهم ويقبل حسناتهم. وعن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر ــ مرتين أو ثلاثاً ثم قال ــ : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ــ قال ــ : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرّون بها ــ يعني على ملأ من الملائكة ــ إلاّ قالوا: ما هذه الروح الطيّبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له فيشيّعه من كلّ سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى يُنتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في علّيّين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى

ــ قال ــ : فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقت، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مدّ بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه وحسن الثياب طيّب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزلت إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح، فجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اْخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرّون على ملأ من الملائكة ــ إلاّ قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمّى بها في الدنيا، حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له ــ ثم قرأ رسول الله ﷺ ــ ﴿لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنّة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط﴾، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً ــ ثم قرأ ــ ﴿ومن يشرك بالله فكأنّما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فيقولان له: ما

هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه! لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسَمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشرّ! فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تُقِمِ الساعة»[1]. رواه أحمد وغيره. وفي رواية: «ثم يقيّض له أعمى أصمّ أبكم، وفي يده مرزبّة، لو ضرب بها جبلاً لكان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلاّ الشياطين».

وله من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيّبة كانت في الجسد الطيّب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان وربّ غير غضبان، قال: فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان فيقولون: مرحباً بالروح الطيّبة كانت في الجسد الطيّب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان وربّ غير غضبان، قال: فلا يزال يقال لها ذلك حتي يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسّاق، وآخر من شكله أزواج»[2]. الحديث.

وقوله تعالى: ﴿إن هذا لهو حقّ اليقين﴾، قال البغوي[3]: ﴿إن هذا﴾، يعني ما ذكر من قصة المحتضرين ﴿لهو حقّ اليقين﴾، أي: الحقّ اليقين. وقال ابن

---

(١) سبق تخريجه، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد، (٢/ ٣٦٤)، وابن ماجه (ح/ ٤٢٦٢)، وهو حديث صحيح.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٦٥).

كثير[١]: أي أن هذا الخبر لهو حقّ اليقين الذي لا مرية فيه ولا محيد لأحدٍ عنه ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾. وعن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾، قال: «اجعلوها في ركوعكم»، ولما نزلت ﴿سبّح اسم ربك الأعلى﴾، قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم»[٢]. رواه أحمد وغيره. وفي الصحيحين عن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٣].

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٠١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو داود (ح/ ٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، والحاكم (٢/ ٤٧٧) وصححه، ووافقه الذهبـي.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٦٤٠٦ و ٦٦٨٢ و ٧٥٦٣)، ومسلم (ح/ ٢٦٩٤).

الدرس الخامس والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الحديد﴾

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ

وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٦﴾.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم: «اللهمّ ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم، ربّنا وربّ كلّ شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحبّ والنوى، لا إله إلاّ أنت، أعوذ بك من شرّ كلّ شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»[(١)]. رواه أحمد وغيره. وعن عكرمة في قوله: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ قال: قصر هذا في طول هذا، وطول هذا في قصر هذا. ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ قال ابن كثير[(٢)]: أي يعلم السرائر إن دقّت وإن خفيت.

قوله عز وجل: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١ و ٤٠٤ و ٥٣٦)، وبنحوه مسلم (ح/ ٢٧١٣).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٠٥).

عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

قال ابن كثير: أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحثّ على الإنفاق: ﴿مما جعلكم مستخلفين فيه﴾، أي: مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، وقال: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك؛ وساق حديث عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلاَّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[١]. رواه مسلم. وعن مجاهد قوله: ﴿من الظلمات إلى النور﴾ قال: من الضلالة إلى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض﴾ **قال البغوي**[٢]: أي شيء لكم في ترك الإنفاق فيما يقرّب من الله، وأنتم ميّتون تاركون أموالكم. ثم بيّن فضل من سبق بالإنفاق في سبيل الله وبالجهاد فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح﴾ يعني فتح مكة في قول أكثر المفسّرين. وقال الشعبي: هو صلح الحديبية. **قال ابن كثير**[٣]: وقد يستدلّ لهذا القول بما روى الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام

(١) أخرجه مسلم (ح/٢٩٥٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٦٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٠٦).

سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبيّ ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغتم أعمالهم»[1]. قال ابن كثير[2]: ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد كان بين صلح الحديبية وفتح مكة. وعن قتادة: ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ قال: الجنة ﴿والله بما تعملون خبير﴾ قال ابن كثير: أي فلخبرته فاوت بين ثوابهم.

قوله عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قال البغوي[3]: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم﴾ يعني على الصراط ﴿بين أيديهم وبأيمانهم﴾ يعني عن أيمانهم؛ قال بعضهم: أراد جميع جوانبهم، فعبّر بالبعض عن الكلّ، وذلك دليلهم إلى الجنة. وقال قتادة: ذكر لنا

(١) أخرجه أحمد (٣/٢٦٦) بسند صحيح، وبنحوه عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً، ما أدرك مد أحدهم ولا نصفه»، أخرجه البخاري (ح/٣٦٧٣)، ومسلم (ح/٢٥٤١) وبنحوه ــ أيضاً ــ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: أخرجه مسلم (ح/٢٥٤٠).

(٢) المصدر السابق (٤/٣٠٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٦٩).

أن نبيّ الله ﷺ قال: «إن من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عَدَن أبين وصنعاء ودون ذلك، حتى أن من المؤمنين من لا يضيء نوره إلاّ موضع قدميه»(١). وقال ابن مسعود: «يؤتون من نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نوراً مَنْ نوره على إبهامه فيطفأ مرّة ويوقد مرّة»(٢). وقال الضحاك ومقاتل: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ كتبهم، يريد أن كتبهم التي أعطوها بإيمانهم ونورهم بين أيديهم، وتقول لهم الملائكة: ﴿بشراكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾.

﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم﴾ نستضيء من نوركم، وذلك أن الله تعالى يعطي المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضاً نوراً خديعة لهم، وهو قوله عز وجل: ﴿وهو خادعهم﴾ فبينا هم يمشون إذ بعث الله عليهم ريحاً وظلمة فأطفأت نور المنافقين، فذلك قوله: ﴿يوم لا يخزي الله النبيّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا﴾ مخافة أن يُسلبوا نورهم كما سُلب نور المنافقين: ﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾ فاطلبوا هناك لأنفسكم نوراً، فإنه لا سبيل لكم إلى الاقتباس من نورنا، فيرجعون في طلب النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم ليلقوهم فيميز بينهم وبين المؤمنين؛ وهو قوله: ﴿فضرب بينهم بسور﴾ وهو حائط بين الجنّة والنار: ﴿له باب باطنه فيه الرحمة﴾، أي: في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿وظاهره من قِبَلِهِ العذاب﴾ وهو النار: ﴿ينادونهم ألم نكن معكم﴾ في الدنيا نصلّي ونصوم؟ ﴿قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم﴾ أهلكتموها بالنفاق والكفر، واستعملتموها في المعاصي والشهوات وكلّها فتنة ﴿وتربّصتم﴾ بالإيمان والتوبة ﴿وارتبتم﴾ تشكّكتم ﴿وغرّتكم الأمانيّ﴾ الأباطيل وما كنتم تتمنّون من نزول الدوائر

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٢٢٢) عن قتادة مرسلاً.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٢٢٣)، والحاكم (٢/ ٤٧٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

بالمؤمنين ﴿حتى جاء أمر الله﴾ يعني الموت: ﴿وغرّكم بالله الغَرور﴾ يعني الشيطان. قال قتادة: ما زالوا على خدعة من الشيطان حتى قذفهم الله في النار ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ يعني المشركين: ﴿مأواكم النار هي مولاكم﴾ صاحبكم وأولى بكم لما أسلفتم من الذنوب ﴿وبئس المصير﴾ انتهى ملخصاً. والله أعلم.

قوله عز وجل: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ الآية، ذكر لنا أن شدّاد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول ما يرفع من الناس الخشوع»[١]. **قال ابن كثير**[٢] يقول تعالى: أما آن للمؤمنين: ﴿أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه؟ ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾ قال ابن عباس: مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن مواعظ الله. **قال البغوي**[٣]: والمعنى أن الله عز وجل ينهى المؤمنين أن يكونوا في صحبة القرآن كاليهود والذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ يعني

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٢٢٨) بسند منقطع، ووصله الطبراني (٧/ ٢٩٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣١٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٧١).

الذين تركوا الإيمان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿اعلموا أن الله يحيـي الأرض بعد موتها قد بيّنّا لكم الآيات لعلّكم تعقلون﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يليّن القلوب بعد قسوتها برحمته كما يحيـي الأرض بعد جدبها ﴿إن المصّدّقين والمصّدّقات﴾، أي: المتصدّقين والمتصدّقات ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ بالصدقة والنفقة في سبيل الله عز وجل ﴿يضاعف لهم﴾ ذلك القرض ﴿ولهم أجر كريم﴾ ثواب حسن وهو الجنة ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون﴾ قال مجاهد: كلّ من آمن بالله ورسله فهو صدّيق، وتلا هذه الآية. وعن ابن عباس في قوله: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون﴾ قال: هذه مفصولة. **قال ابن كثير**[1]: وقوله تعالى: ﴿والشهداء عند ربّهم﴾، أي: في جنات النعيم، كما جاء في الصحيحين: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطّلاعة فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحبّ أن تردّنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنُقْتَل كما قُتلنا أوّل مرّة، فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون»[2].

وقوله تعالى: ﴿لهم أجرهم ونورهم﴾، أي: لهم عند الله أجر جزيل ونور عظيم ﴿يسعى بين أيديهم﴾ وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر الأشقياء وبيّن حالهم. والله المستعان.

● ● ●

(١) المصدر السابق (٤/ ٣١٢).

(٢) أخرجه مسلم (ح/١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ووهم ابن كثير، وتبعه المؤلف ــ رحمهما الله ــ فعزيا هذا الحديث إلى البخاري أيضاً، وليس كذلك.

الدرس السادس والسبعون بعد المائتين

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى
ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ
حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ
ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو
ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى
كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا
فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ
يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ
بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ
وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى
ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ
قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا
عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ

أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

قال البغوي[1]: قوله عز وجل: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا﴾، أي: أن الحياة في هذه الدار ﴿لعب﴾ باطل لا حاصل له ﴿ولهو﴾ فرح ثم ينقضي ﴿وزينة﴾ منظر تتزيّنون به ﴿وتفاخر بينكم﴾ يفخر به بعضكم على بعض ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾، أي: مباهاة بكثرة الأموال والأولاد؛ ثم ضرب لها مثلاً فقال: ﴿كمثل غيث أعجب الكفار نباته﴾، أي: الزرّاع ﴿نباته﴾ ما نبت من ذلك الغيث ﴿ثم يهيج﴾ ييبس ﴿فتراه مصفرّاً﴾ بعد خضرته ونضرته ﴿ثم يكون حطاماً﴾ يتحطّم ويتكسّر بعد يبسه ويفنى ﴿وفي الآخرة عذاب شديد﴾ قال مقاتل: لأعداء الله ﴿ومغفرة من الله ورضوان﴾ لأوليائه وأهل طاعته ﴿وما الحياة الدنيا إلاَّ متاع الغرور﴾ قال سعيد بن جبير ﴿متاع الغرور﴾ لمن لم يشتغل فيها بطلب الآخرة، ومن اشتغل بها فله ﴿متاع﴾ بلاغ إلى ما هو خير منه.

وقال في جامع البيان ﴿أعجب الكفار﴾ الزرّاع، أو الكافرون، فإنهم أشدّ إعجاباً بخضرة الدنيا، ولم يذكر ابن جرير غير الثاني؛ **وقال بعض المفسرين**:

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٧٢).

ومعنى إعجاب الكفار أنهم جحدوا نعمة الله فيه بعد أن راق في نظرهم، فبعث الله عليهم العاهة فصيّره كَلَاَ شيء، ومن جعل الكفّار بمعنى الزرّاع فظاهر، قاله ابن مسعود.

وقال ابن كثير[1]: يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقّراً لها: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد﴾، أي: إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا، كما قال تعالى: ﴿زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[2].

قال: وقوله تعالى: ﴿أعجب الكفار نباته﴾، أي: يعجب الزرّاع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، وكما يعجب الزرّاع ذلك، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفّار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها.

وقوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ قال ابن جرير[3] يقول تعالى ذكره: ﴿سابقوا﴾ أيها الناس إلى عمل يوجب لكم ﴿مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدّت﴾ هذه الجنة ﴿للذين آمنوا بالله ورسله﴾ يعني الذين وحّدوا الله وصدّقوا رسله ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ قال البغوي: فبيّن أن أحداً لا يدخل الجنّة إلاّ بفضل الله.

قوله عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣١٢).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤.

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٧/ ٢٣٣).

يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاَّ في كتاب من قبل أن نبرأها﴾ قال: هو شيء قد فرغ منه من قبل أن تبرأ النفس. قال قتادة: أما ﴿مصيبة في الأرض﴾ فالسنون، وأما ﴿في أنفسكم﴾ فهذه الأمراض والأوصاب ﴿من قبل أن نبرأها﴾ من قبل أن نخلقها. وقال الحسن: كلّ مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ قال ابن كثير[1]: أي أن علمه تعالى الأشياء قبل كونها، وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها، سهل على الله عز وجل، لأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن، لو كان كيف يكون. وعن ابن عباس: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم﴾ من الدنيا ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ منها. وقال عكرمة: ليس أحد إلاَّ وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً.

﴿والله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾ قال البغوي[2]: ﴿مختال﴾ متكبّر بما أوتي من الدنيا ﴿فخور﴾ يفخر به على الناس. وقوله تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾، أي: يبخلون بالواجب ويأمرون الناس بذلك. وقال ابن كثير: أي يفعلون المنكر ويحضّون الناس عليه ﴿ومن يتولّ فإن الله هو الغنيّ الحميد﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

عن قتادة ﴿الكتاب والميزان﴾ قال: الميزان العدل. وقال ابن زيد: الميزان

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣١٣).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٧٣).

ما يعمل الناس ويتعاطون عليه في الدنيا من معايشهم التي يأخذون ويعطون، يأخذون بميزان ويعطون بميزان، يعرف ما يأخذ وما يعطي، قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون، فالكتاب للآخرة والميزان للدنيا. ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ قال: البأس الشديد السيوف والسلاح الذي يقاتل الناس به. ﴿ومنافع للناس﴾ بعد يحفرون به الأرض والجبال وغير ذلك. قال البغوي: روي عن ابن عمر يرفعه: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد، والنار، والماء، والملح»(١). وقال أهل المعاني: معنى قوله: ﴿أنزلنا الحديد﴾ أنشأنا وأحدثنا أي أخرج لهم الحديد من المعادن وعلّمهم صنعته. وعن مجاهد قوله: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ وجُنّة وسلاح، وأنزله ليعلم الله من ينصره. **وقال البغوي**(٢): أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليتعامل الناس بالحقّ والعدل ﴿وليعلم الله﴾ وليرى الله ﴿من ينصره﴾، أي: دينه ﴿ورسله بالغيب﴾، أي: قام بنصرة الدين ولم ير الله ولا الآخرة، وإنما يحمد ويثاب من أطاع الله بالغيب ﴿إن الله قويّ عزيز﴾.

قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾.

عن ابن عباس قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلّوا التوراة والإنجيل، وكان

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٧٣).

فيهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل، فقيل لملكهم: ما نجد شيئاً أشدّ علينا من شتم يشتمنا هؤلاء، إنهم يقرأون ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ هؤلاء الآيات مع ما يعيبونا به في قراءتهم، فادعهم فليقرأوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا به، قال: فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلاّ ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك؟ فدعونا، قال: فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نردّ عليهم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما تشرب الوحوش فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نَرِدُ عليكم ولا نمرّ بكم، وليس أحد من أولئك إلاّ وله حميم فيهم، قال: ففعلوا ذلك فأنزل الله جلّ ثناؤه: ﴿ورهبانية ابتدعوها وما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها﴾ والآخرون قالوا: نتعبّد كما تعبّد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتّخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم، قال: فلما بعث النبيّ ﷺ ولم يبق منهم إلاّ قليل، انحطّ رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وجاء صاحب الدار من داره، وآمنوا وصدّقوه فقال الله جلّ ثناؤه ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾.

قال ابن جرير[1]: لإيمانهم بعيسى وتصديقهم بالتوراة والإنجيل، وإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم به. قال: ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ القرآن واتباعهم النبيّ ﷺ. وقال: ﴿لئلاّ يعلم أهل الكتاب ألاّ يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾. وعن قتادة ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتّبعوه رأفة ورحمة﴾ فهاتان من الله، والرهبانية ابتدعها القوم من أنفسهم ولم تكتب عليهم، ولكن ابتغوا بذلك وأرادوا رضوان الله ﴿فما رعوها حقّ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٧/ ٢٤٢).

رعايتها﴾ ذكر لنا أنهم رفضوا النساء واتّخذوا الصوامع. وقال ابن زيد: ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تطوّعاً ﴿فما رعوها حقّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ قال: الذين رعوا ذلك الحقّ.

قال ابن كثير[1] وقوله تعالى: ﴿فما رعوها حقّ رعايتها﴾، أي: فما قاموا بما التزموه حقّ القيام، وهذا ذمّ لهم من وجهين، **أحدهما**: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله، **والثاني**: عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة. **وقال ابن جرير**[2] **وقوله**: ﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم﴾ يقول تعالى ذكره: فأعطينا الذين آمنوا بالله ورسله، من هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية، ثوابهم على ابتغائهم رضوان الله وإيمانهم به وبرسوله في الآخرة ﴿وكثير منهم﴾ أهل معاص وخروج عن طاعته والإيمان به انتهى. قال بعضهم: الصوفية وزان أولئك.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

عن مجاهد قوله: ﴿يؤتكم كفلين من رحمته﴾ قال: ضعفين. وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدّى حقّ الله وحقّ مواليه فله أجران، ورجل أدّب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران»[3]. وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣١٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٧/ ٢٤١).

(٣) سبق تخريجه.

والنصارى، كمثل رجل استعمل قوماً يعملون له عملاً، يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا في أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا أكملوا بقيّة عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا واستأجر آخرين بعدهم فقال أكملوا بقيّة يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلّوا العصر قالوا: ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال: أكملوا بقيّة عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقيّة يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»[١]. رواه البخاري.

وعن ابن عباس ﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ قال: الفرقان، واتباعهم النبـيّ ﷺ ﴿ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾. ﴿لئلاّ يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ قال قتادة: حسد الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب المؤمنين منهم فأنزل الله تعالى: ﴿لئلاّ يعلم أهل الكتاب﴾ وقال مجاهد: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبـيّ يقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا به فأنزل الله تعالى ﴿لئلاّ يعلم أهل الكتاب﴾ **قال البغوي**[٢]: أي ليعلم، و «لا» صلة ﴿ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾، أي: ليعلم الذين يؤمنوا أنهم لا أجر لهم ولا نصيب لهم في فضل الله ﴿وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

• • •

(١) أخرجه البخاري (ح/٥٥٨ و ٢٢٧١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٧٥).

الدرس السابع والسبعون بعد المائتين

﴿سـورة المجـادلـة﴾

مدنية، وهي اثنتان[١] وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن

(١) في (الأصل): «اثنان»، والصواب ما أثبت.

ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ
بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ
أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ
وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ
ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ
ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ
نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا
هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ
إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ
مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ
أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ
ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ
فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

روى الإمام أحمد وغيره عن عائشة قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلّمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ إلى آخر الآية»[1]. وفي رواية ابن أبي حاتم قالت: «تبارك الذي أوعى سمعه كلّ شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي وأفنى شبابي ونشرت له بطني، حتى إذا كبرت سنّي وانقطع ولدي ظاهَرَ منّي! اللهم إنّي أشكو إليك. قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في

(١) أخرجه أحمد (٦/٤٦)، والبخاري تعليقاً (رقم/ ٧٣٨٥)، والنسائي في المجتبى (٦/١٦٨)، وأيضاً في الكبرى (٦/ ٤٨٢)، وابن ماجه (ح/١٨٨ و ٢٠٦٣)، وابن جرير (٢٨/٥ و ٦)، والحاكم (٢/ ٤٨١)، وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي (٢/ ٣٨٢)، وهو حديث صحيح.

زوجها﴾ قالت: وزوجها أوس بن الصامت»[١]. وفي رواية: «وقد ندم، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به؟ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت عليه». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي. فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلاّ قد حرمت عليه، ولم أومر في شأنك شيء». فقالت: أشكو إلى الله فاقتي وشدّة حالي، وإن لي صبية صغاراً إن أرسلتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا، اللهمّ إني أشكو إليك؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ الآيات. وعن قتادة في قول الله: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ قال: ذاك أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة؛ قالت: يا رسول الله كبر سنّي ورقّ عظمي وظاهر منّي زوجي؛ قال: فأنزل الله: ﴿الذين يظاهرون من نسائهم﴾ إلى قوله: ﴿ثم يعودون لما قالوا﴾ يريد أن يغشى بعد قوله: ﴿فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا﴾ فدعاه إليه نبيّ الله ﷺ فقال: «هل تستطيع أن تعتق رقبة؟» قال: لا، قال: «أفتسطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟»، قال: إنه إذا أخطأه أن يأكل كلّ يوم ثلاث مرات لَكَلَّ بَصَرُهُ، قال: «أتستطيع أن تطعم ستّين مسكيناً؟»، قال: لا، إلاّ أن يعينني فيه رسول الله ﷺ بعون وصلاة؛ فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً»[٢]، وجمع الله له أمره ﴿والله غفور رحيم﴾. وعن أبي قلابة قال: كان الظهار طلاقاً في الجاهلية، الذي إذا تكلّم به أحدهم لم يرجع في امرأته أبداً، فأنزل الله عز وجل فيه ما أنزل. وعن قتادة ﴿منكراً من القول وزوراً﴾ قال: الزور الكذب: ﴿وإن الله لعفوّ غفور﴾.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا

(١) انظر الحديث الذي قبله.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ٣)، عن ابن عباس بسند ضعيف.

فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن الذين يحادّون الله ورسوله﴾ يقول: يعادون الله ورسوله: ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ خُزُوا كما خزي الذين من قبلهم. قال ابن كثير: كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿وقد أنزلنا آيات بيّنات﴾، أي: واضحات ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾، أي: في مقابلة ما استكبروا عن اتّباع شرع الله ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبّئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه﴾، أي: ضبطه الله وحفظه عليهم، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿والله على كل شيء شهيد﴾، أي: لا يغيب عنه شيء.

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطّلاعه عليهم: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة﴾، أي: من سرّ ثلاثة: ﴿إلاّ هو رابعهم ولا خمسة إلاّ هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا﴾ كما قال تعالى: ﴿أم يحسبون أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾[(١)] فهو سبحانه وتعالى مطّلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء. ثم قال تعالى: ﴿ثم ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم. وقال الضحاك: هو فوق العرش، وعلمه معهم أينما كانوا[(٢)].

(١) سورة الزخرف: الآية ٨٠.

(٢) قلت: وهذا هو مذهب أهل السنّة والجماعة سلفاً وخلفاً: أن معية الله عز وجل لخلقه معية علم وإحاطة، وهو قول ابن عباس، والضحاك والثوري وأحمد، ومالك وإسحاق بن راهويه، ونعيم بن حماد الخزاعي وأبو عمر بن عبد البر، وأبو عمر والطلمنكي، ونقل الإجماع في هذه المسألة ابن عبد البر، وأبو عمر الطلمنكي، وابن تيمية، وابن كثير وغيرهم رحمهم الله.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

عن مجاهد في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى﴾ قال: اليهود. وقال مقاتل: كان بين النبيّ ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مرّ بهم الرجل من أصحاب النبيّ ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظنّ المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبيّ ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا، فأنزل الله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه﴾. وعن مجاهد في قوله: ﴿وإذا جاءوك حيّوك بما لم يحيّك به الله﴾ قال يقولون: سام عليكم. وفي حديث أنس عن النبيّ ﷺ: «إذا سلّم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: وعليك»[1]. قال ابن زيد: السام الموت.

وقوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول﴾ قال البغوي: يريدون: لو كان نبياً حقاً لعذّبنا الله بما نقول. قال الله عز وجل: ﴿حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾. وعن قتادة قوله: ﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا﴾ كان المنافقون يتناجون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنون ويكبر عليهم، فأنزل الله في ذلك القرآن. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٩٢٦)، ومسلم (ح/ ٢١٦٣).

رسول الله ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون ثالثهما، فإن ذلك يحزنه»[1].

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾ كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ضنّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يفسح بعضهم لبعض ﴿وإذا قيل انشزوا فانشزوا﴾ يقول: إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ إن بالعلم لأهله فضلاً، وإن له على أهله حقّاً، ولعمري لِلحقّ عليك أيها العالم فضل، والله معطي كلّ ذي فضل فضله. وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير يقول: فضل العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع.

وعن مجاهد في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ قال: نهوا عن مناجاة النبيّ ﷺ حتى يتصدّقوا، فلم يناجه إلاّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قدّم ديناراً فتصدّق به، ثم أنزلت الرخصة. وعن قتادة قال: ﴿أأشفقتم أن تقدّموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فريضتان واجبتان لا رجعة لأحد فيهما، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر الصدقة في النجوى.

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٢٩٠)، ومسلم (ح/ ٢١٨٤).

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ إلى آخر الآية. قال: هم المنافقون تولّوا اليهود وناصحوهم ﴿ما هم منكم ولا منهم﴾ قال البغوي[١]: يعني المنافقين ليسوا من المؤمنين في الدين والولاية، ولا من اليهود والكافرين، كما قال: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾[٢]. ﴿ويحلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ أنهم كذبة ﴿أعدّ الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون اتّخذوا أيمانهم جنّة﴾ يستجنون بها من القتل ويدفعون بها عن

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٨٤).

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٣.

أنفسهم وأموالهم. وعن قتادة في قوله: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ قال: إن المنافق يحلف له يوم القيامة كما حلف لأوليائه في الدنيا ﴿ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون استحوذ﴾ **قال البغوي**[١]: غلب واستولى ﴿عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألاّ إن حزب الشيطان هم الخاسرون. إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلّين﴾ الأسفلين ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قويّ عزيز﴾ قال الزجاج: غلبة الرسل على نوعين: من بُعث منهم بالحرب فهو غالب في الحرب، ومن لم يؤمر بالحرب فهو غالب بالحجّة.

وقوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾ **قال ابن كثير**[٢]: أي لا يوادّون المحادّين ولو كانوا من الأقربين. وقال في جامع البيان: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله﴾ يعني لا يجتمع الإيمان ومحبّة أعداء الله تعالى: ﴿أولئك﴾ الذين لم يوادّوهم ﴿كتب الله في قلوبهم الإيمان﴾ أثبته فيها ﴿وأيّدهم بروح منه﴾. قال ابن جرير يقول: وقوّاهم ببرهان منه ونور وهدى ﴿ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم﴾ **قال ابن جرير**[٣]: رضي الله عنهم بطاعتهم إياه في الدنيا: ﴿ورضوا عنه﴾ في الآخرة بإدخاله إياهم الجنة ﴿أولئك حزب الله﴾ يقول: أولئك الذين هذه صفتهم جند الله وأولياؤه ﴿ألاّ إن حزب الله هم المفلحون﴾.

• • •

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٨٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٢٩).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ٢٧).

الدرس الثامن والسبعون بعد المائتين

﴿سـورة الحشر﴾

مدنية، وهي أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ

دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)﴾.

عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: سورة النضير. **وقال البغوي**[١]: قال المفسرون: نزلت هذه السورة في بني النضير، وذلك أن النّبي ﷺ دخل المدينة، فصالحته بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، فقبل ذلك رسول الله منهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً وظهر على المشركين قالت بنو النضير: والله إنه النبيّ وجدنا نعته في التوراة، لا نردّ له رأيه، فلما غزا أحداً وهزم المسلمون ارتابوا وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وركب كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود إلى مكة، فأتوا قريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٢٨٦).

كلمتهم واحدة على محمد، ودخل أبو سفيان في أربعين، وكعب في أربعين من اليهود المسجد الحرام، وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأمتار والكعبة، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة، ونزل جبريل فأخبر النبيَّ ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان، فأمر النبيّ ﷺ بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة، وكان النبيّ ﷺ اطّلع منهم على خيانة، حين أتاهم يستعينهم في دية المسلمين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمريّ في منصرفه من بئر معونة، فهمّوا بطرح حجر عليه من فوق الحصن، فعصمه الله وأخبره بذلك، فلما قتل كعب بن الأشرف أصبح رسول الله ﷺ وأمر الناس بالمسير إلى بني النضير، وكانوا بقرية يقال لها زهرة.

فلما سار إليهم النبيّ ﷺ وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد داهية على إثر داهية، وباكية على إثر باكية؟ قال: «نعم» قالوا: ذرنا نبكي شجوناً ثم ائتمر بأمرك، فقال النبيّ ﷺ: «اخرجوا من المدينة» فقالوا: الموت أقرب إلينا من ذلك، فتنادوا بالحرب وأذّنوا بالقتال، ودسّ المنافقون عبد الله بن أبيّ بن سلول وأصحابه إليهم أن لا يخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم ولا نخذلكم ولننصرنكم، ولئن أخرجتم لنخرجنّ معكم، فدربوا على الأزقة وحصّنوها، ثم إنهم أجمعوا على الغدر برسول الله ﷺ، فأرسلوا إليه: أن اُخرج في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون، حتى نلتقي بمكان نَصَفٍ بيننا وبينك، فيستمعوا منك فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنا كلّنا، فخرج النبيّ ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من اليهود، حتى إذا كانوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تتخلّصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلّهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه: كيف نفهم ونحن ستّون رجلاً؟ اُخرج في ثلاثة من أصحابك ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا فيستمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلّنا بك وصدّقناك، فخرج النبيّ ﷺ في ثلاثة من أصحابه، وخرج

ثلاثة من اليهود، واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته بما أراد بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبيّ ﷺ، فسارّه بخبرهم قبل أن يصل إليهم فرجع النبيّ ﷺ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح فأبى عليهم إلاّ أن يخرجوا من المدينة، فصالحهم على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل من أموالهم إلاّ الحلقة وهي السلاح، ففعلوا وخرجوا من المدينة إلى الشام إلى أذرعات وأريحا، إلاّ أهل بيتين منهم آل الحقيق وآل حيّ بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة منهم بالحيرة، فذلك قوله عز وجل: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾. قال ابن عباس: من شكّ أن المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية. انتهى ملخصاً.

وعن قتادة قوله: ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ جعلوا يخربونها من أجوافها، وجعل المؤمنون يخربون من ظاهرها. قال الزهري: لما صالحوا النبيّ ﷺ كانوا لا يعجبهم خشبة إلاّ أخذوها. وعن يزيد بن رومان ﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء﴾ وكان لهم من الله نقمة ﴿لعذّبهم في الدنيا﴾، أي: بالسيف ﴿ولهم في الآخرة عذاب النار﴾ مع ذلك. وعن مجاهد في قوله ﴿ما قطعتم من لينة﴾ قال: نخلة. قال: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا: إنما هي مغانم المسلمين، ونزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه. وعن قتادة قوله: ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ الآية. يقول: ما قطعتم إليها وادياً ولا سرتم إليها سيراً، وإنما كان حوائط لبني النضير، طعمة أطعمها الله رسوله. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما

أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، فكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في الدراع والسلاح عدّة في سبيل الله عز وجل»[1]. متفق عليه.

قوله عز وجل: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾.

عن قتادة قوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ بلغني أنها الجزية، والخراج خراج أهل القرى. وعن مالك بن أوس بن الحدثان قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ حتى بلغ ﴿عليم حكيم﴾ ثم قال: هذه لهؤلاء؛ ثم قال: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى﴾ الآية. ثم قال: هذه الآية لهؤلاء؛ ثم قرأ: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ حتى بلغ ﴿للفقراء﴾. ﴿والذين تبوّؤا الدار﴾. ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامّة، فليس

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٨٨٥)، ومسلم (١٧٥٧).

أحد إلَّا له فيها حقّ، ثم قال: لئن عشت ليأتينّ الراعي وهو يسير حمره نصيبه لم يعرق فيها جبينه»[١].

وقوله تعالى: ﴿والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم﴾ وهم الأنصار توطّنوا المدينة وآمنوا قبل قدوم المهاجرين عليهم ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة﴾، أي: حزازة وغيظاً وحسداً ﴿مما أوتوا﴾، أي: مما أعطى المهاجرون دونهم من الفيء ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. وعن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «برىء من الشح من أدّى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»[٢]. رواه ابن جرير. وعن أبي هريرة: «أن رجلاً من الأنصار بات به ضيف فلم يكن عنده إلَّا قوته وقوت صبيانه، فقال لامرأته: نوّمي الصبية وأطفئي المصباح، وقرّبي للضيف ما عندك، قال: فنزلت هذه الآية»[٣].

وعن قتادة قال: ثم ذكر الله الطائفة الثالثة فقال: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا﴾ حتى بلغ ﴿إنك رؤوف رحيم﴾ إنما أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبيّ ﷺ، ولم يؤمروا بسبّهم قال ابن كثير[٤]: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة: أن الرافضيّ الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ٣٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ٤٤)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٢٧) بسند ضعيف.
وأخرجه الطبراني في الصغير (ح/ ١٢)، من حديث جابر ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً، وسنده ضعيف جداً.
وبنحوه عن خالد بن زيد بن جارية مرسلاً: «ثلاث من كن فيه وقي شح نفسه: من أدى الزكاة. . .» الحديث أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٨٨) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ٤٣).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٢٨/ ٣٣٩).

قوله عز وجل: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

عن قتادة ﴿بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى﴾ قال: تجد أهل الباطل مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحقّ. وعن ابن عباس قوله: ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم﴾ يعني بني قينقاع. وعن مجاهد ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ عامّة الناس. وعن عليّ رضي الله عنه قال: «إن راهباً تعبّد ستين سنة، وإن الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنّها ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القسّ فيداويها، فجاؤوا بها قال: فداواها وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته، فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت بك هذا فأطعني أنجّك مما صنعتُ بك، اسجد لي سجدة، فسجد له فلما سجد له قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين»[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/٤٩)، والحاكم (٢/٤٨٤ و ٤٨٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤/٣٧٣)، قال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد﴾ ما زال ربكم يقرّب الساعة حتى جعلها كغد، وغد يوم القيامة. وعن سفيان ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ قال: نسوا حقّ الله ﴿فأنساهم أنفسهم﴾ قال: حظّ أنفسهم. وعن ابن عباس قوله: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله﴾ قال يقول: لو أنّي أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه، تصدّع وخشع من ثقله ومن خشية الله، فأمر الله عز وجل الناس إذا أنزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشّع، قال: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتفكّرون﴾.

وقوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عما يشركون﴾ **قال ابن جرير**[1]: يقول تعالى ذكره: هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاّ له، المَلِكُ الذي لا ملك فوقه ولا

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ٥٤).

شيء إلاَّ دونه. وقال قتادة: ﴿القدّوس﴾، أي: المبارك. وقال وهب بن منبه: أي الطاهر. وقال ابن جريج: تقدّسه الملائكة. وقال قتادة في قوله: ﴿السلام﴾ الله السلام. قال ابن كثير[١]: ﴿السلام﴾، أي: من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿المؤمن﴾ قال قتادة: أمن بقوله أنه حق. وقال ابن زيد ﴿المؤمن﴾ المصدّق الموقن؛ آمن الناس بربهم فسمّاهم مؤمنين، وآمن الربّ الكريم لهم بإيمانهم، صدّقهم أن يسمى بذلك الاسم. وعن ابن عباس في قوله: ﴿المهيمن﴾ قال: الشهيد. وقال قتادة: ﴿الجبّار﴾ الذي جبر خلقه على ما يشاء[٢]. ﴿المتكبّر﴾ يعني عن كل سوء. ﴿سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٤٢).

(٢) قال ابن جرير في تفسيره (٢٨/ ٥٥): وقوله: (الجبار) يعني: المصلح أمور خلقه، المصرفهم فيما فيه صلاحهم...».

وإطلاق لفظ: «الجبر»، ليس أصل في الكتاب والسنَّة، فهو لفظ مبتدع، وإن كان القائل يريد به صحيحاً، فإثباته ونفيه لا يجوز، قال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٦٦ ــ ٧١): (ولهذا ترجم الإمام أبو بكر الخلال في كتاب «السنة» فقال: الرد على القدرية وقولهم: إن الله أجبر العباد على المعاصي، ثم روى عن عمرو بن عثمان عن بقية بن الوليد قال: سألت الزبيدي والأوزاعي عن الجبر، فقال الزبيدي: أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل، ولكن يقضي ويقدر، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب.

وقال الأوزاعي: ما أعرف للجبر من القرآن ولا السنَّة، فأهاب أن أقول ذلك، ولكن القضاء، والقدر، والخلق، والجبل، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله ﷺ، وإنما وضعت هذا مخافة أن يرتاب رجل تابعي من أهل الجماعة والتصديق».

ثم قال ابن تيمية ــ رحمه الله ــ معلقاً على هذا الأثر: «وأما الأوزاعي فإنه منع من إطلاق هذا اللفظ، وإن عني به هذا المعنى، حيث لم يكن له أصل في الكتاب والسنَّة، فيفضي إلى إطلاقه لفظ مبتدع ظاهر في إرادة الباطل، وذلك لا يسوغ، وإن قيل: إنه يراد به معنى صحيح... قال الخلال: أنكر سفيان الثوري «جبر»، وقال: الله جبل العباد...».

البارىء المصوّر﴾ قال ابن كثير: الخَلْقُ التقدير، والبرء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدّره وقرّره إلى الوجود. وعن جابر بن زيد قال: إن اسم الله الأعظم هو «الله» ألم تسمع الله يقول: ﴿هو الله الذي لا إله إلاَّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلاَّ هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾. وعن معقل بن يسار عن النبـيّ ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر، وكلّ الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتى يمسي، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»[1]. رواه أحمد والترمذي. والله أعلم.

• • •

= إلى أن قال: «وجواب الأوزاعي أقوم من جواب الزبيدي، لأن الزبيدي نفى الجبر ، والأوزاعي منع إطلاقه، إذ هذا اللفظ قد يحتمل معنى صحيحاً، فنفيه قد يقتضي نفي الحق والباطل، فإذا امتنع من إطلاق اللفظ المجمل المحتمل المشتبه زال المحذور، وكان أحسن من نفيه، وإن كان ظاهراً في المحتمل المعنى الفاسد، خشية أن يظن أنه ينفي المعنيين جميعاً.

وقال المروزي: قلت لأبـي عبد الله: رجل يقول: إن الله أجبر العباد فقال ــ يعني أحمد بن حنبل رحمه الله ــ : «هكذا لا نقول» وأنكر هذا، وقال: «يضل من يشاء ويهدي من يشاء»، وأنكر أبو عبد الله على علي بن رجاء عندما قال: جبر العباد، وعلى القدري حين قال: «لم يجبر». اهـ. ملخصاً، وراجعه إن شئت، فهو مبحث نفيس.

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٦)، والترمذي (ح/٢٩٢٢)، والدارمي (٢/٤٥٨)، والطبراني في «الدعاء» (ح/٣٠٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٩٢ ــ ٤٩٣)، والبغوي في تفسيره (٤/٢٩٨)، بسند ضعيف جداً.

الدرس التاسع والسبعون بعد المائتين

﴿سورة الممتحنة﴾

مدنية، وآياتها ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ (١) إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٣) قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٥) لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (٦) ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ

وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ
الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن
يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ
فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ
وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ
وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا
الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ
وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ
فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ
الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾.

قال ابن إسحاق: حدّثني محمد بن جعفر بن الزبير وغيره من علمائنا قال: «لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبـي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلّغه لقريش، فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليّ بن أبـي طالب والزبير بن العوّام فقال: «أدركا امرأة قد كتب معها حاطب كتاباً إلى قريش، يحذّرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم».

فخرجا حتى أدركاها بالحليفة ــ حليفة بني أبـي أحمد ــ فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها عليّ بن أبـي طالب: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ وما كُذِبْنا، ولتخرجنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفنّك، فلما رأت الجدّ منه قالت: أعرِض، فأعرَض فحلّت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه، فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ حاطباً فقال: «يا حاطب ما حملك على هذا؟» قال: يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيّرت ولا بدّلت، ولكني كنت امرءاً ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر؟ لعلّ الله قد اطّلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»؛ فأنزل الله عز وجل في حاطب ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالموّدة﴾ إلى قوله: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ إلى آخر القصة[1].

قال البغوي[2]: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ يعني القرآن ﴿يخرجون الرسول وإياكم﴾ من مكة ﴿أن تؤمنوا﴾، أي: لأن آمنتم، كأنه قال: يفعلون ذلك لإيمانكم بالله ربكم ﴿إن كنتم خرجتم﴾ هذا شرط، جوابه متقدّم وهو قوله: ﴿لا تتّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرّون إليهم بالمودّة﴾ قال مقاتل:

(١) انظر القصة في صحيح البخاري (ح/٣٠٠٧ و ٤٢٧٤ و ٤٨٩٠)، ومسلم (ح/٢٤٩٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٩٩).

بالنصيحة ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ أخطأ طريق الهدى ﴿إن يثقفوكم﴾ يظفروا بكم ﴿يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم﴾ بالضرب والقتل ﴿وألسنتهم بالسوء﴾ بالشتم ﴿وودّوا لو تكفرون﴾ كما كفروا، يقول: لا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم ولا يوادّونكم. ﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم﴾ الذين عصيتم الله لأجلهم ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾ فيدخل أهل طاعته الجنة وأهل معصيته النار ﴿والله بما تعملون بصير﴾.

قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ من أهل الإيمان ﴿إذ قالوا لقومهم﴾ من المشركين ﴿إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم﴾ جحدنا وأنكرنا دينكم ﴿وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ يأمر حاطباً والمؤمنين بالاقتداء بإبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه من المؤمنين في التبرّؤ من المشركين ﴿إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك﴾ يعني لكم أسوة حسنة في إبراهيم وأموره إلاّ في استغفاره لأبيه المشرك، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد قال لأبيه: لأستغفرنّ لك ثم تبرّأ منه ﴿وما أملك لك من الله من شيء﴾ يقول إبراهيم لأبيه: ما أغني عنك ولا أدفع عنك عذاب الله إن عصيته وأشركت به ﴿ربّنا عليك توكّلنا﴾ يقوله إبراهيم ومن معه من المؤمنين: ﴿وإليك أنبنا وإليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ قال الزجاج لا تظهرهم علينا فيظنّوا أنهم على الحقّ فيفتتنوا. وقال مجاهد: لا تعذّبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون: لو كان هؤلاء على الحقّ ما أصابهم ذلك، ﴿واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم﴾. ﴿لقد كان لكم فيهم﴾، أي: في إبراهيم ومن معه ﴿أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ هذا بدل من قوله ﴿لكم﴾، وبيان أن هذه الأسوة لمن يخاف الله ويخاف عذاب الآخرة ﴿ومن يتولّ﴾ يُعرض عن الإيمان ويوالي الكفار ﴿فإن الله هو الغنيّ الحميد﴾ عن خلقه ﴿الحميد﴾ إلى أوليائه وأهل طاعته. اهـ. ملخصاً.

قال ابن كثير[١] وقوله تعالى ومن يتولّ، أي: عما أمره الله به ﴿فإن الله هو الغنيّ الحميد﴾ كقوله تعالى: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنيّ حميد﴾[٢]. وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: «الغنيّ الذي قد كمل في غناه وهو الله، هذه صفته لا تنبغي إلاّ له، ليس له كفؤ وليس كمثله شيء سبحان الله الواحد القهار، والحميد: المستحمد إلى خلقه، أي: هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا ربّ سواه».

قوله عز وجل: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾.

قال ابن زيد في قوله: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة﴾ قال: هؤلاء المشركون وقد فعل، قد أدخلهم الله في السلم وجعل بينهم مودّة حين كان الإسلام حين الفتح. وقال البغوي[٣]: قال مقاتل: فلما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار عادى المؤمنين أقرباؤهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة، فعلم الله شدّة وجد المؤمنين بذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم﴾، أي: من كفار مكة مودّة، ففعل الله ذلك بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وإخواناً وخالطوهم وناكحوهم ﴿والله قدير والله غفور رحيم﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٤٨).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٠٢).

ثم رخّص الله عز وجل في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم﴾، أي: لا ينهاكم الله عن برّ الذين لم يقاتلوكم ﴿وتقسطوا إليهم﴾ تعدلوا فيهم بالإحسان والبرّ ﴿إن الله يحبّ المقسطين﴾. قال ابن عباس: نزلت في خزاعة، كانوا قد صالحوا النبيّ ﷺ على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً، فرخّص الله في برّهم. وعن مجاهد ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾ قال: كفار أهل مكة.

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

عن أبي نضرة الأسدي قال: سئل ابن عباس: كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: «كان يمتحنهنّ بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلاّ حبّاً لله ورسوله»[1]. وعن المسور بن مخرمة ومروان [ابن الحكم] ـ في قصة الحديبية ـ قالا: «لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذٍ، كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبيّ ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلاّ رددته إلينا وخلّيت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وأبى سهيل إلاّ ذلك، فكاتبه النّبي ﷺ على ذلك، فردّ النبيّ ﷺ يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ٦٧).

من الرجال إلاّ ردّه في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذٍ مهاجرة وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبيّ ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهنّ ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ فإن علمتموهنّ مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلى الكفار لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ﴾ »[1]. وعن مجاهد ﴿وآتوهم ما أنفقوا﴾ وآتوا أزواجهنّ صدقاتهنّ.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ﴾ ولها زوج، ثم لأنه فرّق بينهما الإسلام، إذا استبرأتم أرحامهنّ، ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ قال الزهري: فطلق عمر امرأتين كانتا له بمكة، وعن مجاهد في قول الله: ﴿واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا﴾ قال: ما ذهب من أزواج أصحاب محمد ﷺ إلى الكفار فليعطهم الكفار صدقاتهنّ وليمسكوهنّ، وما ذهب من أزواج الكفار إلى أصحاب النبيّ ﷺ بمثل ذلك في صلح كان بين محمد ﷺ وبين قريش ﴿ذلك حكم الله يحكم بينكم﴾ قال الزهري: فأمسك رسول الله النساء وردّ الرجال، وسأل الذي أمره الله أن يسأل من صدقات النساء من حبسوا منهنّ وأن يردّوا عليهم مثل الذي يردّون عليهم إن هم فعلوا ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم ردّ رسول الله ﷺ النساء كما ردّ الرجال، ولولا الهدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش يوم الحديبية أمسك النساء ولم يردد إليهم صداقاً، وكذلك يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد. قال الزهري: أما المؤمنون فأقرّوا بحكم الله، وأما المشركون فأبوا أن يقرّوا فأنزل الله عز وجل: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ فأمر الله المؤمنين أن يردّوا الصداق إذا ذهبت امرأة من المسلمين ولها زوج، أن يردّ المسلمون إليه صداق امرأته من صداق، إن كان في أيديهم، مما أمروا أن يردّوا إلى المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٢٧١١ و ٢٧١٢).

قال مجاهد ﴿فعاقبتم﴾ أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ يعني مهر مثلها. **قال ابن كثير**[(١)]: وهذا لا ينافي الأول، لأنه إن أمكن الأول فهو الأولى، وإلاّ فمن الغنائم التي تؤخذ من أيدي الكفار.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣﴾.

عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يا أيها النبيّ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾ فمن أقرّ بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك كلاماً»، ولا والله ما مسّت يده يد امرأة في المبايعة قطّ، ما يبايعهنّ إلاّ بقوله: «قد بايعتك على ذلك»[(٢)]. رواه البخاري. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: جاءت أميمة بنت رفيعة إلى رسول الله ﷺ تبايعه على الإسلام فقال: «أبايعك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتلي ولدك، ولا تأتي ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك، ولا تنوحي، ولا تبرّجي تبرّج الجاهليّة الأولى»[(٣)]. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ﴾ يقول: لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم. **وقال البغوي**[(٤)]: ليس المراد منه نهيهنّ عن

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨٨) تعليقاً، ومسلم (ح/ ١٨٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٦) بسند حسن.

(٤) انظر: «معالم التنزيل» (٥/ ٣٠٥).

الزنا، لأن النهي عن الزنا قد تقدم ذكره، بل المراد منه أن تلتقط مولوداً وتقول لزوجها: هذا ولدي منك؛ فهو البهتان المفترى بين أيديهنّ وأرجلهنّ، لأن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها.

وعن ابن عباس قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله. وقال الحسن: الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات. وعن مجاهد في قوله: ﴿قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾ قال: من ثواب الآخرة، حين تبيّن لهم عملهم وعاينوا النار. **قال ابن كثير**[١]: ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه، فكيف توالوا منهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلّاء و ﴿قد يئسوا من الآخرة﴾، أي: من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٥٦).

الدرس الثمانون بعد المائتين

﴿سورة الصف﴾

مدنية، وآياتها أربع عشرة آية

عن عبد الله بن سلام قال: «تذاكرنا: أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله، أي الأعمال أحبّ إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة»[1]، رواه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴿٤﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٢)، والترمذي (ح/ ٣٣٠٩).

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

عن ابن عباس في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلّنا على أحبّ الأعمال إليه فنعمله، فأخبر الله نبيّه: أن أحبّ الأعمال إليه إيمان بالله لا شكّ فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرّوا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشقّ عليهم أمره، فقال الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾[1]. وعن مجاهد في قول الله: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إلى قوله: ﴿مرصوص﴾ فيما بين ذلك، في نفر من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس: لو نعلم، أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملنا بها حتى نموت، فأنزل الله هذا فيهم، فقال عبد الله بن رواحة: لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقتل شهيداً. وعن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ يؤدّبهم ويعلّمهم كما تسمعون ﴿كبر مقتاً عند الله﴾ وكانت رجال تخبر في القتال بشيء لم يفعلوه ولم يبلغوه، فوعظهم الله في ذلك موعظة بليغة.

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدلّ بهذه الآية الكريمة، من

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ٨٣)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٥٧).

ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتّب عليه عزم للموعود أم لا، واحتجّوا أيضاً من السنّة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدّث كذب، وإذا اؤتمن خان»[١].

وقوله تعالى: ﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ قال البغوي[٢]: أي، عظم ذلك في المقت والبغض عند الله، أي: إن الله يبغض بغضاً شديداً أن تقولوا ما لا تفعلون، بأن تعدوا من أنفسكم شيئاً ثم لم تفوا به؛ ﴿إن الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً﴾، أي: يصفّون أنفسهم عند القتال صفاً ولا يزولون عن أماكنهم ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾. وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفّوا في الصلاة، والقوم إذا صفّوا للقتال»[٣]. رواه أحمد وابن ماجه. وقال قتادة: ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحبّ أن يختلف بنيانه، كذلك الله تبارك وتعالى لا يحبّ أن يختلف أمره، وإن الله وصف المؤمنين في قتالهم وصفّهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به.

قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٠٧ ــ ٣٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٨٠)، وابن ماجه (ح/ ٢٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٢١)، بسند ضعيف.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

قال ابن كثير[(١)]: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لم تؤذونني وقد تعلمون أنّي رسول الله إليكم﴾، أي: لم توصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر ولهذا قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[(٢)] وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبيّ ﷺ، أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشكّ والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾[(٥)]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني التوراة قد بشّرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشّر بمن بعدي وهو

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٥٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٦٩.

(٤) سورة الأنعام: الآية ١١٠.

(٥) سورة النساء: الآية ١١٥.

الرسول النبيّ الأميّ العربيّ المكيّ أحمد، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشّراً بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوّة. وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدميّ، وأنا العاقب»[1]؛ وقد قال الله تعالى: ﴿الذين يتّبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾[2] الآية. وقال محمد بن إسحاق حدّثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[3].

﴿فلما جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾ قال ابن كثير[4] يقول تعالى: أي ألا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ثم قال تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾، أي: يحاولون أن يردّوا الحقّ بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذلك مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿والله متمّ نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٣٥٣٢ و ٤٨٩٦)، ومسلم (ح/ ٢٣٥٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٦٠).

قال ابن جرير[١]: يقول تعالى ذكره: الله ﴿الذي أرسل رسوله﴾ محمداً ﴿بالهدى ودين الحقّ﴾ يعني ببيان الحقّ ﴿ودين الحقّ﴾ يعني وبدين الله وهو الإسلام، وقوله: ﴿ليظهره على الدين كلّه﴾ يقول: ليظهر دينه الحقّ الذي أرسل به رسوله على كلّ دين سواه، وذلك عند نزول عيسى ابن مريم، وحين تصير الملّة واحدة، فلا يكون دين غير الإسلام، كما حدثنا ابن حميد قال: حدّثنا مهران عن سفيان عن أبي المقدام ثابت بن هرمز عن أبي هريرة: ﴿ليظهره على الدين كلّه﴾ قال: خروج عيسى ابن مريم.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ فلولا أن الله بيّنها ودلّ عليها المؤمنين لتلهّف عليها رجال أن يكونوا يعلمونها، وقد دلّكم الله عليها وأعلمكم إياها فقال: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ قال ابن كثير[٢]: أي من تجارة الدنيا والكدّ لها والتصدّي لها وحدها. ثم قال تعالى: ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾، أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ٨٨).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٦٢).

الزلّات، وأدخلتكم الجنّات والمساكن الطيّبات والدرجات العاليات، ولهذا قال تعالى: ﴿ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾. ثم قال تعالى: ﴿وأخرى تحبّونها﴾، أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبّونها وهي: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه تكفّل الله بنصركم، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم﴾، ﴿ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقويّ عزيز﴾.

وقوله تعالى: ﴿وفتح قريب﴾، أي: عاجل، فهذه الزيادة هي: خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ونصر الحقّ ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿وبشّر المؤمنين﴾. وعن قتادة: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريّين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله﴾ قال: قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقّه، وذكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلاً من الأنصار، ذكر لنا أن بعضهم قال: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على محاربة العرب كلّها أو يسلموا. ذكر لنا أن رجلاً قال: يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: «أشترط لربّي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال: «لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة»، ففعلوا ففعل الله[1]. وقال: إن الحواريين كلّهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعليّ، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. وعن مجاهد في قوله: ﴿من أنصاري إلى الله﴾ قال: من يتبعني إلى الله؟ ﴿قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾ عن مجاهد: ﴿فأيّدنا

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ٩١)، عن قتادة مرسلاً.

الذين آمنوا على عدوّهم﴾ قال: قوّينا: ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾ من آمن مع عيسى ﷺ. قال النخعيّ: أصبحت حجّة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ كلمة الله وروحه.

وعن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه ــ وهم في بيت اثنا عشرة رجلاً ــ من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال: إن منكم من سيكفر بـي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بـي، ثم قال: أيّكم يُلقى عليه شبهي فيُقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شابّ من أحدثهم سنّاً فقال: أنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشابّ فقال: أنا، قال: نعم أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورُفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود وأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرّقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبيّة؛ وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية؛ وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون؛ فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى: ﴿فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين﴾ في إظهار محمد دينهم على دين الكفار: ﴿فأصبحوا ظاهرين﴾[1].

● ● ●

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٨٩)، وابن جرير (٢٨/ ٩٢).

الدرس الحادي والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الجمعة﴾

مدنية، وهي إحدى عشرة آية

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٨٧٧).

وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٤﴾.

عن قتادة: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ قال: كان هذا الحيّ من العرب أمة أمية ليس فيها كتاب يقرؤونه، فبعث الله نبيه محمداً ﷺ رحمة وهدى يهديهم به ﴿يتلو عليهم آياته ويزكّيهم﴾ قال ابن جرير[1] يقول: ويطهّرهم من دنس الكفر ﴿ويعلّمهم الكتاب والحكمة﴾ قال قتادة: السنّة. وقال ابن زيد: ﴿ويعلّمهم الكتاب والحكمة﴾ كما صنع بالأولين ﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ قال ابن كثير[2]: وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسّكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدّلوه وغيّروه وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً وباليقين شكّاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدّلوا كتبهم وحرّفوها وغيّروها وأوّلوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقرّبهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقرّبهم إلى النار وسخط الله تعالى، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع.

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ٩٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٦٣).

وعن مجاهد في قوله: ﴿وآخرين منهم لم يلحقوا بهم﴾ قال: الأعاجم. وعن أبـي هريرة قال: كنا جلوساً عند النبيّ ﷺ فنزلت عليه سورة الجمعة، فلما قرأ: ﴿وآخرين منهم لم يلحقوا بهم﴾ قال رجل من هؤلاء: يا رسول الله، قال: فلم يراجعه النبـيّ ﷺ حتى سأله مرتين أو ثلاثاً، قال: وفينا سلمان الفارسيّ، فوضع النبـيّ ﷺ يده على سلمان فقال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لناله رجال من هؤلاء»[1]. رواه ابن جرير. وقال ابن زيد: «هؤلاء» كلّ من كان بعد النبـيّ ﷺ إلى يوم القيامة، كلّ من دخل في الإسلام من العرب والعجم. وعن مجاهد في قول الله: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ قال: من ردف الإسلام من الناس كلُهم. وعن سهل بن سعد الساعديّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، ثم قرأ: ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ »، يعني: بقية من بقي من أمة محمد ﷺ[2]. رواه ابن أبـي حاتم. قال في جامع البيان: وكلّ من أسلم صار منهم، قال: المسلمين كلّهم أمة واحدة.

قال ابن كثير[3] **وقوله تعالى**: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾، أي: ذو العزّة والحكمة في شرعه وقدره. وقوله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾، يعني: ما أعطاه محمداً ﷺ من النبوّة العظيمة، وما خصّ به أمته من بعثه ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ

(١) سبق تخريجه وهو في الصحيحين.

(٢) أخرجه ابن أبـي حاتم كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٦٤).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٣٦٤).

ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ .

عن قتادة قوله: ﴿مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ قال: يحمل كتاباً لا يدري ماذا عليه ولا ماذا فيه. قال الضحاك: ضرب الله هذا مثلاً للذين أُعطوا التوراة ثم كفروا. وقال ابن عباس: والأسفار الكتب، فجعل الله مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يتّبع ما فيه كمثل الحمار يحمل كتاب الله الثقيل لا يدري ما فيه، ثم قال: ﴿بئس مثل القوم الذين كذّبوا بآيات الله﴾ الآية. وفي الحديث الصحيح: «من تكلّم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً»[1].

قال ابن كثير[2]: ثم قال تعالى: ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾، أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة، فادعوا بالموت على الضالّ من الفئتين ﴿إن كنتم صادقين﴾، أي: فيما تزعمونه؛ قال الله تعالى: ﴿ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم﴾، أي: بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿والله عليم بالظالمين﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون﴾، كقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾[3] قال قتادة: إن الله أذلّ ابن آدم بالموت. وفي معجم الطبراني عن الحسن عن سمرة مرفوعاً: «مثل الذي يفرّ من

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٠)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٢٥)، والطبراني (١٢/ ٩٠)، بسند ضعيف.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٦٤).

(٣) سورة النساء: الآية ٧٨.

الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى، حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره فقالت له الأرض: يا ثعلب ديني، فخرج له حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطّعت عنقه فمات»(١).

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ والسعي يا ابن آدم أن تسعى بقلبك وعملك، وهو السير إليها. وعن سالم بن عبد الله قال: كان عمر رضي الله عنه يقرأها: فامضوا إلى ذكر الله. وقال ابن زيد: إذا سمعتم الدعاء الأول فأجيبوا إلى ذلك وأسرعوا ولا تبطئوا، ولم يكن في زمان النبيّ ﷺ إلاّ أذانان: أذان حين يجلس على المنبر، وأذان حين تقام الصلاة. وعن سعيد بن المسيب: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ قال: فهي موعظة الإمام. وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»(٢). وعن أبي أيوب الأنصاريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه الرامهرمزي في «أمثال الحديث» (ح/ ٧٢)، والطبراني (٧/ ٢٢٢) بسند ضعيف

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٨٨١)، ومسلم (ح/ ٨٥٠).

«من اغتسل يوم الجمعة، ومسّ من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع إن بدا له، ولم يؤذِ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلّي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى»(١). رواه أحمد.

قال ابن كثير(٢): اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني وقال: فأما النداء الأول الذي زاد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاريّ عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوّله إذا جلس الإمام على المنبر، على عهد رسول الله ﷺ وأبـي بكر وعمر، فلما كان عثمان بعد زمن وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء، يعني: يؤذّن على الدار التي تسمى الزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة بقرب المسجد»(٣).

وعن الضحاك في قوله: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾ قال: هذا إذن من الله، فمن شاء خرج ومن شاء جلس. وقال ابن زيد: أذن الله لهم إذا فرغوا من الصلاة فقال: ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾. وكان عراك بن مالك إذا صلّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: «اللهمّ إني أجبت دعوتك، وصلّيت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين». وعن أبـي مالك قال: «قدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام، والنبـيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه قاموا إليه بالبقيع، خشوا أن يُسْبَقُوا إليه، قال: فنزلت ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٠ ـــ ٤٢١)، والطبراني (٤/ ١٦٠ ـــ ١٦١)، وهو حديث صحيح، وفي الباب من حديث أبـي هريرة، وأبـي سعيد الخدري، وأبـي ذر، وعبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (برقم ٩١٣).

وتركوك قائماً﴾ »[١]. وعن جابر ابن عبد الله قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في الجمعة، فمرّت عير تحمل الطعام، فخرج الناس إلاَّ اثني عشر رجلاً، فنزلت آية الجمعة»[٢]. قال قتادة: لو اتّبع آخرهم أوّلهم لألتهب عليهم الوادي ناراً. وعن مجاهد قال: اللهو الطبل. وروى أبو داود في المراسيل عن مقاتل بن حيان قال: «كان رسول الله ﷺ يصلّي يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبي ﷺ يخطب وقد صلّوا الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى إذا كان يوم والنبيّ ﷺ يخطب وقد صلّوا الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة، يعني: فانفضّوا ولم يبق معه إلاَّ نفر يسير».

قال ابن كثير[٣] **وقوله تعالى**: ﴿قل ما عند الله﴾، أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿خير من اللهو من التجارة والله خير الرازقين﴾، أي: لمن توكّل عليه وطلب الرزق في وقته.

● ● ●

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٩٣٦ و ٢٠٥٨ و ٢٠٦٤ و ٤٨٩٩)، ومسلم (ح/٨٦٣).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٦٨).

الدرس الثاني والثمانون بعد المائتين

﴿سورة المنافقون﴾

مدنية، وهي إحدى عشرة[١] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ

---

(١) في (الأصل): «إحدى عشر»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾.

قال البغوي[1]: ﴿إذا جاءك المنافقون﴾، يعني: عبد الله بن أبـيّ ابن سلول وأصحابه ﴿قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا و ﴿اتخذوا أيمانهم جُنّة﴾ سترة ﴿فصدّوا عن سبيل الله﴾ منعوا الناس عن الجهاد والإيمان بمحمد ﷺ ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون ذلك بأنهم آمنوا﴾ أقرّوا باللسان ﴿ثم كفروا﴾ إذا خلوا إلى المشركين ﴿فطبع على قلوبهم﴾ بالكفر ﴿فهم لا يفقهون﴾ الإيمان ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾، يعني: أن لهم أجساماً ومناظر ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ فتحسب أنه صدق. قال عبد الله بن عباس: كان عبد الله بن أبـيّ جسيماً فصيحاً ذلق اللسان، فإذا قال سمع النبـيّ ﷺ قوله: ﴿كأنهم خشب مسنّدة﴾ أشباح بلا أرواح، وأجسام بلا أحلام ﴿يحسبون كلّ صيحة عليهم﴾، أي: لا يسمعون صوتاً في العسكر، بأن نادى مناد، أو انفلتت دابّة، أو أنشدت ضالّة إلاَّ ظنّوا من جبنهم وسوء ظنهم أنهم يرادون بذلك، وظنوا أنهم قد أُتوا لما في قلوبهم من الرعب. ثم

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣١٨).

قال: ﴿هم العدوّ﴾ هذا ابتداء، وخبره ﴿فاحذرهم﴾ ولا تأمنهم ﴿قاتلهم الله﴾ لعنهم الله ﴿أني يؤفكون﴾ يصدفون عن الحقّ. وعن أبـي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يُعرفون بها: تحيّتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلاَّ هجراً، ولا يأتون الصلاة إلاَّ دبراً، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون، خشب بالليل، صخب بالنهار»[1]. رواه أحمد.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

قال ابن إسحاق: ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة ــ يعني مرجعه من أحد ــ وكان عبد الله بن أبـيّ ابن سلول له مقام يقومه كل جمعة، لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس النبـي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله به وأعزّكم به فانصروه وعزّروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس؛ حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ــ يعني مرجعه بثلث الجيش ــ ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدوّ الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطّى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنّما قلت بحراً

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٣) بسند ضعيف.

أن قمت أشدد أمره، فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك مالك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب عليّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنّفونني، لكأنما قلت بحراً أن قمت أشدد أمره قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

وقال قتادة: «أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيّ، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدّثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرّأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذلوه، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعبد الله: لو أتيت رسول الله ﷺ، فجعل يلوي رأسه أي لست فاعلاً»[1].

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: حدّثني محمد بن يحيى ابن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق: فبينا رسول الله ﷺ مقيم هناك، اقتتل على الماء جهجاه بن سعيد الغفاريّ ــ وكان أجيراً لعمر بن الخطاب ــ وسنان بن يزيد، قال ابن إسحاق: فحدّثني محمد بن يحيى ابن حبان قال: ازدحما على الماء فاقتتلا، فقال سنان: يا معشر الأنصار، وقال الجهجاه: يا معشر المهاجرين، وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبيّ، فلما سمعها قال قد شاورونا في بلادنا، والله ما مَثَلُنا وجلابيب قريب هذه إلاّ كما قال القائل: سمّن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحوّلوا عنكم من بلادكم إلى غيرها؛ فسمعها زيد بن أرقم رضي الله عنه، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غُلَيِّمٌ، وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخبره الخبر فقال عمر: يا رسول الله مر عبّاد بن بشر فليضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/١١٣).

«فكيف إذا تحدّث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن نادِ يا عمر بالرحيل».

فلما بلغ عبد الله بن أبـيّ أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ، أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم، وكان عند قومه بمكان فقالوا: يا رسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل؛ وراح رسول الله ﷺ مهجّراً في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير رضي الله عنه فسلّم عليه بتحيّة النبوّة ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها! فقال رسول الله ﷺ: «أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبـيّ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعزّ منها الأذلّ»، قال: فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل؛ ثم قال: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك وإننا لننظم له الخرز لنتوّجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً. فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتدّ الضحى، ثم نزل بالناس يشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مسّ الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين. وفي روايته عند الإمام أحمد قال: فأتيت النبـيّ ﷺ فأخبرته، فحلف عبد الله بن أبـيّ أنه لم يكن شيء من ذلك، فلامني قومي وقالوا: ما أردت إلى هذا؟ فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً، فأرسل إليّ نبـيّ الله ﷺ فقال: «إن الله قد أنزل عذرك وصدقك»، قال: فنزلت هذه الآية ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا﴾ حتى بلغ ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ﴾. وذكر عكرمة وغيره أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله على باب المدينة واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرّون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبـيّ قال له ابنه: وراءك، فقال: مالك ويلك؟! فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء رسول الله ﷺ»[1].

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ١١٥ ــ ١١٦).

وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أبـيّ ابنه، فقال ابنه: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له رسول الله ﷺ. وعن عاصم بن عمرو بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبـيّ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبـيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالده منّي، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبـيّ يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا». وجعل بعد ذلك اليوم إذا أحدث الحدث، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه ويتوعّدونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب، حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلتُه يوم أمرتني بقتله، لأرعدت له آنفٌ لو أمرتُها اليوم بقتله لَقَتَلَتْه»، فقال عمر: قد والله علمت لأمْرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري»[1]. رواه ابن جرير.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

عن الضحاك ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ قال: الصلوات الخمس. وعن ابن عباس قال: ما يمنع أحدكم إذا كان له مال يجب عليه فيه الزكاة أن يزكّي؟ وإذا أطاق الحجّ أن يحجّ من قبل أن يأتيه الموت

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/١١٦ ــ ١٧).

فيسأل ربه الكرّة فلا يُعطاها؟ فقال رجل: أما تتّقى الله؟ يسأل المؤمن الكرّة؟ قال: نعم، أقرأ عليكم قرآناً؟ فقرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصّدّق﴾ قال: أؤدّي زكاة مالي.

﴿وأكن من الصالحين﴾ قال: أحجّ، فقال الرجل: فما الذي يوجب عليّ الحجّ؟ قال: راحلة تحمله ونفقة تبلغه. وقال الضحاك في قوله: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ إلى آخر السورة: هو الرجل المؤمن، نزل به الموت وله مال كثير لم يزكّه ولم يحجّ منه ولم يعط منه حقّ الله، يسأل الرجعة عند الموت ليتصدّق من ماله ويزكّي، قال الله: ﴿ولن يؤخّر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾ **قال ابن جرير**[1] يقول: والله ذو خبرة وعلم بأعمال عبيده هو يجمعها، محيط لا يخفى عليه شيء، وهو مجازيهم بها، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

● ● ●

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ١١٩).

الدرس الثالث والثمانون بعد المائتين

﴿سورة التغابن﴾

مدنية، وهي ثمان[١] عشرة آية

وقال عطاء: مكية إلاّ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ إلى آخر السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ

(١) في (الأصل): ثماني»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤ ﴾.

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً، والمعنى أن الله تعالى علم ما هم عاملون، فخلقهم على ذلك وأمرهم بالإيمان، وهو البصير بمن يستحقّ الهداية ممن يستحقّ الضلال، وهو الشهيد على أعمالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿والله بما تعملون بصير﴾.

﴿خلق السموات والأرض بالحقّ﴾، أي: بالعدل والحكمة ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾، أي: أحسن أشكالكم ﴿وإليه المصير﴾، أي: المرجع والمآب ﴿يعلم ما في السموات والأرض ويعمل ما تسرّون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور﴾ قال ابن جرير[1]: يقول جلّ ثناؤه: والله ذو علم بضمائر صدور عباده وما تنطوي عليه نفوسهم الذي هو أخفى من السر، لا يعزب عنه شيء من ذلك.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٦ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ١٢٠).

ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

قال ابن كثير[١]: يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين، أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿قل بلى وربّي لتبعثنّ ثم لتنبّؤنّ بما عملتم﴾، أي: لتخبرنّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها ﴿وذلك على الله يسير﴾، أي: بعثكم ومجازاتكم، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربّه عزّ وجلّ على وقوع المعاد ووجوده. ﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾ وهو القرآن ﴿والله بما تعملون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾ قال قتادة: هو يوم القيامة، وهو يوم التغابن غبن أهل الجنة أهل النار. وقال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء الجنة ويذهب بأولئك إلى النار. **قال ابن كثير**[٢]: وقد فسّر بذلك قوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفّر عنه سيّئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾[٣]، ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنات أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾.

قوله عز وجل: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٧٤).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٧٥).

(٣) سورة التغابن: الآية ٩.

فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾، يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أنما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. وعن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقرىء عنده هذه الآية ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ فسئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيسلّم لذلك ويرضى. وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلاَّ كان خيراً له، إن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلاَّ للمؤمن»(١).

قال ابن كثير(٢) وقوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفِعْلِ ما به أمر، وتَرْكِ ما عنه نهى وزجر.

ثم قال تعالى: ﴿فإن تولّيتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين﴾، أي: إن نكلتم عن العمل، فإنما عليه ما حُمّل من البلاغ، وعليكم ما حُمّلتم من السمع والطاعة، قال الزهريّ: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إله غيره، فقال تعالى: ﴿الله لا إله إلاَّ هو وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ فالأول خبر عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحّدوا الإلهية له وأخلصوها لديه، وتوكّلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاَّ هو فاتخذه وكيلاً﴾(٣).

قـولـه عـز وجـل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٧٥).

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢٨.

وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

عن عكرمة قال: سأل رجل ابن عباس عن هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾ قال: هؤلاء رجال أسلموا فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ﷺ فرأوا الناس قد فقهوا في الدين همّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله جلّ ثناؤه ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم﴾[1] الآية. وقال عطاء: «نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلّا هؤلاء الآيات ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعيّ، كان ذا أهل وولد فكان إذا أراد أن يغزو، بكوا إليه ورقّقوه، وقالوا: إلى ما تدعنا؟ فيرقّ ويقيم، فنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾ الآية كلها بالمدينة في عوف بن مالك، وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة»[2]. وعن قتادة قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم﴾ الآية، قال: منهم من لا يأمر بطاعة الله ولا ينهى عن

---

(١) أخرجه الترمذي (ح/٣٣١٧)، وقال: «حسن صحيح»، وابن جرير (٢٨/ ١٢٤)، والطبراني (١١/ ٢٧٥ ــ ٢٧٦)، والحاكم (٢/ ٤٩٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه ابن كثير (٣٧٦/٤)، إلى ابن أبي حاتم، قلت: وهو من رواية سماك عن عكرمة، وروايته عنه خاصة فيها ضعف، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ١٢٥).

معصيته، وكانوا يبطّئون عن الهجرة إلى رسول الله ﷺ وعن الجهاد. وقال ابن زيد في قوله: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم﴾ قال يقول: عدوّاً لكم في دينكم فاحذروهم على دينكم. وقوله تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، أي: اختبار وابتلاء ﴿والله عنده أجر عظيم﴾، كما قال تعالى: ﴿زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾[1]. وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: رأيت رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ فأخذهما فرفعهما فوضعهما في حجره ثم قال: «صدق الله ورسوله ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ من خطبته»[2]. رواه ابن جرير وغيره.

وعن قتادة قوله: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾ هذه رخصة من الله والله رحيم بعباده. وكان الله جلّ ثناؤه أنزل قبل ذلك ﴿اتقوا الله حقّ تقاته﴾ وحقّ تقاته أن يطاع فلا يعصى، ثم خفّف الله تعالى ذكره عن عباده فأنزل الرخصة بعد ذلك فقال: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا﴾ فيما استطعت يا ابن آدم، عليها بايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فيما استطعتم.

وقوله تعالى: ﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾ **قال ابن كثير**[3]: أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود (ح/ ١١٠٩)، والترمذي (ح/ ٣٧٧٦) وحسنه، والنسائي (٣/ ١٠٨)، وابن ماجه (ح/ ٣٦٠٠)، وابن جرير (٢٨/ ١٢٦)، والحاكم (١/ ٢٨٧)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٧٦).

الله كما أحسن الله إليكم يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرّاً لكم في الدنيا والآخرة. **قال البغوي**[1]: ﴿ومن يوق شحّ نفسه﴾ حتى يعطي حقّ الله من ماله ﴿فأولئك هم المفلحون﴾. وعن ابن مسعود: ﴿ومن يوق شحّ نفسه﴾ قال: أن يعمد إلى مال غيره فيأكله. وقوله تعالى: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم﴾ يكفّر عنكم سيّئاتكم ﴿والله شكور﴾، أي: يجزي على القليل بالكثير ﴿حليم﴾ يستر ويصفح ويغفر ﴿عالم الغيب والشهادة﴾، أي: ما يغيب عن أبصار الناس وما يشاهدونه ﴿العزيز الحكيم﴾، أي: العزيز في ملكه، الحكيم في أمره.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٣٤).

الدرس الرابع والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الطلاق﴾

مدنية، وهي اثنتا عشرة[1] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ

(١) في (الأصل): «اثنا عشر آية»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: خوطب النبـيّ ﷺ أوّلاً تشريفاً وتكريماً، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى: ﴿يا أيها النبـيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ لعدّتهن﴾. وقال ابن مسعود: الطلاق للعدّة طاهراً من غير جماع. وعن مجاهد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال له أنه طلّق امرأته مائة، فقال: عصيت ربك وبانت منك امرأتك، ولم تتّق الله فيجعل لك مخرجاً، وقرأ هذه الآية: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً﴾، وقال: ﴿يا أيها النبـيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ﴾ من قبل عدّتهنّ.

وعن الحسن في قوله: ﴿فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ قال: طاهراً من غير حيض، أو حاملاً قد استبان حملها. وعن مجاهد في قول الله عز وجل: ﴿فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ قال: لطهرهنّ. وعن الضحاك في قول الله: ﴿يا أيها النبـيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ قال: العدّة القرء، والقرء الحيض، والطاهر الطاهر من

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٧٧).

غير جماع، ثم تستقبل ثلاث حيضات. وعن قتادة قوله: ﴿يا أيها النبيّ إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ والعدّة أن يطلّقها طاهراً من غير جماع. وقال ابن طاووس: إذا أردت الطلاق فطلّقها حين تطهر قبل أن تمسّها تطليقة واحدة، لا ينبغي لك أن تزيد عليها، حتى تخلو ثلاثة قروء فإن واحدة تبينها. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ قال: إذا طلّقها للعدّة كان ملكها بيدك، من طلّق للعدّة جعل الله له في ذلك فسحة، وجعل له مُلكاً إن أراد. أن يرجع قبل أن تنقضي العدّة ارتجع. وعن السدي في قوله: ﴿إذا طلّقتم النساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ قال: طاهراً في غير جماع، فإن كانت لا تحيض فعند غرّة كلّ هلال. وعن ابن عمر قال: طلّقت امرأتي وهي حائض، فأتى عمر رسول الله ﷺ يخبره بذلك فقال: «مره فليراجعها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء طلّقها قبل أن يجامعها، وإن شاء أمسكها، فإنها العدّة التي قال الله عز وجل»(١). رواه ابن جرير وغيره. وعن ابن عباس في قوله: ﴿فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ يقول: لا يطلّقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلّقها تطليقة، فإن كانت تحيض فعدّتها ثلاث حيضات، وإن كانت لا تحيض فعدّتها ثلاث أشهر، وإن كانت حاملاً فعدّتها أن تضع حملها.

وعن السدي قوله: ﴿وأحصوا العدّة﴾ قال: احفظوا العدّة: ﴿واتقوا الله ربكم لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ﴾ حتى تنقضي عدّتهن وقال ابن جريج: قال عطاء: إن أذن لها أن تعتدّ في غير بيته فتعتدّ في بيت أهلها فقد شاركها إذاً في الإثم، ثم تلا: ﴿لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلاَّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة﴾ قلت: هذه الآية في هذه؟ قال: نعم. وقال الضحاك: ليس لها أن تخرج إلاَّ بإذنه، وليس للزوج أن يخرجها ما كانت في العدّة، فإن خرجت فلا سكنى لها ولا نفقة. وعن قتادة: ﴿لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن﴾ وذلك إن طلّقها واحدة أو اثنتين،

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٥٢٥١)، ومسلم (ح/ ١٤٧١).

لها العدّة والنفقة والسكنى، ما لم يطلّقها ثلاثاً. وعن ابن عباس قال الله: ﴿لا تخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة﴾ قال: الفاحشة المبيّنة أن تبذو على أهلها. وفي رواية: الفاحشة هي المعصية. **قال ابن جرير**[١]: فالزنا من ذلك، والسرق والبذاء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأيّ ذلك فعلت وهي في عدّتها فلزوجها إخراجها من بيتها، ذلك لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها.

وعن الضحاك في قول الله: ﴿وتلك حدود الله﴾ يقول: تلك طاعة الله فلا تعتدوها، يقول: من كان على غير هذه فقد ظلم نفسه. عن الزهريّ: «أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أبـي حفص المخزوميّ، وكان النبـيّ ﷺ أمّر عليّاً على بعض اليمن، فخرج معه فبعث إليها بتطليقة كانت بقيت لها، وأمر عيّاش بن أبـي ربيعة المخزوميّ والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا: لا والله ما لها علينا نفقة إلاّ أن تكون حاملاً، فأتت النبـيّ ﷺ فذكرت ذلك له، فلم[٢] يجعل لها نفقة إلاّ أن تكون حاملاً، واستأذنته في الانتقال فقالت: أين أنتقل يا رسول الله؟ قال: عند ابن أمّ مكتوم، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يبصرها، فلم تزل هناك حتى أنكحها النبـيّ ﷺ أسامة بن زيد حين مضت عدّتها، فأرسل إليها مروان بن الحكم يسألها عن هذا الحديث فأخبرته، فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلاّ من امرأة، وسنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة: بيني وبينكم الكتاب، قال الله جلّ ثناؤه: ﴿فطلّقوهنّ لعدّتهنّ﴾ حتى بلغ: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾ قالت: فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث؟ وإنما هو في مراجعة الرجل امرأته»[٣]. رواه ابن جرير. وعن قتادة: ﴿لا تدري لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾، أي: مراجعة. وقال ابن زيد: لعلّ الله يحدث في قلبك تراجع زوجتك.

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ١٣٤).

(٢) في (الأصل): «عله يجعل»، والمثبت من تفسير ابن جرير وهو الصواب.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ١٣٥) عن الزهري مرسلاً.

وعن الضحاك قوله: ﴿فإذا بلغن أجلهنّ﴾ يقول: إذا انقضت عدّتها قبل أن تغتسل من الحيضة الثالثة، أو ثلاثة أشهر إن لم تكن تحيض يقول: فراجع إن كنت تريد المراجعة قبل أن تنقضي العدّة بإمساك بمعروف، والمعروف أن تحسن صحبتها، أو تسريح بإحسان، والتسريح بإحسان أن تدعها حتى تمضي عدّتها ويعطيها مهراً إن كان لها عليه إذا طلّقها، فذلك التسريح بإحسان، والمتعة على قدر الميسرة. وقال ابن عباس: إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدّتها أشهد رجلين كما قال الله: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ عند الطلاق وعند المراجعة، فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدّتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك بنفسها ثم تتزوّج من شاءت هو أو غيره. وعن السدي في قوله: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ قال: أشهدوا على الحقّ: ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال عكرمة: من طلّق كما أمره الله يجعل له مخرجاً.

وعن ابن عباس قوله: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً﴾ يقول سبحانه: من كلّ كرب في الدنيا والآخرة: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ قال مسروق: من حيث لا يدري. وعن الضحاك في قوله: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً﴾ ﴿ومن يتّق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ قال: يعني بالمخرج واليسر إذا طلّق واحدة ثم سكت عنها، فإن شاء راجعها بشهادة رجلين عدلين فذلك اليسر الذي قال الله، وإن مضت عدّتها ولم يراجعها كان خاطباً من الخطّاب، وهذا الذي أمر الله به وهكذا طلاق السنّة؛ فأما من طلّق عند كل حيضة فقد أخطأ السنّة وعصى الربّ وأخذ العسر. وعن سالم بن أبي الجعد في قوله: ﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً﴾ قال: نزلت في رجل من أشجع أصابه الجهد فأتى النبيّ ﷺ فقال له: «اتّق الله وأصبر»، فرجع فوجد ابناً له كان أسيراً قد فقد من أيديهم وأصاب أعنزاً، فجاء فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هل تطيب لي يا رسول الله؟ قال:

«نعم»[١]. وعن الربيع بن خيثم: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ قال: من كل شيء ضاق على الناس. وعن قتادة: ﴿يجعل له مخرجاً﴾ قال: من شبهات الأمور، والكرب عند الموت: ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ من حيث لا يأمل ولا يرجو: ﴿ومن يتوكّل على الله فهو حسبه﴾ قال البغوي[٢]: يتّق الله فيما نابه، كفاه ما أهمّه. وروينا أن النبيّ ﷺ قال: «لو أنكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»[٣] ﴿إن الله بالغ أمره﴾، أي: منفّذ أمره، مُمْضٍ في خلقه قضاءه: ﴿قد جعل الله لكلّ شيء قدراً﴾، أي: جعل الله لكلّ شيء من الشدّة والرخاء أجلاً ينتهي إليه. وفي حديث ابن عباس: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلاّ بشيء كتبه الله لك»[٤]. الحديث.

قوله عز وجل: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/١٣٨ ـ ١٣٩) عن سالم بن أبي الجعد مرسلاً. وروي مسنداً من حديث جابر رضي الله عنه: أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٢) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «بل منكر»، وعباد رافضي جبل، وعبيد متروك قاله الأزدي». اهـ.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (ح/ ١٣٤٥)، وابن ماجه (ح/ ٤١٦٤)، والحاكم (٤/٣١٨)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) هو طرف حديث، وأوله: «احفظ الله يحفظك...»، أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣ و ٣٠٧)، والترمذي (ح/ ١٥١٦)، وأبو يعلى (ح/ ٢٥٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وهو حديث صحيح، وتخريجه مستوفاً في كتاب: «كشف ما ألقاه إبليس» (ص ٨٧).

أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۢ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍۢ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍۢ يُسْرًۭا ۝٧﴾ .

عن الزهري: ﴿إن ارتبتم﴾ قال: في كِبَرِها، أن يكون ذلك من الكِبَر، فإنها تعتدّ حين ترتاب ثلاثة أشهر، فأما إذا ارتفعت حيضة المرأة وهي شابّة، فإنه يتأنّى بها حتى ينظر حامل هي أم غير حامل، فإن استبان حملها فأجلها أن تضع حملها، فإن لم يستبن حملها فحتى يستبين بها، وأقصى ذلك سنة. وعن أبيّ بن كعب أنه قال: يا رسول الله إن عدداً من عدد النساء لم تُذكر في الكتاب: الصغار، والكبار، وأولات الأحمال، فأنزل الله: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهنّ أن يَضَعْن حملهنّ﴾[(1)]؛ وفي رواية: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ﴾ قلت: يا رسول الله المتوفّى عنها زوجها، والمطلّقة؟ قال: «نعم»[(2)]. رواه ابن جرير. وعن عكرمة قال: إن من الريبة المرأة المستحاضة، والتي لا يستقيم لها الحيض، تحيض في الشهر مراراً وفي الأشهر مرة، فعدّتها ثلاثة أشهر.

﴿ومن يتّق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ **قال البغوي**[(3)]: يسهّل عليه أمر الدنيا والآخرة: ﴿ذلك﴾ يعني ما ذكر من الأحكام، ﴿أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾. وعن السدي في قوله: ﴿أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وُجدكم﴾ قال: المرأة يطلّقها، فعليه أن يسكنها وينفق عليها. وعن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/١٤١)، والحاكم (٢/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي! قلت: وعمرو بن سالم لم يخرج له البخاري ولا مسلم، وأيضاً هو لم يسمع من أُبي بل أرسل عنه، فهو منقطع.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨/١٤٣) بسند ضعيف.

(٣) المصدر السابق (٤/٣٢٩).

مجاهد في قوله: ﴿من وُجدكم﴾ قال: من سعتكم. وعن سعيد قوله: ﴿أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضارّوهنّ لتضيّقوا عليهنّ﴾ فإن لم تجد إلاَّ ناحية بيتك فأسكنها فيه. وعن مجاهد: ﴿ولا تضارّوهنّ لتضيّقوا عليهنّ﴾ قال: في المسكن.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يضعن حملهنّ﴾ فهذه المرأة يطلّقها زوجها فيبتّ طلاقها وهي حامل، فيأمره الله أن يسكنها وينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعت فحتى تفطم؛ وإن أبان طلاقها وليس بها حمل، فلها السكنى حتى تنقضي عدّتها ولا نفقة. وكذلك المرأة يموت عنها زوجها، فإن كانت حاملاً أنفق عليها من نصيب ذي بطنها إذا كان ميراث، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها، كما قال الله عز وجل: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾ فإن لم تكن حاملاً فإن نفقتها كانت من مالها.

وعن قتادة قوله: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ﴾ هي أحقّ بولدها أن تأخذه بما كنت مسترضعاً به غيرها. وعن الضحاك أنه قال في الرضاع: إذا قام على شيء فأمّ الصبيّ أحقّ به، فإن شاءت أرضعته وإن شاءت تركته، إلاَّ أن لا يقبل من غيرها، فإذا كان كذلك أجبرت على رضاعه. وعن السدي في قوله: ﴿وائتمروا بينكم بمعروف﴾ قال: اصنعوا المعروف فيما بينكم: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ قال: إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلّقها أبوه، التمس له مرضعة أخرى؛ الأم أحقّ إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرها، فلا ينبغي لها أن يُنتزع منها. وقال سفيان: إن هي أبت أن ترضعه ولم تُوَاتِكَ فيما بينها وبينك، عاسرتك في الأجر فاسترضع له أخرى. وقال ابن زيد في قول الله: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ قال: فرض لها من قدر ما يجد، فقالت: لا أرضى هذا، قال: وهذا بعد الفراق، فأما وهي زوجته فإنها ترضع له طائعة ومكرهة إن شاءت وإن أبت، فقال لها: ليس

لي زيادة، على هذا، إن أحببت أن ترضعي بهذا فأرضعي، وإن كرهت استرضعت ولدي، فهذا قوله: ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾. وعن السدي: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ قال: من سعة موجده: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ قال: من قتر عليه رزقه: ﴿فلينفق مما آتاه الله﴾ قال ابن زيد: فرض لها من قدر ما يجد.

وعن مجاهد: ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ قال: على المطلّقة إذا أرضعت له. وعن السدي في قوله: ﴿لا يكلّف الله نفساً إلاَّ ما آتاها﴾ قال يقول: لا يكلّف الفقير مثل ما يكلّف الغنيّ. وعن سفيان: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ بعد الشدّة الرخاء. وعن أبي سنان قال: سأل عمر بن الخطاب عن أبي عبيدة فقيل له: «إنه يلبس الغليظ من الثياب، ويأكل أخشن الطعام، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول: انظر ما يصنع إذا هو أخذها؛ فما لبث أن لبس ألين الثياب، وأكل أطيب الطعام، فجاء الرسول فأخبره فقال: رحمه الله، تأوّل هذه الآية: ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ »[1].

قوله عز وجل: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

عن السدي في قوله: ﴿وكأيّن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ قال: غيّرت وعصت. وعن ابن عباس قوله: ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ يقول: لم

(١) أخرجه ابن جرير (١٤٩/٢٨) بسند ضعيف.

نرحم: ﴿وعذّبناها عذاباً نكراً فذاقت وبال أمرها﴾ قال السدي: عقوبة أمرها، وقال ابن زيد: ذاقت عاقبة ما عملت من الشرّ: ﴿وكان عاقبة أمرها خسراً﴾ قال مجاهد: جزاء أمرها؛ ﴿أعدّ الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ قال السدي: ذوي العقول: ﴿الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً﴾ **قال ابن كثير**[١]: يعني القرآن، كقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّنات﴾ قال بعضهم: ﴿رسولاً﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة، لأن الرسول هو الذي بلّغ الذكر؛ **وقال ابن جرير**[٣]: الصواب أن الرسول ترجمة عن الذكر، يعني تفسيراً له، ولهذا قال تعالى: ﴿رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّنات﴾، أي: في حالة كونها بيّنة واضحة جليّة: ﴿ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور﴾ وقال تعالى: ﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[٤]، أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم: ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾ **قال البغويّ**[٥]: يعني الجنة التي لا ينقطع نعيمها؛ ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ﴾ **قال ابن جرير**[٦]: يقول تعالى: ذلك الله الذي خلق سبع سموات لا ما تعبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تقدر على خلق شيء. وعن ابن مسعود قال: «خلق الله سبع سموات غلظ، كلّ واحدة مسيرة خمسمائة عام، وبين

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٨٤).

(٢) سورة الحجر: الآية ٩.

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ١٥٢).

(٤) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٣١).

(٦) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ١٥٣).

كلّ واحدة منهنّ خمسمائة عام، وفوق السبع السموات الماء، والله جلّ ثناؤه فوق الماء، لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم، والأرض سبع، وبين كلّ أرض خمسمائة عام»[١]، وغلظ كلّ أرض خمسمائة عام. وعن مجاهد قوله: ﴿يتنزّل الأمر بينهنّ﴾ قال: بين الأرض السابعة إلى السماء السابعة.

قال ابن كثير[٢]: وقوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهنّ﴾، أي: سبعاً أيضاً، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين»[٣]؛ وفي صحيح البخاري: «خسف به إلى سبع أرضين»[٤]. ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم، فقد أبعد النجعة وأغرق في النزع وخالف القرآن والحديث.

وقال البغويّ[٥]: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ﴾ في العدد: ﴿يتنزّل الأمر بينهنّ﴾ بالوحي من السماء السابعة إلى الأرض السفلى. قال أهل المعاني: هو ما يدبّر فيهنّ من عجيب تدبيره، فينزل المطر، ويخرج النبات، ويأتي بالليل والنهار والصيف والشتاء، ويخلق الحيوان على اختلاف هيآتها وينقلها من حال إلى حال. وقال قتادة: في كلّ أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه: ﴿لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير وأن الله قد أحاط بكلّ شيء علماً﴾ فلا يخفي عليه شيء.

• • •

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على بشر المريسي» (ص ١٠٥)، وأيضاً في الرد على الجهمية (ص ٢١)، والطبراني (٩/ ٢٨٨)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٢ و ٣٤٣)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٦٨٨)، وصححه ابن القيم، انظر: «الجيوش».

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٢٤٥٣)، ومسلم (ح/ ١٦١٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري (ح/ ٢٤٥٤).

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٣١ ــ ٣٣٢).

الدرس الخامس والثمانون بعد المائتين

﴿سورة التحريم﴾

مدنية، وهي اثنتا عشرة[١] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ ۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ ۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ ۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

(١) في (الأصل): «اثنا عشر»: وهو خطأ.

يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾.

عن زيد بن أسلم: «أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، قال فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟ فجعلها عليه حراماً، فقالت: يا رسول الله كيف تحرّم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها النبـي لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك﴾؟ قال زيد: فقوله: «أنت عليّ حرام»[(١)] لغو. رواه ابن جرير. وعن مسروق قال: آلى رسول الله ﷺ وحرّم، فعوتب في التحريم وأُمر بالكفّارة في اليمين. وعن ابن عباس في قوله: ﴿قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم﴾ أمر الله النبـيّ ﷺ والمؤمنين إذا حرّموا شيئاً مما أحلّ الله لهم، أن يكفّروا أيمانهم بإطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وليس يدخل ذلك في طلاق. وعن سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقول: في الحرام يمين يكفّرها، وقال ابن عباس: ﴿لقد كان لكم

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ١٥٥) عن زيد بن أسلم مرسلاً.

في رسول الله أسوة حسنة﴾. وعن قتادة: ﴿يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾؟ الآية قال: «كان حرّم فتاته القبطيّة ــ أم ولده إبراهيم يقال لها مارية ــ في يوم حفصة، وأسرّ ذلك إليها، فاطّلعت عليه عائشة، وكانتا تظاهران على نساء النبيّ ﷺ، فأحلّ الله له ما حرّم على نفسه، فأمر أن يكفّر عن يمينه، وعوقب في ذلك فقال: ﴿قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾. قال قتادة: وكان الحسن يقول: حرّمها عليه فجعل الله فيها كفارة يمين»[١].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتي عليّ حراماً، قال: كذبت ليست عليك بحرام، ثم تلا هذه الآية ﴿يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾؟ أغلظ الكفّارات عتق رقبة»[٢]. رواه النسائي. وعن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾؟ قال: حرّم رسول الله ﷺ سرّيته.

قال ابن كثير[٣]: ومن هٰهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفّارة على من حرّم جاريته أو زوجته، أو طعاماً أو شراباً، أو ملبساً أو شيئاً من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة؛ وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفّارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حرّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما، في قول؛ فأما إذا نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة، نفذ فيهما. انتهى.

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً، فتواطأت أنا وحفصة: أنّ أيّتنا دخل عليها رسول الله ﷺ فلتقل له: إنّي أجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت ذلك له

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ١٥٨) عن قتادة مرسلاً.

(٢) أخرجه النسائي (٦/ ١٥١)، والطبراني (١١/ ٤٤٠)، والحاكم (٢/ ٤٩٣ ــ ٤٩٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٧/ ٣٥٠ ــ ٣٥١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٨٧).

فقال: «لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً». وفي رواية: فنزلت ﴿يا أيها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إن تتوبا فقد صغت قلوبكما﴾ لعائشة وحفصة. ﴿وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ لقوله: «بل شربت عسلاً»[1]. رواه البخاري.

وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ قوله لها: «لا تذكريه» ﴿فلما نبّأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض﴾ وكان كريماً ﷺ ﴿فلما نبّأها به قالت من أنبأك هذا﴾؟. ولم تشكّ أن صاحبتها أخبرت عنها ﴿قال نبّأني العليم الخبير﴾. وعن ابن عباس قوله: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ يقول: زاغت قلوبكما، يقول: قد أثمت قلوبكما وعن قتادة: ﴿فقد صغت قلوبكما﴾، أي: مالت قلوبكما. قال في جامع البيان: أي إن تتوبا فقد حقّ لكما ذلك، فإنه قد عدلت عن الحقّ قلوبكما وصدر منكما ما يوجب التوبة. ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ بما يسوءه ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ولم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبيّ ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ حتى حجّ عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرّز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضّأ، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس ــ قال الزهريّ كره والله ما سأله عنه، ولم يكتمه، قال ــ هي عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٩١٢ و ٥٢٦٧)، ومسلم (ح/ ١٤٧٤).

أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحداكنّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسر، أفتأمن إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرّنّك أن كانت جارتك هي أوسم وأحبّ إلى رسول الله منك ــ يريد عائشة ــ قال: وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عِشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت: وما ذاك؟ جاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلّق رسول الله ﷺ نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظنّ هذا كائناً؛ حتى إذا صلّيت الصبح شددت عليّ ثيابي، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلّقكنّ رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود فقلت: ٱستأذن لعمّه، فدخل الغلام ثم خرج إليّ فقال: ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فولّيت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل قد أذن لك، فدخلت فسلّمت على رسول الله ﷺ فإذ هو متّكىء على رمل حصير ــ وفي رواية رمال حصير ــ قد أثّر في جنبه، فقلت: أطلّقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه

إليّ وقال: «لا» فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله، وكنا معشر قريش، قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبـيّ ﷺ ليراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسرت، أفتأمن إحداكنّ أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ فتبسّم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت: لا يغرّنّك أن كانت جارتك هي أوسم وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسّم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله؟ قال: «نعم» فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلاّ أهبة مقامه فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسّع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «أفي شكّ أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم أن لا يدخل عليهنّ شهراً من شدّة موجدته عليهنّ، حتى عاتبه الله عز وجل».[١] متفق عليه واللفظ لأحمد.

وفي رواية لمسلم: «لما اعتزل نبـيّ الله ﷺ نساءه دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلّق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب، فقلت: لأعلمّن ذلك اليوم. فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ووعظه إياهما، إلى أن قال فقالت: يا رسول الله ما يشقّ عليك من أمر النساء؟ فإن كنت طلّقتهنّ فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكاييل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلّما تكلّمت ــ وأحمد الله ــ بكلام إلاّ رجوت أن يكون الله يصدّق قولي، فنزلت هذه الآية، آية التخيير: ﴿عسى ربه إن طلّقكنّ أن يبدله

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣ ــ ٣٤)، والبخاري (ح/٢٤٦٨ و٤٩١٣)، ومسلم (٢/ ١١١١ ــ ١١١٢).

أزواجاً خيراً منكن﴾ ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ فقلت: أطلّقتهنّ؟ قال: «لا»، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلّق نساءه، ونزلت هذه الآية ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر. وعند البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النبيّ ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: ﴿عسى ربه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ فنزلت هذه الآية. وعند أبي حاتم قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبيّ ﷺ، فاستقريتهنّ أقول: لتكفّنّ عن رسول الله ﷺ أو ليبدلنّه الله أزواجاً خيراً منكنّ، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين ـ يعني أم سلمة ـ فقالت: يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهنّ؟ فأمسكت، فأنزل الله عز وجل ﴿عسى ربه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكاراً﴾[1].

وقال ابن زيد في قول الله: ﴿قانتات﴾ قال: مطيعات. وعن ابن عباس في قوله: ﴿سائحات﴾ قال: صائمات. **قال ابن كثير**[2]: وقوله تعالى: ﴿ثيّبات وأبكاراً﴾، أي: منهن ثيّبات وأبكاراً، ليكون ذلك أشهى إلى النفس، فإن التنوّع يبسط النفس، ولهذا قال: ﴿ثيّبات﴾ ومنهن ﴿أبكاراً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾

(١) أخرجه مسلم (ح/١٤٧٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٩٠).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

عن عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه في قوله: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾ قال: علّموهم وأدّبوهم. وقال ابن عباس: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر ينجّيكم الله من النار. وقال قتادة: مروهم بطاعة الله، وانهوهم عن معصية الله. وعن قتادة ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ قال: هي الصادقة الناصحة. وقال عمر بن الخطاب: هو العبد يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه أبداً. وقال مجاهد: يستغفرون ثم لا يعودون. وعن أبـيّ بن كعب قال: «قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة منها: نكاح الرجل امرأته أو أمته في دبرها، وذلك مما حرّم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، ومنها نكاح المرأة المرأة، وذلك مما حرّم الله ورسوله ويمقت الله عليه ورسوله، وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً». قال زرّ فقلت لأبـيّ بن كعب: فما التوبة النصوح؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبداً»[1]. رواه ابن أبـي حاتم. قال العلماء: التوبة النصوح أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل؛ ثم إن كان الحقّ لآدميّ ردّه إليه بطريقة. ﴿عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيّئاتكم ويدخلكم

(١) أخرجه ابن أبـي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٩٢)، والبيهقي في الشعب: (٤/ ٣٧٥) بسند ضعيف.

جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبيّ والذين آمنوا معه﴾ قال البغوي: أي لا يعذّبهم الله بدخول النار ﴿نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم﴾ على الصراط ﴿يقولون﴾ إذا طفىء نور المنافقين ﴿ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنّك على كلّ شيء قدير﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ۝١٢﴾.

عن قتادة قوله: ﴿يا أيها النبيّ جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال: أمر الله نبيّه عليه السلام أن يجاهد الكفار بالسيف، ويغلظ على المنافقين بالحدود ﴿وأغلظ عليهم﴾ **قال ابن جرير**[1] **يقول**: واشدد عليهم في ذات الله ﴿ومأواهم جهنّم وبئس المصير﴾. وعن ابن عباس ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ قال: كان خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تطلع على سرّ نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها؛ وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء ﴿فلم يغنيا عنهما من الله

(١) انظر «جامع البيان» (٢٨/ ١٦٦).

شيئاً﴾. وقال عكرمة: كانت خيانتهما أنهما كانتا مشركتين ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ قال قتادة: لم يغن صلاح هذين عن هاتين شيئاً، وامرأة فرعون لم يضرّها كفر فرعون.

قال في جامع البيان: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط﴾، أي: جعل امرأة نوح و امرأة لوط مثلاً لهم، أو مثّل لهم مثلاً مثل امرأة نوح في أن قرابة أحد وإن كان نبيّاً لا ينفع مع الكفر؛ قيل: هذا تخويف لعائشة وحفصة. انتهى. وقال بعضهم: وفي ضمن التمثيلين تعريض بما مرّ في أول السورة من حال عائشة وحفصة، وإشارة إلى أن من حقّهما أن يكونا في الإخلاص كهاتين المؤمنتين لا الكافرتين.

وقال البغوي[1]: ﴿فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾ لم يدفعا عنهما مع نبوّتهما عذاب الله ﴿وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾ قطع الله بهذه الآية طمع كلّ من يركب المعصية أن ينفعه صلاح غيره؛ ثم أخبر أن معصية غيره لا تضرّه إذا كان مطيعاً فقال: ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم، قال المفسرون: لما غلب موسى السحرة آمنت امرأة فرعون، فلما تبيّن لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس، قال سلمان: «كانت امرأة فرعون تعذّب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلّتها الملائكة، ﴿إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ فكشف الله لها عن بيتها في الجنة حتى رأته»[2]. وفي القصة أن فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها، فلما أتوها بالصخرة ﴿قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنّة﴾ فأبصرت بيتها في الجنّة من درّة وانتزع روحها، فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه ولم تجد ألماً.

قال ابن كثير[3]: فقولها: ﴿ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة﴾ قال العلماء:

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨/ ١٧١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٩٤).

اختارت الجار قبل الدار ﴿ونجّني من فرعون وعمله﴾، أي: خلّصني منه فإني أبرأ إليك من عمله ﴿ونجّني من القوم الظالمين﴾. ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربها وكتبه﴾ قال قتادة يقول: آمنت بعيسى وهو كلمة الله ﴿وكتبه﴾، يعني: التوراة والإنجيل ﴿وكانت من القانتين﴾ من المطيعين، وفي الصحيح عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاَّ: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[١].

وعن ابن عباس قال: خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط وقال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون»[٢]. رواه أحمد. وروى ابن عساكر عن ابن عمر قال: «جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ فمرّت خديجة فقال: إن الله يقرئها السلام، ويبشّرها ببيت في الجنة من قصب، بعيد من اللهب، لا نَصَبَ فيه ولا صَخَبَ، من لؤلؤة جوفاء، بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم»[٣]. والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٤٣٣)، ومسلم (ح/٢٤٣١) تنبيه: قول المؤلف ـ رحمه الله ـ «في الصحيح» وَهْمٌ منه؛ بل هو عند مسلم أيضاً، وقد يكون خطأً من الناسخ، والله أعلم.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣ و ٣١٦ و ٣٢٢)، والطبراني (١١/ ٣٣٦ و ٤١٥)، والحاكم (٢/ ٥٩٤ و ٣/ ١٦٠ و ١٨٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢/ ٦٢)، وذكر أنه بهذا السياق غريب جداً، وأن في إسناده نظر.

الدرس السادس والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الملك﴾

مكية، وهي ثلاثون آية

روى أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «سورة في القرآن ثلاثين آية، شفعت لصاحبها حتى غفر له ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩ و ٣٢١)، وأبو داود (ح/ ١٤٠٠)، والترمذي (ح/ ٢٨٩١) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٧٨ و ٤٩٦)، وابن ماجه (ح/ ٣٧٨٦)، والحاكم (١/ ٥٦٥ و ٢/ ٤٩٧ ــ ٤٩٨) وصححه ووافقه الذهبي.

قلت: وفيه عباد الجشمي لم يوثقه غير ابن حبان؛ لكن للحديث شاهد من حديث أنس بنحوه، وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، فهو حديث حسن.

كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

قال ابن كثير[١]: يمجّد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أنه بيده الملك، أي هو المتصرّف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا معقّب لحكمه ولا يُسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وهو على كلّ شيء قدير﴾. وعن قتادة في قوله: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ قال: أذلّ الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء.

وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال الفضيل بن عياض: ﴿أحسن عملاً﴾ أخلصه وأصوبه، وقال: العمل لا يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنّة. ﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ قال قتادة: من اختلاف ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ يقول: هل ترى من خلل يا ابن آدم؟ ﴿ثم ارجع البصر كرّتين ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ قال: صاغراً ﴿وهو حسير﴾ يقول: معيّ، لم ير خللاً ولا تفاوتاً: ﴿ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ قال: إن الله جلّ ثناؤه إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٩٦).

خلقها زينة للسماء الدنيا، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن ينال منها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظّه، وأضاع نصيبه وتكلّف ما لا علم به.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

عن مجاهد ﴿سمعوا لها شهيقاً وهو تفور﴾ يقول: تغلي كما يغلي القدر ﴿تكاد تميّز من الغيظ﴾ قال ابن عباس: تكاد يفارق بعضها بعضاً وتتفطّر؛ وقال ابن زيد: ﴿من الغيظ﴾ على أهل معاصي الله غضباً لله وانتقاماً له. وعن ابن عباس قوله: ﴿فسحقاً لأصحاب السعير﴾ يقول: بعداً.

وقوله تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربّهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ **قال ابن جرير**[١]: يقول تعالى ذكره: إن الذين يخافون ربهم بالغيب يقول: وهم لم يروه ﴿لهم مغفرة﴾ يقول: لهم عفو من الله عن ذنوبهم ﴿وأجر كبير﴾ يقول: وثواب من الله لهم على خشيتهم إياه بالغيب جزيل. **وقال ابن كثير**[٢]: يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه، إذا كان غائباً عن الناس، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلاّ الله تعالى، بأنه له ﴿مغفرة وأجر كبير﴾، أي: تكفّر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلّهم الله في ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، فذكر منهم رجلاً دعته امرأة

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/٦).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٩٧).

ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

قال البغوي[2]: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ قال ابن عباس: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم كي لا يسمع إله محمد، فقال الله جلّ ذكره ﴿ألا يعلم من خلق﴾ ألا يعلم ما في الصدور مَنْ خَلَقَها؟ ﴿وهو اللطيف الخبير﴾.

﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾ سهلاً لا يمتنع المشي فيها ﴿فامشوا في مناكبها﴾ قال مجاهد: في طرقها وفجاجها ﴿وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾، أي: وإليه تبعثون من قبوركم. ثم خوّف الكفار فقال: ﴿أأمنتم من في السماء﴾ قال ابن عباس: أي عذاب من في السماء إن عصيتموه ﴿أن يخسف بكم الأرض فإذا هي

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٦٠ و ١٤٢٣ و ٦٤٧٩ و ٦٨٠٦)، ومسلم (ح/ ١٠٣١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٢٤٢).

تمور﴾ قال الحسن: تتحرّك بأهلها ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ ريحاً ذات حجارة كما فعل بقوم لوط ﴿فستعلمون﴾ في الآخرة وعند الموت ﴿كيف نذير﴾، أي: إنذاري إذا عاينتم العذاب ﴿ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾، أي: إنكاري عليهم بالعذاب ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافّات﴾ تصفّ أجنحتها في الهواء ﴿ويقبضن﴾ أجنحتهنّ بعد البسط ﴿ما يمسكهنّ﴾ في حال القبض والبسط ﴿إلاّ الرحمن إنه بكلّ شيء بصير﴾.

﴿أمّن هذا الذي هو جند لكم﴾؟ استفهام إنكار ﴿ينصركم من دون الرحمن﴾ يمنعكم من عذابه ﴿إن الكافرون إلاّ في غرور﴾، أي: في غرور من الشيطان. ﴿أمّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾، أي: من الذي يرزقكم المطر إن أمسك الله عنكم؟ ﴿بل لّجوا في عتوّ﴾ تماد في الضلال ﴿ونفور﴾ تباعد من الحقّ. ثم ضرب مثلاً فقال: ﴿أفمن يمشي مكبّاً على وجهه﴾ راكباً رأسه في الضلالة والجهالة، أعمى العين والقلب لا يبصر يميناً ولا شمالاً وهو الكافر؛ قال قتادة: راكباً على المعاصي في الدنيا، فحشره الله على وجهه يوم القيامة ﴿أهدى أمّن يمشي سويّاً﴾ معتدلاً يبصر الطريق وهو ﴿على صراط مستقيم﴾ وهو المؤمن؛ قال قتادة: يمشي يوم القيامة سويّاً. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال ابن كثير[١] وقوله تعالى: ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾، أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾، أي: العقول والإدراك ﴿قليلاً ما تشكرون﴾، أي: قلّما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره. ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾، أي: بثّكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحِلاَكُم وأشكالكم وصوركم ﴿وإليه تحشرون﴾، أي: تجمعون بعد هذا التفرّق والشتات، يجمعكم كما فرّقكم ويعيدكم كما بدأكم.

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستعبدين وقوعه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، أي: متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرّق؟ ﴿قال إنما العلم عند الله﴾، أي: لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلاَّ الله عز وجل، لكنه أمرني أن أخبركم أنّ هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾، أي: وإنما عليّ البلاغ وقد أدّيته إليكم. قال الله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾، أي: لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ورأوا أن الأمر كان قريباً، لأن كل ما هو آتٍ آتٍ وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذّبوا به ساءهم ذ لك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر، أي: فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدالهم سيّئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هذا الذي كنتم به تدّعون﴾، أي: تستعجلون.

﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾؟، أي: خلّصوا أنفسكم فإنه لا منقذ لكم من الله إلاَّ بالتوبة والإنابة والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٩٩).

وقوع ما تتمنّون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذّبنا الله أو رحمنا فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

ثم قال تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكّلنا﴾، أي: آمنّا بربّ العالمين الرحمٰن الرحيم، وعليه توكّلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكّل عليه﴾[1] ولهذا قال تعالى: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾، أي: منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾، أي: ذاهباً في الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يأتيكم بماء مَعين﴾؟، أي: نبع سائح جار على وجه الأرض، أي: لا يقدر على ذلك إلاَّ الله عز وجل، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلّة والكثرة، فللّه الحمد والمنّة.

• • •

(١) سورة هود: الآية ١٢٣.

الدرس السابع والثمانون بعد المائتين

﴿سـورة نـون﴾

مكية، وهي اثنتان[١] وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ

---

(١) في (الأصل): «أثنا»، وهو خطأ، والصواب ما أثبت.

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

عن ابن عباس قال: «أول ما خلق الله من شيء القلم، فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء فخلقت منه السموات، ثم خلق النون فبسطت الأرض على ظهر النون، فتحرّكت الأرض فمادت فأثبتت بالجبال، فإن الجبال لتفخر على الأرض، وقرأ: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ »[1]. وعن مجاهد قال: كان يقال: النون الحوت الذي تحت الأرض السابعة.

وقال ابن زيد في قول الله: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ قال: هذا قسم أقسم الله به: ﴿وما يسطرون﴾ وما يكتبون.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ١٤)، وابن منده في «التوحيد» (رقم/ ١٥ و ٦٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٨٩٧)، والحاكم (٢/ ٤٩٨)، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١١٧ ــ ١١٨)، وروي أوله مرفوعاً: «أول ما خلق الله تعالى القلم... كل شيء حتى تقوم الساعة». أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وأبو داود (ح/ ٤٧٠٠)، والترمذي (ح/ ٢١٥٥ و ٣٣١٩) عن ابن عباس مرفوعاً، وهو صحيح.

قال ابن القيم[١]: «أقسم بالكتاب وآلته وهو القلم، والأقلام متفاوتة في الرتب، **فأعلاها وأجلّها قدراً**. قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، **الثاني**: قلم الوحي هو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه، **الثالث**: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، **الرابع**: قلم طبّ الأبدان، **الخامس**: قلم التوقيع عن الملوك أو نوّابهم، **السادس**: قلم الحساب، **السابع**: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، **الثامن**: قلم الشهادة، **التاسع**: قلم التعبير، **العاشر**: قلم تواريخ العالم، **الحادي عشر**: قلم اللغة، **الثاني عشر**: القلم الجامع، وهو قلم الردّ على المبطلين ورفع سنّة المحقّين». انتهى ملخصاً.

﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ **قال البغوي**[٢]: هذا جواب لقولهم: ﴿يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإن لك لأجراً غير ممنون﴾ **قال ابن جرير**[٣]: غير منقوص ولا مقطوع؛ ﴿وإنك لعلي خلق عظيم﴾ قال ابن عباس يقول: إنك على دين عظيم وهو الإسلام. وقالت عائشة: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن»[٤]. وقال ابن زيد في قوله: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ قال: أدب القرآن. **قال ابن كثير**[٥]: ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجيّة له، وخلقاً تطبّعه وترك طبعه الجبليّ، فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكلّ خلق جميل. وفي الصحيحين عن أنس قال: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (٢٠٣ ــ ٢٠٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٤٦).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٩/١٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠٢).

قال لي: أفّ قطّ، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: إلّا فعلتَه»[١].

وعن الضحاك في قوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ يقول: ترى ويرون: ﴿بأيكم المفتون﴾ يقول: إنكم أولى بالشيطان: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين فلا تطع المكذّبين ودّوا لو تدهن فيدهنون﴾ قال مجاهد: ودّوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحقّ فيما يسألونك. وعن ابن عباس: ﴿ولا تطع كلّ حلّاف مهين﴾ والمهين الكذّاب: ﴿همّاز﴾ يعني الاغتياب؛ وقال قتادة: يأكل لحوم المسلمين: ﴿مشّاء بنميم﴾ ينقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض: ﴿منّاع للخير﴾ قال ابن جرير[٢]: يقول تعالى ذكره: بخيل بالمال ضنين به عن الحقوق: ﴿معتد﴾ قال قتادة: معتد في عمله: ﴿أثيم﴾ بربّه: ﴿عتلّ بعد ذلك زنيم﴾ قال الحسن: فاحش الخلق لئيم الضريبة. وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «تبكي السماء من عبد أصحّ الله جسمه، وأرحب جوفه، وأعطاه من الدنيا معصماً، فكان للناس ظلوماً، فذلك العتلّ الزنيم»[٣]. قال ابن جرير: ومعنى «بعد» في هذا الموضع معنى «مع»، أي: مع العتلّ زنيم. وقال سعيد بن جبير: الزنيم الذي يُعرف بالشّر كما تُعرف الشاة بزنمتها، الملصق. وقال سعيد بن المسيّب: هو الملصق على القوم ليس منهم. وقال الكلبيّ هو الأخنس بن شريق وأصله من ثقيف وعداده في بني زهرة. وقال أبو زين: الزنيم الفاجر. وفي الصحيحين عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعّف؛ ألّا أنبئكم بأهل النار؟ كلّ عتلّ جوّاظ مستكبر»[٤]. قال أهل اللغة: الجوّاظ الجموع المنوع.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/ ١٩٧٣ و ٢٧٦٨ و ٣٥٦١)، ومسلم (ح/ ٢٣٠٩ و ٢٣١٠ و ٢٣٣٠).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٢٣).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٢٤) عن زيد بن أسلم مرسلاً.

(٤) أخرجه البخاري (ح/ ٤٩١٨ و ٦٠٧١ و ٦٦٥٧)، ومسلم (ح/ ٢٨٥٣).

وقوله تعالى: ﴿أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ قال ابن كثير[1] يقول تعالى: هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين، كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها وزعم أنها كذب. وعن قتادة: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ قال: سنسمه على أنفه. وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن العبد يكتب مؤمناً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت والله عليه ساخط، وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ثم يموت والله عليه راض، ومن مات همّازاً لمّازاً ملقّباً للناس كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم من كلا الشفتين»[2]. رواه ابن أبـي حاتم.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

قال البغوي[3]: ﴿إنا بلوناهم﴾ يعني اختبرنا أهل مكة بالقحط والجوع: ﴿كما بلونا﴾ ابتلينا: ﴿أصحاب الجنة﴾. وقال قتادة: كانت الجنة لشيخ وكان

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبـي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٠٥)، بسند ضعيف.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٤٩).

يتصدّق، فكان بنوه ينهونه عن الصدقة، وكان يمسك قوت سنة وينفق ويتصدّق بالفضل، فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا: ﴿لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين﴾. وقال سعيد بن جبير: هي أرض باليمن يقال لها خضروان من صنعاء على ستة أميال.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿فأصبحت كالصريم﴾ قال: الصريم الليل؛ وفي رواية كالرماد الأسود. وعن قتادة قوله: ﴿فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ يقول: يسرّون: ﴿أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين﴾ قال مجاهد: على جدّ قادرين في أنفسهم. وقال سفيان: على حنق. ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالّون﴾ قال قتادة، أي: أضللنا الطريق: ﴿بل نحن محرومون﴾ بل جوزينا فحُرمنا. ﴿قال أوسطهم﴾ قال ابن عباس أَعْدَلُهُمْ: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبّحون﴾ قال مجاهد يقول: تستثنون، فكان التسبيح فيهم الاستثناء.

قال ابن جرير[١]: هو قول القائل: إن شاء الله. **قال ابن كثير**[٢]: وقيل معناه، أي: هلاّ تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم؟ ﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع. ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ قال ابن كثير: **قيل**: رغبوا في بدلها لهم في الدنيا، وقيل: احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة. **وقال البغوي**[٣]: قال عبد الله بن مسعود: بلغني أن القوم أخلصوا وعرف الله منهم الصدق، فأبدلهم بها جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقوداً واحداً. قال الله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾، أي: كفعلنا

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٣٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥١).

بهم نفعل بمن تعدّى حدودنا وخالف أمرنا: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ قال ابن كثير[١]، أي: هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم، وعذاب الآخرة أشقّ. وقال ابن جرير[٢] وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ يقول: لو كان هؤلاء المشركون يعلمون أن عقوبة الله لأهل الشرك به أكبر من عقوبته لهم في الدنيا، لارتدعوا وتابوا وأنابوا، ولكنهم بذلك جهّال لا يعلمون.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قال البغوي[٣]: ثم أخبر بما أعدّه للمتقين فقال: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ فقال المشركون: إنا نعطي في الآخرة أفضل مما تعطون، فقال الله تكذيباً لهم: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون أم لكم كتاب﴾ نزل من عند الله: ﴿فيه تدرسون﴾ تقرؤون: ﴿إنّ لكم فيه﴾ في ذلك الكتاب: ﴿لما تخيّرون﴾ تختارون وتشتهون: ﴿أم لكم أيمان﴾ عهود ومواثيق: ﴿علينا بالغة﴾ مؤكّدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها منا فلا تنقطع إلى يوم القيامة. ﴿إنّ لكم﴾ كَسَرَ «إنّ» لدخول اللام في الخير في ذلك العهد: ﴿لما تحكمون﴾ لأنفسكم من الخير والكرامة.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٠٧).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/٣٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٥١).

﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ **قال ابن كثير**[1]، أي: قل لهم: من هو المتضمّن المتكفّل بهذا؟ قال ابن عباس يقول: أيّهم بذلك كفيل؟ ﴿أم لهم شركاء﴾، أي: من الأصنام والأنداد: ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾. ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ قال ابن عباس: «عن أمر عظيم، يقول: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه، وهي أشدّ ساعة في يوم القيامة»[2]. وعن عبد الله بن مسعود قال: «ينادي مناد يوم القيامة: أليس عدلاً من ربكم أن خلقكم ثم صوّركم ثم رزقكم ثم تولّيتم غيره، أن يولي كلّ عبد منكم ما تولّى؟ فيقولون: بلى، قال: فيمثل لكلّ قوم آلهتم التي كانوا يعبدونها حتى توردهم النار، ويبقى أهل الدعوة فيقول بعضهم لبعض: ماذا تنتظرون؟ ذهب الناس، فيقولون: ننتظر أن ينادي بنا، فيجيء إليهم في صورة، قال: فذكر منها ما شاء الله، فيكشف عما شاء الله أن يكشف، قال: فيخرّون سجّداً إلاّ المنافقين، فإنه يصير فقار أصلابهم عظماً واحداً مثل صياصي البقر، فيقال لهم: ارفعوا رؤوسكم إلى نوركم»[3]؛ ثم ذكر قصة فيها طول. رواه ابن جرير. **وفي رواية قال**: «يتمثّل الله للخلق يوم القيامة حتى يمرّ المسلمون، فيقول: من تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله لا نشرك به شيئاً، فينتهرهم مرّتين أو ثلاثاً، فيقول: هل تعرفون ربّكم؟ فيقولون: سبحانه، إذا اعترف إلينا عرفناه، قال: فعند ذلك يكشف عن ساق فلا يبقى مؤمن إلاّ خرّ لله ساجداً، ويبقى المنافقون ظهورهم طبق واحد كأنما فيها السفافيد، فيقولون: ربنا، فيقول: «قد كنتم تدعون إلى السجود وأنتم سالمون»[4].

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٠٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٣٨) بسند ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٣٩ ــ ٤٠)، والحاكم (٤/ ٥٨٩ ــ ٥٩٢) وصححه، وهو كما قال: وتعقبه الذهبي بكلام مردود، وقد تناقض.

(٤) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٣٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (رقم/ ٢٥٢) بسند لا بأس به.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدريّ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»[1]. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يأخذ الله للمظلوم من الظالم، حتى إذا لم يبق تبعة لأحد عند أحد، جعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عزير فتتبعه اليهود، وجعل الله ملكاً من الملائكة على صورة عيسى فتتبعه النصارى، ثم نادى مناد أَسْمَعَ الخلائق كلّهم فقال: ألاّ ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله، فلا يبقى أحد كان يعبد من دون الله شيئاً، إلاّ مثّل له آلهته بين يديه ثم قادتهم إلى النار، حتى إذا لم يبق إلاّ المؤمنون فيهم المنافقون، قال الله جلّ ثناؤه: أيها الناس ذهب الناس ذهب الناس، ألحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون، فيقولون: والله ما لنا إله إلاّ الله، وما كنا نعبد إلهاً غيره، وهو الله ثبّتهم، ثم يقول لهم الثانية مثل ذلك: ألحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون، فيقولون مثل ذلك، فيقال: هل بينكم وبين ربكم من آية تعرفونها؟ فيقولون: نعم، فيتجلّى لهم من عظمته ما يعرفونه أنه ربّهم، فيخرّون له سجّداً على وجوههم، ويقع كل منافق على قفاه، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر»[2]. وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون﴾ قال: كانوا يسمعون: حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، فلا يجيبوك.

قوله عز وجل: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩١٩)، ومسلم (ح/١٨٣) مطولاً.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/٤١) بسند ضعيف. قلت: وفي هذه الأحاديث الصحيحة، دلالة صريحة على إثبات صفة الساق لله عز وجل، على الوجه اللائق به تعالى وهذا هو مذهب أهل السنّة سلفاً وخلفاً، وليس في هذا خلاف بين الصحابة، كما توهمه جهمية عصرنا لعنهم الله.

عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال البغوي[1]: ﴿فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث﴾، أي: فدعني والمكذّبين بالقرآن وخلّ بيني وبينهم. قال الزجاج: معناه لا تشغل قلبك وَكِلْهُ إليّ فإني أكفيك أمره: ﴿سنستدرجهم﴾ سنأخذهم بالعذاب من حيث لا يشعرون. وقال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: كِلْ يا محمد أمر هؤلاء المكذّبين بالقرآن إليّ، وهذا كقول القائل لآخر غيره يتوعّد رجلاً: دعني وإياه، وخلّني وإياه، بمعنى أنه من وراء مساءته. ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين﴾ قال ابن جرير: قويّ شديد. وفي الصحيحين عن النبيّ ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ــ ثم قرأ ــ : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾»[3].

قال في جامع البيان: سمّى الاستدراج كيداً لأنه في صورة الكيد. ﴿ألم تسألهم﴾ يا محمد: ﴿أجراً﴾ على الهداية: ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ غرامة مثقلون بحملها فلذا يعرضون عنك؛ و «أم» منفصلة والهمزة للإنكار: ﴿أم عندهم الغيب﴾ علم الغيب: ﴿فهم يكتبون﴾ فلا يحتاجون إليك وإلى علمك. ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ بإمهالهم: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ يونس عليه السلام في العجلة والضجر: ﴿إذ نادى﴾ في بطن الحوت: ﴿وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٤٣).

(٣) أخرجه البخاري ح/ ٤٦٨٦)، ومسلم (ح/ ٢٥٨٣).

ربه﴾ بقبول توبته: ﴿لنبذ بالعراء﴾ لطرح بالقضاء من بطن الحوت: ﴿وهو مذموم﴾ حال كونه مجرماً ملوماً، يعني لمّا تداركه برحمته نبذه على حال غير حال الذم واللوم: ﴿فاجتباه ربه﴾ اصطفاه: ﴿فجعله من الصالحين﴾ من الأنبياء.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليذلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر﴾ يقول: ينفذونك بأبصارهم من شدّة النظر، وعن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزهقونك﴾. وقال الكلبـيّ: ﴿ليزلقونك﴾ ليصرعونك. وقال الضحاك: ينفذونك بأبصارهم من العداوة والبغضاء. **وقال ابن كثير**[1]، أي: يعينونك بأبصارهم، بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم؛ وفي هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حقّ بأمر الله عز وجل. وعن ابن عباس عن النبـيّ ﷺ قال: «العين حقّ، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا»[2]. رواه مسلم وغيره.

وقوله تعالى: ﴿لمّا سمعوا الذكر﴾، أي: أن هذا النظر كان يشتدّ منهم في حال قراءة النبـيّ ﷺ القرآن، حسداً على ما أوتي من النبوّة: ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ تنفيراً عنه مع علمهم بأنه أعقلهم؛ ثم قال تعالى: ﴿وما هو﴾، أي: القرآن: ﴿إلاّ ذكر للعالمين﴾ الجنّ والإنس، فكيف يمكن نسبة من جاء بمثله إلى الجنون؟ والله المستعان.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٢١٨٨).

الدرس الثامن والثمانون بعد المائتين

﴿سورة الحاقة﴾

وهي اثنتان[١] وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ

(١) في (الأصل): «اثنتي»، وهو خطأ.

ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

قال ابن عباس: ﴿الحاقّة﴾ من أسماء يوم القيامة عظّمه الله وحذّره عباده. وقال قتادة: ﴿الحاقّة﴾، يعني: الساعة أحقّت لكلّ عامل عمله. وقال **البغوي**(١): سمّيت حاقّة لأنها حُقّت فلا كاذبة لها ﴿ما الحاقّة﴾ هذا استفهام معناه التفخيم لشأنها ﴿وما أدراك ما الحاقّة﴾ قال سفيان: ما في القرآن ﴿وما يدريك﴾ فلم يخبره، وما كان ﴿وما أدراك﴾ فقد أخبره. ﴿كذّبت ثمود وعاد بالقارعة﴾ قال قتادة: أي بالساعة ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ قال: بعث الله عليهم صيحة فأهمدتهم ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ قال ابن عباس يقول: بريح مهلكة باردة، عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، دائمة لا تفتر؛ وقال: ما أرسل الله من ريح قطّ إلاّ بمكيال، ولا أنزل قطرة قطّ إلاّ بمثقال، إلاّ يوم نوح ويوم عاد، فإن الماء يوم نوح طغى على خزانه فلم يكن لهم عليه سبيل، ثم قرأ ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾، وإن الريح عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، ثم قرأ ﴿بريح صرصر عاتية سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً﴾

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٥).

يقول: تباعاً ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾. وفي الصحيحين: «نُصرت بالصّبا، وأهلكت عاد بالدبور»[١].

﴿فهل ترى لهم من باقية﴾؟ **قال ابن كثير**[٢]: أي هلّ تحسّ منهم من أحد من بقاياهم أو من ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن آخرهم، ولم يجعل الله لهم خلفاً. وعن قتادة قوله: ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات﴾ قرية قوم لوط ﴿بالخاطئة﴾ قال مجاهد: الخطايا ﴿فعصوا رسول ربّهم﴾ **قال ابن كثير**: أي كلّ كذّب رسولَ الله إليهم ﴿فأخذهم أخذة رابية﴾ قال ابن عباس: يعني أخذة شديدة. وعن قتادة قوله: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ ذاكم زمن نوح، طغى الماء على كلّ شيء خمس عشرة ذراعاً بقدر كلّ شيء. قال ابن زيد: والجارية سفينة نوح التي حملهم فيها ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ قال قتادة: فأبقاها الله تذكرة وعبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعد سفينة نوح قد صارت رماداً ﴿وتعيها أذن واعية﴾ إن غفلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله.

وقال ابن كثير[٣]: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيّار الماء في البحار، كما قال تعالى: ﴿وآية لهم أنا حملنا ذرّيّتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾[٤].

---

(١) أخرجه البخاري ح/ ١٠٣٥ و ٣٢٠٥ و ٣٣٤٣ و ٤١٠٥)، ومسلم (ح/ ٩٠٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٢).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤١٣).

(٤) سورة يس: الآية ٤١.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

قال البغوي[١]: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾ وهي النفخة الأولى ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ رفعت عن أماكنها ﴿فدكّتا﴾ كسرتا ﴿دكّة﴾ كسرة ﴿واحدة﴾ فصارتا هباء منثوراً. ﴿وانشقّت السماء فهي يومئذ واهية﴾ قال ابن عباس: يعني ضعيفة ﴿والملك على أرجائها﴾ يقول: والملك على حافات السماء حين تشقّق. وعن سعيد بن جبير ﴿والملك على أرجائها﴾ قال: على ما لم يَهِ منها. ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال ابن إسحاق: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «هم اليوم أربعة ــ يعني حملة العرش ــ وإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية، وقد قال الله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ »[٢]؛ قال ميسرة: أرجلهم في التخوم لا يستطيعون أن يرفعوا أبصارهم من شعاع النور، وعن جابر ابن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أذن لي أن أحدّث عن مَلَكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش: إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[٣]. رواه أبو داود وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ قل ابن كثير[٤]: أي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٥٩) مختصراً، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ١٤٦) مطولاً، وهو منقطع.

(٣) أخرجه أبو داود (ح/ ٤٧٢٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٤٧٦)، والخطيب في «تاريخه» (١٠/ ١٩٥)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٤٢)، وهو حديث صحيح.

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٤).

تعرضون على عالم السرّ والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾.
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسِبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإنه أخفّ عليكم في الحساب غداً أن تحاسِبو أنفسكم اليوم وتَزينوا للعرض الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾»[1]. وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ بيمينه وآخذٌ بشماله»[2].

قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال ابن جرير[3]: يقول تعالى ذكره: فأما من أَعطي كتاب أعماله بيمينه

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا، كما عزاه له ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ٤١٤)، وأيضاً في «مسند الفاروق» (٢/ ٦١٨) وقال: «أثر مشهور، وفيه انقطاع».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، والترمذي (ح/ ٢٤٢٧)، وابن ماجه (ح/ ٤٢٧٧)، قال الترمذي: «ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى».

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٦٠).

فيقول: تعالوا اقرؤوا كتابيه. **وقال ابن كثير**[١]: يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك، وأنه من شدّة فرحه يقول لكلّ من لقيه: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾، أي: خذوا اقرؤوا كتابي، لأنه يعلم أن الذي فيه خير؛ قال: ومعنى ﴿هاؤم﴾ هاكم. وعن قتادة: ﴿إنّي ظننت أنّي ملاقٍ حسابيه﴾ ظنّ ظنّاً يقيناً فنفعه الله بظنّه ﴿فهو في عيشة راضية في جنّة عالية قطوفها دانية﴾ قال قتادة: دنت فلا يردّ أيديهم عنها بُعْدٌ ولا شوك. وروى الطبراني عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلاّ بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان، أدخلوه جنّة عالية قطوفها دانية»[٢].

وقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ قال قتادة: إن أيامكم هذه أيام خالية تؤدّي إلى أيام باقية، فاعملوا في هذه الأيام وقدّموا فيها خيراً إن استطعتم، ولا قوّة إلاّ بالله. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «اعملوا وسدّدوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنّة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلاّ أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل»[٣].

﴿وأما من أوتي كتابه بشماله﴾ قال ابن السائب: تلوى يده اليسرى خلف ظهره ثم يعطى كتابه ﴿فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه يا ليتها كانت القاضية﴾ **قال البغوي**[٤] **يقول**: يا ليت الموتة التي متّها في الدنيا ﴿كانت القاضية﴾ الفارغة من كلّ ما بعدها، والقاطعةُ للحياة، فلم أَحْيَ بعدها. قال قتادة: يتمنّى الموت، ولم يكن شيء في الدنيا عنده أكره من الموت. ﴿ما أغنى عنّي ماليه هلك عنّي سلطانيه﴾ قال ابن زيد: سلطان الدنيا. وعن مجاهد قوله: ﴿هلك عنّي

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني (٦/ ٢٧٢)، والخطيب في تاريخه (٥/ ٥) بسند ضعيف.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٨).

سلطانيه﴾ قال: حجّتي. وقال قتادة: أما والله ما كلّ من دخل النار كان أمير قرية يجبيها، ولكن الله خلقهم وسلّطهم على أقرانهم، وأمرهم بطاعة الله، ونهاهم عن معصية الله. وقال الفضيل بن عياض: إذا قال الربّ عز وجل: ﴿خذوه فغلّوه﴾ ابتدره سبعون ألف ملك أيّهم يجعل الغلّ في عنقه ﴿ثم الجحيم صلّوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه﴾ قال ابن عباس: تسلك في دبره حتى تخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه.

﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم﴾ **قال ابن جرير**[(١)]: يعني في الدار الآخرة، قريب يدفع عنه ويعينه مما هو فيه من البلاء.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾[(٢)]. وعن قتادة قوله: ﴿ولا طعام إلاّ من غسلين﴾ شرّ الطعام وأخبثه وأبشعه. وعن ابن عباس قوله: ﴿ولا طعام إلاّ من غسلين﴾ صديد أهل النار ﴿لا يأكله إلاّ الخاطئون﴾ **قال البغوي**[(٣)]: أي الكافرون.

قوله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

---

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٦٤).

(٢) سورة غافر: الآية ١٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٥٩).

قال ابن زيد في قوله: ﴿فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون﴾ أقسم بالأشياء، حتى أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون. **قال ابن القيّم**[١]: «وهذا أعمّ قسم وقع في القرآن، فإنه يعمّ العلويّات والسفليّات، والدنيا والآخرة».

﴿إنه﴾ **قال البغوي**[٢]: يعني القرآن ﴿لقول رسول كريم﴾، أي: تلاوة ﴿رسول كريم﴾، يعني: محمد ﷺ. **قال ابن كثير**[٣]: أضافه إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلّغ عن المرسِل، ولهذا أضافه في سورة التكوير إلى الرسول الملكيّ. وعن قتادة ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ طهّره الله من ذلك وعصمه.

﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون﴾ طهّره من الكهانة وعصمه ﴿تنزيل من ربّ العالمين ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل﴾ قال ابن كثير يقول تعالى: ﴿ولو تقوّل علينا﴾، أي: محمد ﷺ؛ لو كان كما يزعمون مفترياً علينا فزاد في الرسالة أو نقص منها، أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة. **وقال ابن جرير**[٤]: ﴿ولو تقوّل علينا﴾ محمد بعض الأقاويل الباطلة، وتكذّب علينا ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ يقول: أخذنا منه بالقوّة منا والقدرة ﴿ثم لقطعنا منه﴾ نياط القلب. وعن ابن عباس: ﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾ يقول: عرق القلب. وقال مجاهد: حبل القلب الذي في الظهر ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾. وعن قتادة ﴿وإنه لتذكرة للمتّقين﴾ قال: القرآن ﴿وإنا لنعلم أنّ منكم مكذّبين وإنه لحسرة على الكافرين﴾ قال قتادة: ذاكم يوم القيامة.

---

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ١٧٤).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٥٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٧).

(٤) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٦٦).

﴿وإنّه لحقّ اليقين﴾ **قال ابن كثير**[١]: أي الخبر الصدق الحقّ، الذي لا مرية فيه ولا شكّ ولا ريب ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾. وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: خرجت أتعرّض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقّة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﴿إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾ فقلت: كاهن، فقرأ ﴿ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون تنزيل من ربّ العالمين ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كلّ موقع»[٢].

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤١٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧) وفيه انقطاع.

الدرس التاسع والثمانون بعد المائتين

﴿سورة المعارج﴾

مكية، وهي أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ (١٨) ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم

بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: ذاك سؤال الكفار عن عذاب الله، وهو واقع. وعن قتادة قوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قال: سأل عذاب الله أقوام، فبيّن الله على من يقع فقال: ﴿للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج﴾ قال مجاهد: معارج السماء ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾، قال: منتهى أمره من أسفل الأرض ومن الأرض إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة، ويوم كان مقداره ألف سنة يعني بذلك نزول الأمر من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد، فذلك مقداره ألف سنة، لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام. وعن ابن عباس قال: «غلظ كلّ أرض خمسمائة عام، وبين كل أرض إلى أرض خمسمائة عام، فذلك سبعة آلاف عام؛ وغلظ كلّ سماء خمسمائة عام، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام، فذلك أربعة عشر ألف عام؛ وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستّة وثلاثين ألف عام، فذلك قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره

خمسين ألف سنة﴾[١].

قلت: ويشهد لهذا القول ما رواه الإمام أحمد وغيره عن عبادة بن الصامت عن النبيّ ﷺ قال: «الجنّة مائة درجة، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس»[٢]. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنّة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنّة وأوسط الجنّة، ومنه تفجّر أنهار الجنّة، وفوقه عرش الرحمٰن»[٣].

وقال البغوي[٤]: ﴿تعرج الملائكة والروح﴾، يعني: جبريل عليه السلام ﴿إليه﴾، أي: إلى الله عز وجل ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ من سني الدنيا، لو صعد غير الملك من بني آدم، من منتهى أمر الله تعالى من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمر الله تعالى من فوق السماء السابعة، لما صعد في أقلّ من خمسين ألف سنة، والملك يقطع ذلك كلّه في ساعة واحدة. وقال ابن زيد في قوله: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾ قال: هذا حين كان يأمره بالعفو عنهم لا يكافئهم، فلما أمر بالجهاد والغلظة عليهم أمر بالشدّة والقتل حتى يتركوا، ونسخ هذا. قال ابن جرير[٥]: وهذا الذي قاله ابن زيد أنه كان أمر بالعفو بهذه الآية ثم نسخ ذلك، قول لا وجه له، لأنه لا دلالة على صحّة ما قال من بعض الأوجه التي تصحّ منها الدعاوى، وليس في أمر الله نبيّه ﷺ بالصبر الجميل على أذى المشركين ما يوجب أن يكون ذلك أمراً منه له به في بعض الأحوال، بل كان ذلك أمراً من الله له به في

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤١٩)، بسند ضعيف جداً.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٢).

(٥) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٧٢).

كلّ الأحوال، لأنه لم يزل ﷺ من لدن بعثه الله إلى أن اخترمه في أذى منهم، وهو في كلّ ذلك صابر على ما يلقى منهم من أذى، قبل أن يأذن الله له بحربهم وبعد إذنه له بذلك.

وقال ابن كثير[١] وقوله تعالى: ﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾، أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه، كقوله: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحقّ﴾[٢] ولهذا قال: ﴿إنهم يرونه بعيداً﴾، أي: وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع، بمعنى: مستحيل الوقوع ﴿ونراه قريباً﴾ قال البغوي[٣]: لأن ما هو آت قريب، وهو يوم القيامة.

﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ قال مجاهد: كعكر الزيت، وقال قتادة: تتحوّل يومئذ لوناً آخر إلى الحمرة ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ قال: كالصوف ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ يشغل كلّ إنسان بنفسه عن الناس. وعن ابن عباس قوله: ﴿يبصّرونهم﴾ قال: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفرّ بعضهم من بعض، يقول: ﴿لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾. وقال ابن كثير[٤]: وقوله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصّرونهم﴾، أي: لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره ﴿يودّ المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه﴾ قال ابن زيد: فصيلته عشيرته ﴿ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ ذلك الفداء من عذاب الله. قال قتادة: الأحَبّ فالأحبّ، والأقرب فالأقرب من أهله وعشيرته لشدائد ذلك اليوم.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٠).

(٢) سورة الشورى: الآية ١٨.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٢).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٠).

قال البغوي[١]: ﴿كلا﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء، ثم ابتدأ فقال: ﴿إنها لظى﴾ وهي اسم من أسماء جهنّم ﴿نزاعة للشوى﴾ قال قتادة: أي نزّاعة لهامته ومكارم خلقه وأطرافه. وقال الضحاك: تبري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئاً. وقال الحسن: تحرق كلّ شيء منه ويبقى فؤاده نضيجاً. وعن قتادة قوله: ﴿تدعو من أدبر وتولّى﴾ أدبر عن طاعة الله وتولّى عن كتاب الله وعن حقّه ﴿وجمع فأوعى﴾ كان جموعاً قموماً للخبيث. وقال ابن عباس: ﴿تدعو﴾ الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحبّ. وقال البغوي: ﴿وجمع﴾، أي: جمع المال ﴿فأوعى﴾ أمسكه في الوعاء ولم يؤدّ حقّ الله منه.

قوله عز وجل: ﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً﴾ قال: هو الذي قال الله ﴿إذا مسّه الشرّ جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً﴾ **قال ابن جرير**[٢]: والهلع شدّة الجزع مع شدّة الحرص والضجر. وقال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحبّ ما يسرّه ويهرب مما يكره، ثم تعبّده بإنفاق ما يحبّ والصبر على ما يكره. وعن قتادة قوله: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشر جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً إلاَّ المصلّين الذين

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٦٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/٧٨)

هم على صلاتهم دائمون﴾ ذكر لنا أن دانيال نعت أمة محمد ﷺ قال: يصلّون صلاة لو صلاّها قوم نوح ما غرقوا، أو عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة، فعليكم بالصلاة فإنها خُلُقٌ للمؤمنين حَسَنٌ»[١]. وعن إبراهيم ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال: المكتوبة.

وعن ابن عباس في قوله: ﴿والذين في أموالهم حقّ معلوم للسائل والمحروم﴾ يقول: هو سوى الصدقة، يصل بها رحماً، أو يقري بها ضيفاً، أو يحمل بها كَلاًّ، أو يُعين بها محروماً؛ وقال: المحروم هو المحارف الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه، فلا يسأل الناس. وقال ابن زيد: المحروم المصاب ثمره وزرعه. وقال قتادة: السائل الذي سأل بكفّه، والمحروم المتعفّف، ولكليهما عليك حقّ يا ابن آدم.

﴿والذين يصدّقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون﴾. قال ابن كثير[٢]: أي لا يأمنه أحد ممن غفل عن الله أمره إلاّ بأمان من الله تبارك وتعالى.

﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلاّ على أزواجهم أو ما ملك أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ قال ابن جرير[٣]: فمن التمس لفرجه منكم سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك هم العادون الذين عدوا ما أحلّ الله لهم إلى ما حرّم عليهم، فهم الملومون.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ قال ابن كثير[٤]: أي إذا اؤتمنوا لم يخونوا وإذا عاهدوا لم يغدروا. وقال ابن جرير[٥]: راعون: يرقبون ذلك

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٧٩).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٢).

(٣) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٨٤).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٢).

(٥) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ٨٤).

ويحفظونه فيضيّعونه. ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ قال ابن كثير(١): أي محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها.

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾(٢).

﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ قال ابن كثير(٣): أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحبّاتها؛ فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها، فدلّ على الاعتناء بها والتنويه بشرفها، ولهذا قال: ﴿أولئك في جنّات مكرمون﴾.

قوله عز وجل: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال: قبلك ينظرون ﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ قال: العزين العصب من الناس، عن يمين وشمال معرضين عنه يستنبئون به. وقال قتادة: ﴿عزين﴾، أي: فِرَقٌ حول النبيّ ﷺ لا يرغبون في كتاب الله ولا في نبيّه. وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبيّ ﷺ خرج على أصحابه وهم حِلَقٌ حِلَقٌ فقال: «مالي أراكم

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٢).

(٢) سورة النساء: الآية ١٣٥.

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٢٢).

عزين»[١]؟ قال البغوي[٢]: والعزين جماعات في تفرقة، واحدتها عزة.

﴿أيطمع كلّ امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم﴾ قال ابن عباس: معناه أيطمع كلّ رجل منهم أن يدخل جنّتي كما يدخلها المسلمون ويتنعم فيها، وقد كذّب نبيّ؟ ﴿كلاّ﴾ لا يدخلونها؛ ثم ابتدأ فقال: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾، أي: من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، نبّه الناس على أنهم خلقوا من أصل واحد، وإنما يتفاضلون ويستوجبون الجنّة بالإيمان والطاعة. وعن قتادة قوله: ﴿إنا خلقناهم مما يعلمون﴾ إنما خلقت من قذر يا ابن آدم، فاتّق الله. ﴿فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب، إنا لقادرون على أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾ ما يفوتنا منهم أحد، وعن ابن عباس في قوله: ﴿ربّ المشارق والمغارب﴾ قال: «إن الشمس تطلع كلّ سنة في ثلاثمائة وستين كوّة، تطلع كلّ يوم في كوّة، لا ترجع إلى تلك الكوة إلاّ ذلك اليوم من العام المقبل، ولا تطلع إلاّ وهي كارهة، تقول: ربّ لا تطلعني على عبادك، فإني أراهم يعصونك»[٣].

﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ عن قتادة ﴿يوم يخرجون من الأجداث﴾، أي: من القبور ﴿سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾ قال: إلى عَلَمٍ يسعون ﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلّة﴾ قال ابن كثير[٤]: أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون﴾ قال قتادة: ﴿ذلك اليوم﴾ يوم القيامة ﴿الذي كانوا يوعدون﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/٨٦)، وفيه سنده ضعف، لكن له شاهد من حديث جابر ــ رضي الله عنه ــ أخرجه مسلم (ح/ ٤٣٠) بنحوه.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٦٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ٨٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٦٤٦).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٤).

الدرس التسعون بعد المائتين

﴿سورة نوح﴾

مكية، وهي ثمانٍ وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾

وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾.

عن قتادة قوله: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ قال: أرسل الله المرسلين بأن يعبد الله وحده، وأن تتقي محارمه، وأن يطاع أمره. وعن مجاهد في قول الله: ﴿إلى أجل مسمى﴾ قال: ما قد خطّ من الأجل، فإذا جاء أجل الله لا يؤخّر. **وقال ابن كثير**[1]: يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه، آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم، ولهذا قال: ﴿أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين﴾، أي: بيّن النذارة ظاهر الأمر واضحه: ﴿أن اعبدوا الله واتقوه﴾، أي: اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿وأطيعون﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿يغفر لكم ذنوبكم﴾، أي: إذا فعلتم ما آمركم به وصدّقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ﴿ويؤخّركم إلى أجل مسمى﴾، أي: يمدّ في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخّر لو كنتم تعلمون﴾، أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة. انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤٢٤).

ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فلم يزدهم دعائي إلاّ فراراً﴾ قال: بلغنا أنهم كانوا يذهب الرجل بابنه إلى نوح فيقول لابنه: احذر هذا لا يغوينّك، فأراني قد ذهب بي أبي إليه وأنا مثلك فحذّرني كما حذّرتك. وقال ابن زيد في قوله: ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم﴾ لئلاّ يسمعوا كلام نوح عليه السلام: ﴿وأصرّوا﴾ قال: الإصرار إقامتهم على الشرّ والكفر. وعن مجاهد قوله: ﴿ثم إنّي دعوتهم جهاراً﴾ قال: الجهار الكلام المعلن به: ﴿ثم إنّي أعلنت لهم﴾ قال: صحت: ﴿وأسررت لهم إسراراً﴾ قال: فيما بيني وبينهم. وعن قتادة في قوله: ﴿ثم إنّي دعوتهم جهاراً﴾ إلى قوله: ﴿ويجعل لكم أنهاراً﴾ قال: رأى نوح قوماً تجزّعت أعناقهم حرصاً على الدنيا، فقال: هلمّوا إلى طاعة الله، فإن فيها درك الدنيا والآخرة.

وعن مجاهد: ﴿مالكم لا ترجون لله وَقاراً﴾ قال: لا ترون لله عظمة. وقال ابن عباس: مالكم لا تعظّمون الله حقّ عظمته؟ وقال ابن زيد: الوقار الطاعة. وعن قتادة: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، وطوراً عظاماً، ثم كسى العظام لحماً ثم أنشأه خلقاً آخر أنبت به الشعر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهنّ

نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ **قال ابن كثير**[١]: وكلّ هذا مما ينبّههم به نوح عليه السلام، على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية، فهو الخالق الرازق، جعل السماء بناء والأرض مهاداً، وأوسع على خلقه من رزقة، فهو الذي يحب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد، لأنه لا نظير له ولا عديل له، ولا ندّ ولا كفؤ، ولا صاحبة ولا ولد، ولا وزير ولا مشير، بل هو العليّ الكبير.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال البغوي[٢]: ﴿قال نوح ربّ إنهم عصوني﴾ يعني لم يجيبوا دعوتي: ﴿واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خساراً﴾ يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلاّ ضلالاً في الدنيا، وعقوبة في الآخرة: ﴿ومكروا مكراً كبّاراً﴾، أي: كبيراً عظيماً. قال ابن عباس: قالوا قولاً عظيماً. وقال الضحاك: افتروا على الله وكذّبوا رسله.

﴿وقالوا لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوث ويَعوق ونسراً﴾ قال محمد بن قيس: كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال:

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٢٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٦٨).

إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر فعبدوهم. وعن قتادة: ﴿لا تذرنّ آلهتكم ولا تذرنّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوث ويَعوق ونَسراً﴾ قال: كان وَدّ لهذا الحيّ من كلب بدومة الجندل، وكانت سُواع لهذيل برياط، وكان يَغوث لبني غطيف من مراد بالجُرْف، وكان يَعوق لهمدان، وكان نَسر لذي الكلاع من حِمْير، قال: كانت آلهة تعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك. وعن ابن عباس أن تلك الأوثان دفنها الطوفان وطمّها التراب، فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب.

قال ابن كثير[1] **وقوله تعالى**: ﴿وقد أضلّوا كثيراً﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها، أضلّوا بها خلقاً كثيراً، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم؛ وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿واجنبني وبَنِيّ أن نعبد الأصنام، ربّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس﴾[2]. وقوله: ﴿ولا تزد الظالمين إلاّ ضلالاً﴾ دعاء منه على قومه لتمرّدهم وكفرهم وعنادهم، كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾[3] وقد استجاب الله لكلّ من النبيّين في قومه، وأغرق أمّته لتكذيبهم بما جاءهم به.

قوله عز وجل: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

عن سفيان قوله: ﴿مما خطيئآتهم أغرقوا﴾ وعن قتادة في قوله: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ أما والله ما دعا عليهم حتى أتاه الوحي من السماء

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٢٧).

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٨.

أنه لن يؤمن من قومك إلاَّ من قد آمن، فعند ذلك دعا عليهم نبـيّ الله نوح فقال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفّاراً﴾؛ ثم دعا دعوة عامة فقال: ﴿ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلاَّ تباراً﴾ قال مجاهد: إلاَّ خساراً. وعن عبيد بن عمير الليثي أنه كان يحدّث أنه بلغه: «أنهم كانوا يبطشون به ــ يعني قوم نوح ــ فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية، وعظمت في الأرض منهم الخطيئة، وتطاول عليه عليهم الشأن، واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر النجل بعد النجل، فلا يأتي قرن إلاَّ كان أخبث من القرن الذي قبله، حتى أن الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنوناً، لا يقبلون منه شيئاً، حتى شكى ذلك من أمرهم نوح إلى الله تعالى، كما قصّ الله علينا في كتابه: ﴿ربّ إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلاَّ فراراً﴾ إلى آخر القصة، حتى قال: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلّوا عبادك ولا يلدوا إلاَّ فاجراً كفّاراً﴾ إلى آخر القصة.

فلما شكى ذلك منهم نوح إلى الله واستنصره عليهم، أوحى الله إليه: ﴿أن أصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾[1]، أي: بعد اليوم: ﴿إنهم مغرقون﴾ فأقبل نوح على عمل الفلك، ولهى عن قومه، وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهيء عدة الفلك من القار وغيره مما لا يصلحه إلاَّ هو، وجعل قومه يمرّون به وهو في ذلك من عمله فيسخرون منه ويستهزئون به فيقول: ﴿إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾[2].

---

(١) سورة هود: الآية ٣٧.

(٢) سورة هود: الآية ٣٨.

قال: ويقولون له فيما بلغني: يا نوح قد صرت نجّاراً بعد النبوّة؟ قال: وأعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم ولد؛ قال: ويزعم أهل التوراة أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أزور، وأن يطليه بالقار من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلاً ووسطاً وعلوّاً، وأن يجعل فيه كوى؛ ففعل نوح كما أمره الله، حتى إذا فرغ منه، وقد عهد الله إليه: ﴿إذا جاء أمرنا وفار التنور فاحمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلاَّ من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلاَّ قليل﴾[١].

وروى ابن جرير عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبيّ»: قال رسول الله ﷺ: «كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وذهبت كلّ مذهب، ثم قطعها ثم جعل يعمل سفينته فيسخرون منه ويقولون: يعمل سفينة في البرّ فكيف تجري؟! فيقول: سوف تعلمون؛ فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك، خشيت أم الصبيّ عليه وكانت تحبّه حبّاً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بين يديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أمّ الصبيّ»[٢]. والله أعلم.

● ● ●

(١) سورة هود: الآية ٤.

(٢) سبق تخريجه، وسنده ضعيف.

الدرس الحادي والتسعون بعد المائتين

﴿سـورة الجـن﴾

مكية، وهي ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ

يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ
ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى
لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ
عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾.

قال ابن عباس: «انطلق رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب، فقالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلاّ شيء حدث، فانطلقوا فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حدث. قال: فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء؛ فانطلق النفر الذين توجّهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي

حال بينكم وبين خبر السماء. قال: فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا: ﴿إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾. قال: فأنزل الله إلى نبيّه ﷺ ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ﴾ وإنما أوحي إليه قول الجنّ»[1]. وقال الضحاك في قوله قال: ﴿أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ﴾ هو قول الله: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ﴾[2].

وعن ابن عباس في قوله: ﴿وأنه تعالى جدّ ربنا﴾ يقول: فعله وأمره وقدرته. وعن مجاهد في قوله: ﴿وأنه تعالى جدّ ربنا﴾ قل: جلال ربنا. وقال الحسن: غنى ربنا. وعن مجاهد أيضاً قال: ذكره. وقال سعيد بن جبير: أي تعالى ربنا. **قال البغوي**[3] **يقال**: جدّ الرجل أي عَظُمَ، ومنه قول أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا أي عَظُمَ قدره. ﴿وأنه كان يقول سفيهنا﴾ **قال البغوي**[4]: جاهلنا ﴿ على الله شططاً﴾ كذباً وعدواناً، وهو وصفه بالشريك والولد. ﴿وأنا ظننّا أن لن تقول الإنسا والجنّ على الله كذباً﴾ **قال البغوي**[5]: أي ما حسبنا أن الإنس والجنّ يتمالون على الكذب على الله في نسبة الصاحبة والولد إليه. وعن معمر قال: تلا قتادة ﴿وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذباً﴾ فقال: عصاه والله سفيه الجنّ كما عصاه سفيه الإنس. وعن الحسن في قوله: ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ﴾ قال: كان الرجل منهم إذا نزل الوادي فبات به قال: أعوذ بعزيز هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه. ﴿فزادوهم رهقاً﴾ قال ابن زيد: خوفاً. وقال قتادة: قال الله ﴿فزادوهم

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٧٧٣ و ٤٩٢١)، ومسلم (ح/ ٣٣٢٣).
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢٩.
(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).
(٤) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).
(٥) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

رهقاً﴾، أي: إثماً، وازدادت الجنّ عليهم بذلك جراءة.

﴿وأنهم ظنّوا كما ظنيتم أن لن يبعث الله أحداً﴾ بعد موته. وقال الكلبيّ. ظنّ كفّار الجنّ كما ظنّ كفرة الإنس: أن لا يبعث الله رسولاً. ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ قال سعيد بن جبير: «كانت الجن تستمع، فلما رُجموا قالوا: إن هذا الذي حدث في السماء لشيء حدث في الأرض. قال: فذهبوا يطلبون حتى رأوا النبيّ ﷺ خارجاً من سوق عكاظ يصلّي بأصحابه الفجر، فذهبوا إلى قومهم منذرين». وقال ابن زيد في قوله: ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً﴾ حتى بلغ ﴿فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ فلما وجدوا ذلك رجعوا إلى إبليس فقالوا: منع منا السمع، فقال لهم: بأن السماء لم تحرس قطّ إلاّ على أحد أمرين: إما لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة، وإما نبيّ مرشد مصلح. قال: فذلك قول الله ﴿وإنا لا ندري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾.

﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً﴾ قال ابن عباس: أهواء شتّى، منا المسلم ومنا المشرك. وقال قتادة: أهواء مختلفة. ﴿وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾ قال البغوي[1]: ﴿وأنا ظننّا﴾ علمنا وأيقنّا ﴿أن لن نعجز الله في الأرض﴾، أي: لن نفوته إن أراد بنا أمراً ﴿ولن نعجزه هرباً﴾ إن طلبنا. ﴿وأنا لمّا سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾ قال ابن عباس: لا يخاف نقصاً من حسناته ولا زيادة في سيّئاته. ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ قال: العادلون عن الحقّ الذين جعلوا لله ندّاً ﴿فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً﴾ قال البغوي[2]: أي قصدوا طريق الحقّ وتوخّوه ﴿وأما القاسطون﴾ الذين كفروا ﴿فكانوا لجهنّم حطباً﴾ كانوا وقود النار يوم القيامة.

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧١).

قوله عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال البغوي[1]: ثم رجع إلى كفار مكة فقال: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة﴾ قال مجاهد: طريقة الإسلام ﴿لأسقيناهم ماء غدقاً﴾ قال: نافعاً كثيراً، لأعطيناهم مالاً كثيراً ﴿لنفتنهم فيه﴾ قال: لنبتليهم به. وقال عمر رضي الله عنه: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. ﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً﴾ قال ابن عباس: شاقاً. وقال قتادة: عذاباً لا راحة فيه. وعن ابن عباس ﴿عذاباً صعداً﴾ قال: جبل في جهنّم. وعن قتادة قوله ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله﴾ أحداً كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله، فأمر الله نبيّه أن يوحّد الله وحده. **وقال ابن جرير**[2]: يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ﴾: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا﴾ أيها الناس ﴿مع الله أحداً﴾ ولا تشركوا به فيها شيئاً، ولكن أفردوا له التوحيد وأخلصوا له العبادة.

وعن قتادة ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَداً﴾ قال: تلبّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه، فأبـى الله إلاّ أن ينصره ويمضيه

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٠ ــ ٣٧٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ١١٦).

ويظهره على من ناوأه. وقال الحسن: لما قام رسول الله ﷺ يقول: «لا إله إلاّ الله»، ويدعو الناس إلى ربّهم، كادت العرب تكون عليه جميعاً. وقال ابن عباس ﴿لبداً﴾ أعواقاً. وقال العوفى عن ابن عباس: «لما سمعوا النبيّ ﷺ يتلو القرآن، كادوا يركبونه من الحرص لمّا سمعوه يتلو القرآن، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول، فجعل يقرئه ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾»[1] يستمعون القرآن. ﴿كادوا﴾ يعني الجنّ ﴿يكونون عليه لبداً﴾ أي يركب بعضهم بعضاً ويزدحمون حرصاً على استماع القرآن. قال ابن حجر العسقلانيّ[2]: «والمعنى أن الجنّ تزاحموا على النبـي ﷺ لما استمعوا القرآن، وهو المعتمد». انتهى.

﴿قل إنما أدعو ربـي ولا أشرك به أحداً﴾، أي: قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذّبوه وتظاهروا عليه، ليبطلوا ما جاء به من الحقّ، واجتمعوا على عدواته ﴿وإنما أدعو ربـي﴾، أي: إنما أعبد ربـي وحده لا شريك له، وأستجير به، وأتوكّل عليه ﴿ولا أشرك به أحداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿قل إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً﴾، أي: إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ، وعبد من عباد الله ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كلّه إلى الله عز وجل. ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لن يجيره من الله أحد: أي لو عصيته فإنه لا يقدِر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿ولن أجد من دونه ملتحداً﴾ قال مجاهد: ملجأ. وعن قتادة ﴿إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته﴾ فذلك الذي أملك بلاغاً من الله ورسالاته.

﴿ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنّم خالدين فيها أبداً حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً﴾ **قال ابن كثير**[3]: أي حتى إذا

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/١١٨) بسند ضعيف.

(٢) انظر «فتح الباري» (٨/٥٣٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٣٢).

رأى هؤلاء المشركون من الجنّ والإنس ما يوعدون يوم القيامة، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقلّ عدداً، هم أم المؤمنون الموحّدون لله تعالى، أي: بل المشركون لا ناصر لهم بالكّلية وهم أقلّ عدداً من جنود الله عز وجل.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

قال ابن كثير: يقول تعالى آمراً رسول الله ﷺ أن يقول للناس: أنه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربّي أمداً﴾، أي: مدّة طويلة ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول﴾ قال ابن عباس: فأعلم الله سبحانه الرسل من الغيب: الوحي، أظهرهم عليه بما أوحي إليهم من غيبه، وما يحكم الله فإنه لا يعلم ذلك غيره. وقال ابن زيد: ينزل من غيبه ما شاء على الأنبياء، أنزل على رسول الله ﷺ الغيب: القرآن؛ قال: وحدّثنا فيه بالغيب بما يكون يوم القيامة.

وعن الضحاك ﴿إلاّ من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ قال: كان النبيّ ﷺ إذا بعث إليه الملك، بعث ملائكة يحرسونه من بين يديه ومن خلفه، أن يتشبّه الشيطان على صورة الملك. وعن إبراهيم ﴿من بين يديه ومن خلفه رصداً﴾ قال: ملائكة يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم. وقال ابن عباس: هي معقّبات من الملائكة يحفظون النبيّ ﷺ من الشيطان، حتى يتبيّن الذي أرسل به إليهم، وذلك حين يقول: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾. وعن قتادة: ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ ليعلم نبيّ الله ﷺ أن الرسل قد أبلغت عن الله، وأن الله حفظها ودفع عنها. وقال

البغوي[١]: أي ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم ﴿وأحاط بما لديهم﴾، أي: علم الله ما عند الرسل، فلم يَخْفَ عليه شيء.

﴿وأحصى كلّ شيء عدداً﴾. **قال ابن كثير**[٢]: ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل، وهو قول حكاه ابن الجوزيّ في زاد المسير، ويكون المعنى في ذلك: أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكّنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾[٣]، وكقوله تعالى: ﴿وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين﴾[٤] إلى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعاً لا محالة؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ قال ابن عباس: أحصى ماخلق وعرف عدد ما خلق، فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذرّ والخردل.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٤).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٣٣).

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٣.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ١١.

الدرس الثاني والتسعون بعد المائتين

﴿سـورة المزمل﴾

مكية، وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا (١٧) ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا (١٩) ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن

فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾.

عن قتادة: ﴿يا أيها المزمّل﴾، أي: المتزمّل في ثيابه. وعن ابن عباس قوله: ﴿قم الليل إلاّ قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً﴾ فأمر الله نبيّه والمؤمنين بقيام الليل إلاّ قليلاً، فشقّ ذلك على المؤمنين، ثم خفّف عنهم فرحمهم، وأنزل الله بعد هذا: ﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ إلى قوله: ﴿فاقرأوا ما تيسّر منه﴾ فوسّع الله ــ وله الحمد ــ ولم يضيّق. وعن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما نزلت أول المزمّل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، وكان بين أوّلها وآخرها نحوّ من سنة».

وعن مجاهد في قول الله: ﴿ورتّل القرآن ترتيلاً﴾ قال: ترسّل فيه ترسّلاً. وقال ابن عباس: بيّنه بياناً. وعن الحسن في قوله: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ قال: العمل به. وقال قتادة: ثقيلٌ واللهِ، فرائضُه وحدودُه. وعن هشام ابن عروة عن أبيه: «أن النبيّ ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته، وضعت جرانها فما

تستطيع أن تحرّك، حتى يسرّى عنه»[١]. وقال ابن زيد: هو واللهِ ثقيلٌ مبارَكٌ القرآن، كما ثَقُلَ في الدنيا ثقل في الموازين يوم القيامة.

وعن مجاهد: ﴿إن ناشئة الليل﴾ قال: إذا قمت من الليل فهو ناشئة. وقال قتادة: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة، وقالت عائشة: القيام بعد النوم. وقال ابن زيد في قوله: ﴿إن ناشئة الليل هي أشدّ وطأً﴾ قال: إن مصلّي الليل القائم بالليل: ﴿أشدّ وطأً﴾ طمأنينة، أفرغ له قلباً: ﴿وأقوم قيلاً﴾ قال: أقوم قراءة لفراغه من الدنيا.

﴿إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾ قال: لحوائجك: ﴿واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً﴾ قال ابن عباس: أخلص له إخلاصاً. وقال قتادة: أخلص له العبادة والدعوة. وقال الحسن: ابتل نفسك واجتهد. ﴿ربّ المشرق والمغرب لا إله إلاَّ هو فاتخذه وكيلاً﴾ **قال البغوي**[٢]: قيّماً بأمورك ففوّضها إليه: ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ **قال ابن كثير**[٣]: يقول تعالى آمراً رسوله بالصبر على ما يقوله من كذّبه من سفهاء قومه، وأن يهجرهم: ﴿هجراً جميلاً﴾ وهو الذي لا عتاب معه. ثم قال متوعّداً لهم: ﴿وذرني والمكذّبين أولي النَعمة ومهّلهم قليلاً﴾، أي: دعني والمكذّبين المترفين أصحاب الأموال، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم. ﴿ومهّلهم قليلاً﴾، أي: رويداً، كما قال تعالى: ﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾[٤]

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ١٢٧) عن عروة مرسلاً. وروي مسنداً من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٦/ ١١٨)، والحاكم (٢/ ٥٠٥)، وصححه، ووافقه الذهبي.
تنبيه: وقع في (الأصل): «جراتها» بالتاء، وهو خطأ.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٣٧).

(٤) سورة لقمان: الآية ٢٤..

وعن قتادة: ﴿إن لدينا أنكالاً﴾، أي: قيوداً. ﴿وجحيماً وطعاماً ذا غصّة﴾ قال ابن عباس: شرك يأخذ بالحلق فلا يدخل ولا يخرج. ﴿وعذاباً أليماً﴾.

﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ قال ابن عباس: الكثيب المهيل الرمل السائل؛ **قال ابن كثير**[1]، أي: تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صمّاء، ثم إنها تنسف نسفاً فلا يبقى منها شيء إلاّ ذهب، حتى تصير الأرض: ﴿قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمْتاً﴾.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ﴾.

قال ابن كثير[2]: ثم قال تعالى مخاطباً لكفّار مكة، والمراد سائر الناس: ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾ قال قتادة: شديداً: ﴿فكيف تتّقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ يقول: كيف تتّقون يوماً وأنتم قد كفرتم به ولا تصدقون به؟ وقال الضحاك في قوله: ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ كان ابن مسعود يقول: «إذا كان يوم القيامة دعا ربُّنا الملِكُ آدَمَ فيقول: يا آدم قم فابعث بعث النار، فيقول آدم، أي: ربّ لا علم لي إلاّ ما علّمتني، فيقول الله له: أخرج من كلّ ألف تسعمائة وتسعة تسعين، فيساقون إلى النار سوداً مقرّنين زرقاً كالحين، فيشيب هنالك كلّ وليد»[3].

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤٣٨).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ١٣٧).

قال البغوي: ثم وصف هول ذلك اليوم فقال: ﴿السماء منفطر به﴾ متشقّق لنزول الملائكة؛ ﴿به﴾، أي: بذك المكان. ﴿كان وعده مفعولاً﴾. ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ قال قتادة: بطاعة الله. وقال البغوي[1]: ﴿إن هذه﴾، أي: آيات القرآن: ﴿تذكرة﴾ تذكير وموعظة: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ بالإيمان والطاعة.

قوله عز وجل: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

قال البغوي[2]: ﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى﴾ أقلّ. ﴿من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك﴾ يعني المؤمنين، وكانوا يقومون معه. ﴿والله يقدّر الليل والنهار﴾ قال عطاء: يريد: لا يفوته علم ما تفعلون، أي: أنه يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومون من الليل. ﴿علم أن لن تحصوه﴾ قال الحسن: قاموا حتى انتفخت أقدامهم: فنزل ﴿علم أن لن تحصوه﴾ لن تطيقوه. ﴿فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسّر من القرآن﴾ يعني في الصلاة.

﴿علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله﴾ قال قتادة: ثم أنبأنا بخصال: ﴿علم أن سيكون

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٧٨).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٣٧٩).

منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأوا ما تيسّر منه﴾ فإن الله افترض القيام في أول هذه السورة، فقام نبيّ الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، ثم أنزل التخفيف في آخرها فصار قيام الليل تطوّعاً بعد فريضة. ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فهما فريضتان واجبتان لا رخصة لأحد فيهما فأدّوهما إلى الله تعالى ذكره.

﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ قال ابن زيد: القرض النوافل سوى الزكاة: ﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً﴾ **قال البغوي**[1]: تجدوا ثوابه في الآخرة أفضل مما أعطيتم: ﴿وأعظم أجراً﴾ من الذي أخذتم ولم تقدّموه. ثم ساق بسنده عن الحارث بن سويد قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «أيّكم ماله أحبّ إليه من مال وارثه؟» قالوا: يا رسول الله ما منّا أحد إلاّ ماله أحبّ إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا ما تقولون»، قالوا: ما نعلم إلاّ ذلك يا رسول الله، قال: «ما منكم رجل إلاّ مال وارثه أحبّ إليه من ماله»، قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «إنما مال أحدكم ما قدّم، ومال وارثه ما أخّر»[2].

وقوله تعالى: ﴿واستغفروا الله﴾، أي: لذنوبكم: ﴿إن الله غفور رحيم﴾ وفي الصحيحين وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله تبارك وتعالى في كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيته؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟»[3] وروى أحمد وغيره عن أبي هريرة قلنا: يا رسول الله إذا رأيناك رقّت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد، فقال: «لو أنكم تكونون على كلّ

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٧٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ١١٤٥)، ومسلم (ح/ ٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حال على الحال التي كنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفّهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم»، قلنا: يا رسول الله حدّثنا عن الجنّة ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذهب ولَبِنَةٌ فضّة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء، ويقول لها الربّ عز وجل: وعزّتي وجلالي لأنصرنّك ولو بعد حين»[1].

● ● ●

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٤ ــ ٣٠٥)، والترمذي (ح/٣٥٩٨)، وابن ماجه (ح/ ١٧٥٢) كلاهما مقتصر على طرفه الأخير: «ثلاثة لا ترد دعوتهم...»، وسنده ضعيف، لكن طرفه الأول: «لو أنكم... ولزارتكم في بيوتكم». له شاهد من حديث أنس وحنظلة الأسيدي فهو صحيح، وطرفه الآخر: «ولم تذنبوا لجاء... كي يغفر لهم» له شاهد من حديث أبـي أيوب عند مسلم. وطرفه الآخر: «لبنة ذهب... ولا يغني شبابه» له شاهد من حديث ابن عمر عند الطبراني وابن أبـي شيبة، بسند ضعيف.

الدرس الثالث والتسعون بعد المائتين

﴿سـورة المـدثـر﴾

مكية، وهي ست[1] وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

---

(١) في (الأصل): «ستة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي هي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ ، وهو الصواب.

كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ وهو يحدّث عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي، سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض، فجئثت منه فَرَقاً، وجئت فقلت: زمّلوني زمّلوني، فدثّروني فأنزل الله: ﴿يا أيها المدّثّر قم فأنذر وربّك فكبّر﴾ إلى قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ ــ قال ــ ثم تتابع الوحي»[1].

وعن قتادة: ﴿قم فأنذر﴾، أي: أنذر عذاب الله ووقائعه في الأمم وشدّة نقمته. ﴿وربّك فكبّر﴾ قال ابن جرير[2]: يقول تعالى ذكره: وربك يا محمد فعظّم بعبادته والرغبة إليه في حاجاتك دون غيره من الآلهة والأنداد. ﴿وثيابك فطهّر﴾ قال قتادة يقول: طهّرها من المعاصي. وعن ابن عباس: ﴿وثيابك فطهّر﴾ قال: من الإثم ثم قال: نقيّ الثياب في كلام العرب. وعن مجاهد في قوله: ﴿وثيابك فطهّر﴾ قال: عملك فأصلح. وقال ابن زيد: كان المشركون لا يتطهّرون، فأمره أن يتطهّر ويطهّر ثيابه. وعن مجاهد قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾ قال: الأوثان. ﴿ولا تمنن تستكثر﴾ قال ابن عباس: لا تعط عطيّة تلتمس بها أفضل منها. قال الضحاك: هما ربوان: حلال وحرام، فأما الحلال فالهدايا، وأما الحرام فالربا. وقال: هي

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤ و ٣٢٣٨ و ٤٩٢٢ و ٤٩٢٣)، ومسلم (ح/ ١٦١).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ١٤٤).

للنبيّ ﷺ خاصّة. ﴿ولربّك فاصبر﴾ قال ابن زيد: حُمِّلَ أمراً عظيماً: محاربة العرب ثم العجم من بعد العرب، في الله.

وعن مجاهد: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ قال: إذا نفخ في الصور: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ قال ابن عباس يقول: شديد. قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى[1] جبهته يستمع متى يؤمر ينفخ فيه؟» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: كيف نقول؟ فقال: «تقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكّلنا»[2]. وعن قتادة: قال الله تعالى ذكره: ﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾ فبيّن الله على من يقع على الكافرين غير يسير.

قوله عز وجل: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

عن مجاهد: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ قال: نزلت في الوليد بن المغيرة. قال قتادة: أخرجه الله من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد، فرزقه المال والولد والثروة والنساء: ﴿وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً﴾ قال مجاهد: كان بنوه عشرة لا يغيبون: ﴿ومهّدت له تمهيداً﴾ من المال والولد. قال سفيان: بسط له. ﴿ثم يطمع أن أزيد كلاّ﴾.

(١) في (الأصل): «وحتى»، وهو خطأ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩/ ١٥١) بسند ضعيف.

قال البغوي[١]: ﴿ثم يطمع﴾ يرجو: ﴿أن زيد﴾، أي: أزيده مالاً وولداً وتمهيداً: ﴿كلاّ﴾ لا أفعل ولا أزيده؛ وقالوا: فما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله وولده حتى هلك. وعن ابن عباس قوله: ﴿إنه كان لآياتنا عنيداً﴾ قال: جَحوداً. ﴿سأرهقه صَعوداً﴾ قال مجاهد: مشقّة من العذاب. وعن أبـي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «الصَعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً، ثم يهوي كذلك منه أبداً»[٢]. رواه ابن جرير.

﴿إنه فكّر وقدّر﴾ **قال البغوي**[٣]: وذلك أن الله تعالى لما أنزل على النبـيّ ﷺ: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ إلى قوله: ﴿المصير﴾[٤] قام النبـيّ ﷺ في المسجد، والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبـيّ ﷺ لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، إنّ له لحَلاوة، وإنّ عليه لَطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يُعلى. ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ والله الوليد، والله لتصبأنّ قريش كلّهم ــ وكان يقال للوليد: ريحانة قريش ــ فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه؛ فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال له الوليد مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟ قال: وما يمنعني أن لا أحزن، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنّك، ويزعمون أنك زيّنت كلام محمد، وأنك تدخل على

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، والترمذي (ح/ ٢٥٧٦ و ٣٣٢٦)، وابن جرير (٢٩/ ١٥٥)، والحاكم (٢/ ٥٠٧) وصححه ووافقه الذهبـي! قلت: وهذا الحديث من رواية أبـي السمح: دراج، عن أبـي الهيثم، وروايته عنه ضعيفة، كما حكاه غير واحد من الحفاظ، والله أعلم.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٨٣).

(٤) سورة غافر: الآيات ١ ــ ٣٢.

ابن أبـي كبشة وابن أبـي قحافة لتنال من فضل طعامهم؟ فغضب الوليد فقال: ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً؟ وهل يشبع محمد وأصحابه من الطعام، فيكون لهم فضل؟

ثم قام مع أبـي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمداً مجنون، فهل رأيتموه يخنق قطّ؟ قالوا: اللهمّ لا، قال: تزعمون أنه كاهن، فهل رأيتموه قطّ تكهّن؟ قالوا: اللهمّ لا، قال: تزعمون أنه شاعر، فهل رأيتموه ينطق بشعر قطّ؟ قالوا: اللهمّ لا، قال: تزعمون أنه كذّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب؟ قالوا: لا ــ وكان رسول الله ﷺ يسمّى الأمين قبل النبوّة من صدقه ــ قالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكّر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلاّ ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر»[1]؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿إنّه فكّر﴾ في محمد والقرآن ﴿وقدّر﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول في محمد والقرآن: ﴿فقُتل﴾ لُعن. وقال الزهريّ: عُذّب: ﴿كيف قدّر﴾ على طريق التعجّب والإنكار والتوبيخ: ﴿ثم قتل كيف قدّر﴾ كرّره للتأكيد: ﴿ثم نظر﴾ في طلب ما يدفع من القرآن ويردّه: ﴿ثم عبس وبسر﴾ كلح وقطّب وجهه فنظر بكراهية شديدة كالمتّهم المتفكّر في شيء.

﴿ثم أدبر﴾ عن الإيمان: ﴿واستكبر﴾ تكبّر حين دعي إليه: ﴿فقال إن هذا﴾ ما هذا الذي يقرأه محمد: ﴿إلاّ سحر يؤثر﴾ يروى ويحكى عن السحرة: ﴿إن هذا إلاّ قول البشر﴾ يعني يساراً وجبراً، فهو يأثره عنهما. قال الله تعالى: ﴿سأصليه﴾ سأدخله: ﴿سقر﴾ وسقر: اسم من أسماء جهنّم: ﴿وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر﴾ قال السدّي: ﴿لا تبقي﴾ لهم لحماً: ﴿ولا تذر﴾ لهم عظماً. وقال مجاهد:

---

(١) أخرجه الحاكم بنحوه (٢/٥٠٧)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن جرير (٢٩/١٥٦) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند ضعيف.

كلّما احترقوا جُدّدوا: ﴿لوّاحة للبشر﴾ قال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان. وقال ابن زيد: النار تغيّر ألوانهم: ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال ابن زيد: خزنتها تسعة عشر.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

قال ابن عباس وغيره: لما نزلت: ﴿عليها تسعة عشر﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمّهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبر أن خزنة جهنّم تسعة عشر، وأنتم الدّهم ــ أي الشجعان ــ أفيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من خزنة جهنّم؟ قال أبو الأشد الجمحيّ: أنا أكفيكم منهم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله عز وجل: ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾[1]. قال ابن عباس: وإنها في التوراة والإنجيل: تسعة عشر، فأراد الله أن يستيقن أهل الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ **قال ابن جرير**[2]: ولا يشكّ أهل التوراة والإنجيل في حقيقة ذلك، والمؤمنون بالله من أمّة محمد ﷺ: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ نفاق: ﴿والكافرون﴾ بالله من مشركي قريش: ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾؟ قال ابن زيد يقولون: حين يخوّفنا بهؤلاء التسعة عشر.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/١٥٩) بسند ضعيف جداً.

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/١٦٠).

﴿كذلك﴾ قال البغوي[١]، أي: كما أضلّ الله من أنكر عدد الخزنة وهدي من صدّق: ﴿كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلاّ هو﴾ قال مقاتل: هذا جواب أبـي جهل حين قال: أما لمحمد أعوان إلاّ تسعة عشر؟ قال عطاء: ﴿وما يعلم جنود ربّك إلاّ هو﴾ يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدّتهم إلاّ الله؛ والمعنى: أن تسعة عشر هم خزنة النار، ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمهم إلاّ الله عز وجل.

ثم رجع إلى ذكر سقر فقال: ﴿وما هي﴾ يعني النار: ﴿إلاّ ذكرى للبشر﴾ إلاّ تذكرة وموعظة للناس. ﴿كلاّ والقمر﴾ هذا قسم، يقول: حقّاً. ﴿والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر﴾ قال مجاهد: يعني جهنّم: ﴿نذيراً للبشر﴾ قال الحسن: والله ما أنذر الناس بشيء أدهى منها. ﴿لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر﴾ قال ابن عباس: من شاء اتّبع طاعة الله، ومن شاء تأخّر عنها.

قوله عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

عن ابن عباس: ﴿كلّ نفس بما كسبت رهينة﴾ يقول: مأخوذة بعملها. ﴿إلاّ

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٨٧).

أصحاب اليمين﴾ قال قتادة: علق الناس كلّهم إلاّ أصحاب اليمين. وقال ابن زيد: لا يرتهنون بذنوبهم، ولكن يغفرها الله لهم. ﴿في جنّات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين﴾ قال قتادة يقول: كلّما غوى غاوٍ غوينا معه: ﴿وكنا نكذّب بيوم الدين حتى أتانا اليقين﴾ **قال البغوي**[1]: وهو الموت، قال الله: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ روى ابن جرير عن ابن مسعود في قصة ذكرها من الشفاعة قال: «ثم تشفع الملائكة والنبيّون والشهداء والصالحون والمؤمنون، ويشفّعهم الله فيقول: أنا أرحم الراحمين، فيخرج من النار أكثر مما أخرج من جميع الخلق من النار، ثم يقول: أنا أرحم الراحمين»؛ ثم قرأ عبد الله يا أيها الكفار: ﴿ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلّين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذّب بيوم الدين﴾ وعقد بيده أربعاً ثم قال: هل ترون في هؤلاء من خير؟ إلاّ ما يُترك فيها أحدٌ فيه خير»[2].

وعن قتادة: ﴿فمالهم عن التذكرة معرضين﴾، أي: في هذا القرآن؟ ﴿كأنّهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة﴾ قال ابن عباس: هي الرماة. قال قتادة: وهم الرماة القناص. وقال أبو هريرة: هو الأسد. **قال ابن كثير**[3]، أي: كأنّهم في نفارهم عن الحقّ وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش، إذا فرّت ممن يريد صيدها. وعن مجاهد: ﴿بل يريد كلّ امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشّرة﴾ قال: إلى فلان من ربّ العالمين. وقال قتادة: قال ذلك قائلون من الناس: يا محمد إن سرّك أن نتبعك فائتنا بكتاب، خاصّة إلى فلان وفلان نؤمر فيه باتباعك. قال البغوي: فقال الله تعالى: ﴿كلاّ﴾ لا يؤتون الصحف: ﴿بل لا يخافون الآخرة﴾ قال قتادة: إنما

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩/١٦٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٤٧).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٨٨).

أفسدهم أنهم كانوا لا يصدّقون بالآخرة ولا يخافونها. قال البغوي[1]: والمعنى أنهم لو خافوا النار لما اقترحوا هذه الآيات بعد قيام الأدلّة. ﴿كلاّ﴾ حقاً. ﴿إنه﴾ يعني القرآن. ﴿تذكرة﴾ موعظة. ﴿فمن شاء ذكره﴾ اتّعظ به. ﴿وما يذكرون إلاّ أن يشاء الله﴾ قال مقاتل: إلاّ أن يشاء الله لهم الهدى. ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾، أي: أهل أن تتّقي محارمه، وأهل أن يغفر لمن اتقاه. ثم ساق بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال في هذه الآية: ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ قال: «قال ربّكم عز وجل: أنا أهل أن أُتّقَى ولا يشرَك بـي غيري، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرِك بـي أن أغفر له»[2].

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٢٤٣)، والترمذي (ح/٣٣٢٨)، وقال: «حديث غريب، وسنده ليس بالقوي»، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠١)، وابن ماجه (ح/٤٢٩٩)، والحاكم (٢/٥٠٨)، وصححه، ووافقه الذهبي!! قلت: بل فيه سهيل بن أبي حزم، وهو ضعيف.

الدرس الرابع والتسعون بعد المائتين

﴿سورة القيامة﴾

مكية، وهي أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴿١٤﴾ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾.

قال أبو هشام الرفاعي: سمعت أبا بكر بن عياش يقول: قوله: ﴿لا أقسم﴾ توكيد للقسم، كقوله: لا والله. وعن سعيد بن جبير قال: قال لي ابن عباس: ممن أنت؟ فقلت: من أهل العراق، فقال: أيّهم؟ فقلت: من بني أسد، فقال: من حريبهم أو ممن أنعم الله عليهم؟ فقلت: لا بل ممن أنعم الله عليهم، فقال لي: سل، فقلت: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فقال: يقسم ربك بما شاء من خلقه. وعن قتادة قوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾ قال: أقسم بهما جميعاً. وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ولا أقسم بالنفس اللوّامة﴾ قال: تلوم على الخير والشر. وقال مجاهد: تندم على ما فات من الخير وتلوم عليه. وقال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوّامة. قال مقاتل: هي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرّطت في أمر الله في الدنيا.

﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾ **قال البغوي**[1]: نزلت في عديّ بن ربيعة حليف بني زهرة ختن الأخنس بن شويق الثقفيّ، وكان النبيّ ﷺ يقول: «اللهمّ اكفني جارَي السوء» يعني عديّاً والأخنس، وذلك أن عديّ بن ربيعة أتى النبيّ ﷺ فقال: يا محمد حدّثني عن القيامة، متى تكون وكيف حالها وأمرها؟ فأخبره النبيّ ﷺ فقال: لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدّقك ولم أومن بك، أَوَ يجمع الله العظام؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿أيحسب الإنسان﴾ يعني الكافر: ﴿أن لن نجمع

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٨٩).

عظامه﴾ بعد التفريق والبلى فنحييه: ﴿بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾ قال الزجاج وابن قتيبه: معناه ظنّ الكافر أن لا نقدر على جمع عظامه، بلى نقدر على أن نعيد السلاميّات على صغرها فنؤلف بينها حتى نسوّي البنان، فمن قدر على جمع صغار العظام فهو على جمع كبارها أقدر. وعن ابن عباس قوله: ﴿بلى قادرين على أن نسوّي بنانه﴾ قال: نجعله خفّاً أو حافراً. وقال الضحاك: البنان الأصابع. وعن عكرمة.

﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾ قال: قدماً لا ينزع عن فجور. وقال ابن عباس يقول: الكافر يكذّب بالحساب يسأل أيّان يوم القيامة. قال قتادة يقول: متى يوم القيامة؟ ﴿فإذا برق البصر﴾ قال مجاهد: عند الموت. وقال قتادة: شخص البصر: ﴿وخسف القمر﴾ قال: ذهب ضوؤه فلا ضوء له: ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ قال مجاهد: كوّراً يوم القيامة: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفرّ﴾، أي: المهرب. وعن ابن عباس قوله: ﴿كلاّ لا وزر﴾ يعني لا حصن ولا ملجأ: ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ قال قتادة، أي: المنتهي. وقال ابن زيد: استقرّ أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ﴿ينبّؤ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر﴾ قال مجاهد: بأول عمله وآخره. وعن ابن عباس قوله: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ يقول: سمعه وبصره ويداه ورجلاه. وقال قتادة: شاهد عليها بعملها. وعن سعيد بن جبير: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾ قال: شاهد على نفسه ولو اعتذر.

قوله عز وجل: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس: «أن النبيّ ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجّل، يريد حفظه، فقال الله تعالى ذكره: ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه﴾. وقال ابن عباس: هكذا، وحرّك شفتيه. ﴿إن علينا جمعه﴾ قال: في صدرك: ﴿وقرآنه﴾ قال: تقرؤه بعد. ﴿فإذا قرأناه﴾ أنزلناه إليك. ﴿فاتّبع قرآنه﴾ قال:

فاستمع قرآنه. ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ قال: تبيانه بلسانك، فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل»[١].

قوله عز وجل: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿كلّا بل تحبّون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ اختار أكثر الناس العاجلة إلاّ من رحم الله وعصم. ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ قال ابن زيد: الناضرة الناعمة. وقال الحسن: حسنة. وقال مجاهد: مسرورة. ﴿إلى ربّها ناظرة﴾ قال الحسن: تنظر إلى الخالق، وحقّ لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق. وقال عطية العوفي: هم ينظرون إلى الله، لا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره محيط بهم؛ فذلك قوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾. وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا»[٢]. وفي الصحيحين أيضاً عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من فضّة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن»[٣]. وروى مسلم عن جابر في حديثه «أن الله يتجلّى للمؤمنين، يضحك ــ يعني في عرصات يوم القيامة ــ»[٤]. **قال ابن كثير**[٥]: ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات، وفي روضات الجنّات.

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٥ و ٤٩٢٧ و ٤٩٢٨ و ٥٠٤٤ و ٧٥٢٤)، ومسلم (ح/ ٤٤٨).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (ح/ ١٩١).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٥٠).

عن مجاهد: ﴿ووجوه يؤمئذ باسرة﴾ قال: كاشرة. وقال قتادة: كالحة. وقال ابن زيد: عابسة. ﴿تظنّ أن يفعل بها فاقرة﴾ قال مجاهد: واهية. وقال قتادة: شرّ. وقال ابن زيد: تظنّ أنها ستدخل النار، قال: تلك الفاقرة. قال البغوي: الفاقرة الداهية العظيمة، والأمر الشديد يكسر فقار الظهر.

قوله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

قال البغوي[١]: ﴿كلّا إذا بلغت﴾ يعني النفس، كناية عن غير مذكور: ﴿التراقي﴾ تحشرج بها عند الموت. ﴿وقيل من راق﴾ **قال ابن جرير**[٢]: يقول تعالى ذكره: وقال أهله: من ذا يرقيه ليشفيه مما قد نزل به؟ وطلبوا له الأطباء والمداوين، فلم يغنوا عنه من أمر الله الذي قد نزل شيئاً. وعن قتادة: ﴿وظنّ أنه الفراق﴾، أي: استيقن. وقال ابن زيد: ليس أحد من خلق الله يدفع الموت ولا ينكره، ولكن لا يدري يموت من ذلك المرض أو من غيره، فالظنّ كما ههنا هذا. ﴿والتفّت السابق بالساق﴾ قال الحسن: لفّهما أمر الله. وقال أبو مالك: هما ساقاه إذا ضمّت إحداهما بالأخرى. وقال قتادة: ماتت رجلاه فلا يحملانه إلى شيء، فقد كان عليهما جوّالاً. وعن ابن عباس قوله: ﴿والتفّت الساق بالساق﴾ يقول: آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدّة بالشدّة إلاّ من رحم الله. وقال مجاهد هو أمر الدنيا والآخرة عند الموت.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩٢).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ١٩٤).

﴿إلى ربّك يومئذ المساق﴾ **قال البغوي**[١]، أي: مرجع العباد إلى الله يساقون إليه. وعن قتادة: ﴿فلا صدّق ولا صلّى﴾ لا صدّق لكتاب الله، ولا صلّى لله. ﴿ولكن كذّب وتولّى﴾ كذّب بكتاب الله، وتولّى عن طاعة الله. ﴿ثم ذهب إلى أهله يتمطّى﴾، أي: يتبختر، وهو أبو جهل بن هشام كانت مشيته. **قال ابن جرير**[٢]: ومنه الخبر عن رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمّتي المطيطاء»[٣]، وذلك أن يلقي الرجل بيديه ويتكفّأ. وقال سعيد عن قتادة: ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ وعيد على وعيد كما تسمعون، زعم أن هذا أنزل في عدوّ الله أبـي جهل، ذكر لنا أن نبـيّ الله ﷺ أخذ بمجامع ثيابه فقال: ﴿أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى﴾ فقال عدوّ الله أبو جهل: أيوعدني محمد؟ والله ما تستطيع لي أنت ولا ربّك شيئاً، والله لأنا أعزّ من مشى بين جبليها. قال: فلما كان يوم بدر أشرف عليهم فقال: لا يصدّ الله بعد هذا اليوم؛ وضرب الله عنقه وقتله شرّ قتلة.

وعن ابن عباس قوله: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾؟ قال: هملاً وقال مجاهد: لا يؤمر ولا ينهى؟ ﴿أم يك نطفة من منّي يمنى ثم كان علقة فخلق فسوّى﴾ **قال البغوي**[٤]: فجعل فيه الروح وسوّى خلقه: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك﴾ الذي فعل هذا: ﴿بقادر على أن يحيـي الموتى﴾؟ وعن ابن عباس: أنه مرّ بهذه الآية: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيـي الموتى﴾؟ قال: سبحانك فَبَلَى.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩٣).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/ ١٩٩).

(٣) وتمامه: «وخدمها أبناء الملوك: أبناء فارس والروم، سلط شرارها على خيارها». أخرجه الترمذي (ح/ ٢٢٦١)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ١٦٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه بسند ضعيف، لكن له شاهد من حديث أبـي هريرة: أخرجه الطبراني في الأوسط كما عزاه الهيثمي (١٠/ ٢٤٠)، وقال: «إسناده حسن» قلت وفي سنده ابن لهيعة، ولا بأس به في الشواهد والمتابعات.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩٢).

الدرس الخامس والتسعون بعد المائتين

﴿سورة الإنسان﴾

مكية، وهي إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ

وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾.

عن قتادة: ﴿هل أتى على الإنسان﴾ آدم أتى عليه. ﴿حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾؟ قال: كان آدم ﷺ آخر ما خلق من الخلق. ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج﴾ قال مجاهد: خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة. وقال الربيع: إذا اجتمع ماء الرجل وماء المرأة فهو أمشاج. وقاله ابن جرير[1] وقوله: ﴿نبتليه﴾ نختبره. ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ قال ابن كثير[2]، أي: جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكّن بهما من الطاعة والمعصية. وقوله جلّ وعلا: ﴿إنا هديناه السبيل﴾، أي: بيّنّاه له ووضّحناه وبصّرناه به، كقوله جلّ وعلا: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى﴾[3]، وكقوله جلّ وعلا: ﴿وهديناه النجدين﴾[4]، أي: بيّنّا له طريق الخير وطريق الشر.

وقوله تعالى: ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله: ﴿إنا هديناه السبيل﴾ تقديره: فهو في ذلك إما شقيّ وإما سعيد، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعريّ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلّ

(١) انظر «جامع البيان» (٢٩/٢٠٢).
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٣).
(٣) سورة فصلت: الآية ١٧.
(٤) سورة البلد: الآية ١٠.

الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[1].

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال ابن كثير[2]: يخبر تعالى عما أرصده للكافرين ــ من السلاسل والأغلال والسعير، وهو اللهب والحريق ــ في نار جهنّم، كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون﴾[3]. ولما ذكر ما أعدّه لهؤلاء الأشقياء من السعير، قال بعده: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيّبة، مع ما يضاف

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٢٣)، وأوله: «الطهور شطر الإيمان».

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٥٤).

(٣) سورة غافر: الآية ٧١

إلى ذلك من اللذاذة في الجنّة. قال الحسن: برد الكافور في طيب الزنجبيل، ولهذا قال: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً﴾، أي: هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور، هو عين يشرب بها المقرّبون من عباد الله، صرفاً بلا مزج. وعن قتادة: ﴿يفجّرونها تفجيراً﴾ قال: مستقيد ماؤها لهم، يفجّرونها حيث شاءوا.

﴿يوفون بالنذر﴾ قال: كانوا ينذرون طاعة الله من الصلاة والزكاة والحجّ والعمرة وما افترض عليهم، فسمّاهم الله بذلك: ﴿الأبرار﴾ فقال: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً﴾ استطار واللهِ شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض. وفي الحديث الصحيح: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»[1]. وعن مجاهد: ﴿ويطعمون الطعام على حبّه﴾ قال: وهم يشتهونه: ﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ قال قتادة: كان أسراهم يومئذ المشرك، وأخوك المسلم أحقّ أن تطعمه. وقال مجاهد: الأسير هو المحبوس. ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾ قال: أما أنهم ما تكلّموا به، ولكن الله علمه من قلوبهم فأثنى به عليهم، ليرغب في ذلك راغب.

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾ قال ابن عباس: طويلاً. وقال قتادة: عبست فيه الوجوه وقبضت ما بين أعينها كراهية ذلك اليوم. ﴿فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً﴾ نضرة في وجوهم وسروراً في قلوبهم. ﴿وجزاهم بما صبروا جنّة وحريراً﴾ يقول: ﴿وجزاهم بما صبروا﴾ على طاعة الله وصبروا عن معصيته ومحارمه. ﴿جنّة وحريراً متكئين فيها على الأرائك﴾ كنا نحدّث أنها الحجال فيها الأسّرة. قال الله: ﴿لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً﴾ يعلم الله أن شدّة الحرّ تؤذي، وشدّة القر تؤذي، فوقاهم الله أذاهما. ﴿قوارير من فضّة﴾ قال: هي من فضّة وصفاؤها صفاء القوارير وبياض الفضّة: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلاً﴾ قال: لا يردّ أيديهم عنها بعد ولا شوك.

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٦٦٩٦ و ٦٧٠٠)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿ويطاف عليهم بآنية من فضّة وأكواب كانت قواريرا﴾، أي: صفاء القوارير في بياض الفضّة. ﴿قدّروها تقديراً﴾ قدّرت على ري القوم. ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾ **قال ابن كثير**[1]، **أي**: يسقون ــ يعني الأبرار أيضاً ــ في هذه الأكواب: ﴿كأساً﴾، أي: خمراً. ﴿كان مزاجها زنجبيلاً﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد، وتارة بالزنجبيل وهو حارّ ليعتدل الأمر، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة، وأما المقرّبون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً. وعن قتادة قوله: ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمّى سلسبيلاً﴾ رفيعة، يشربها المقرّبون صرفاً، وتمزج لسائر أهل الجنة، وعن مجاهد: ﴿عيناً فيها تسمّى سلسبيلاً﴾ قال: سَلِسَةُ الجرية. وعن قتادة: ﴿ويطوف عليهم ولدان مخلّدون﴾، أي: لا يموتون.

﴿إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ قال: من كثرتهم وحسنهم. ﴿وإذا رأيت ثَمّ﴾ **قال البغوي**[2]، **أي**: إذا رأيت ببصرك ونظرت به: ﴿ثَمّ﴾ يعني في الجنّة: ﴿رأيت نعيماً﴾ لا يوصف: ﴿وملكاً كبيراً﴾ **قال ابن كثير**[3]: وثبت في الصحيح: أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً، وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: «إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها»[4]. ﴿عاليهم﴾، أي: فوقهم: ﴿ثياب سندس خضر واستبرق﴾ **قال ابن كثير**[5]، **أي**: لباس أهل الجنة فيها الحرير، ومنه سندس وهو رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والاستبرق منه ما فيه بريق

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٦).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٣٩٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٧).

(٤) أخرجه مسلم (ح/١٨٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وانظر البخاري (ح/٨٠٦)، ومسلم (ح/١٨٨ و ١٨٩ و ١٩١).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٥٧).

ولمعان، وهو مما يلي الظاهر، كما هو المعهود في اللباس. ﴿وحُلّوا أساور من فضّة﴾ وهذه صفة الأبرار، وأما المقرّبون فكما قال تعالى: ﴿يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾.

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحليّ قال بعده: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾، أي: طهّر بواطنهم من الحسد والحقد والغلّ والأذى، وسائر الأخلاق الرديئة؛ كما روينا عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «إذا انتهى أهل الجنّة إلى باب الجنّة، وجدوا هنالك عينين، فكأنما ألهموا ذلك، فشربوا من إحداهما فأذهب الله ما في بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم»؛ فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن. وعن قتادة قوله: ﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾ غفر لهم الذنب وشكر لهم السعي؛ وقال: لقد شكر الله سعياً قليلاً.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

قال البغوي[1]: قوله عز وجل: ﴿إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾ قال ابن

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٣٩٩).

عباس: متفرّقاً آية بعد آية، ولم ينزل جملة واحدة. ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾ قال ابن كثير[١]: فالآثم هو الفاجر في أفعاله، والكفور هو الكافر قلبه. ﴿واذكر اسم ربّك بكرة وأصيلاً﴾ إلى أول النهار وآخره: ﴿ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً﴾ كقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾[٢].

﴿إن هؤلاء يحبّون العاجلة ويذرون راءهم يوماً ثقيلاً﴾ يعني يوم القيامة: ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم﴾ قال ابن عباس: خلقهم. وقال الحسن: يعني أوصالهم، شددنا بعضهما إلى بعض بالعروق والعصب: ﴿وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً﴾ كقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾[٣]. وعن قتادة في قوله: ﴿إن هذه تذكرة﴾ قال: إن هذه السورة تذكرة: ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ قال البغوي[٤]: وسيلة للطاعة. ﴿وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله﴾، أي: لستم تشاءون إلاّ بمشيئة الله عز وجل، لأن الأمر إليه: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ قال ابن كثير[٥]، أي: عليم بمن يستحقّ الهداية فيسرها له ويقيّض له أسبابها، ومن يستحقّ الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة والحجّة الدامغة: ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً﴾.

● ● ●

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٥٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١٣٣.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٠).

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٦١).

الدرس السادس والتسعون بعد المائتين

﴿سورة المرسلات﴾

مكية، وهي خمسون آية

عن أم الفضل: «أنها سمعت النبيّ ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً»[1]. متفق عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٧٦٣ و ٤٤٢٩)، ومسلم (ح/ ٤٦٢).

شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ❊.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى، إذ نزلت عليه ﴿والمرسلات﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقّاها من فيه، وإن فاه لرطب بها، إذ وثبت علينا حيّة، فقال النبيّ ﷺ «اقتلوها» فابتدرناها فذهبت، فقال النبيّ ﷺ «وقيت شرّكم كما وقيتم شرّها»[1]. متفق عليه.

وعن ابن عباس قوله: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ يعني الريح. وعن صالح بن بريدة في قوله: ﴿عرفاً﴾ قال: يتبع بعضها بعضاً. **وقال البغوي**[2]: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ يعني الرياح أرسلت متتابعة كعرف الفرس. وعن قتادة ﴿فالعاصفات عصفاً﴾ قال الرياح. وعن مجاهد: ﴿والناشرات نشراً﴾ قال: الريح. وقال الحسن: هي الرياح التي يرسلها الله بشراً بين يدي رحمته.

وعن ابن عباس ﴿فالفارقات فرقاً﴾ قال: الملائكة. قال البغوي: تأتي بما يفرق بين الحقّ والباطل ﴿فالملقيات ذكراً﴾ قال قتادة: هي الملائكة تلقي الذكر على الرسل وتبلّغه ﴿عذراً أو نذراً﴾ قال: ﴿عذراً﴾ من الله: ﴿ونذراً﴾ منه إلى

(١) أخرجه البخاري (ح/٣٣١٧ و ٤٩٣٠ و ٤٩٣١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠١).

خلقه. وقال في جامع البيان أي: لإعذار المحقّين، وإنذار المبطلين ﴿إنما توعدون لواقع﴾ **قال ابن كثير**[١]: هذا هو المقسَم عليه بهذه الأقسام، أي: ما وعدتم به من قيام الساعة، والنفخ في الصور، وبعث الأجساد، وجمع الأوّلين والآخرين في صعيد واحد، ومجازاة كلّ عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، إنّ هذا كلّه: ﴿لواقع﴾، أي: لكائن لا محالة.

قال البغوي[٢]: ثم ذكر متى يقع فقال ﴿فإذا النجوم طمست﴾ محي نورها: ﴿وإذا السماء فرجت﴾ شقّت ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ قلعت من أماكنها ﴿وإذا الرسل أقّتت﴾ جمعت لميقات يوم معلوم. وقال في جامع البيان: ﴿وإذا الرسل أقّتت﴾ جمعت وعيّن لها وقت ينحصرون فيه للشهادة على أممهم ﴿لأيّ يوم أجّلت﴾ قال البغوي: أخّرت، وضرب الأجل لجمعهم؛ تعجّب العباد من ذلك اليوم؛ ثم بيّن فقال: ﴿ليوم الفصل﴾ قال ابن عباس: يوم فصل الرحمن بين الخلائق. **وقال ابن كثير**[٣]: يقول تعالى ﴿لأيّ يوم أجّلت﴾ الرسل وأرجىء أمرها، حتى تقوم الساعة كما قال تعالى ﴿فلا تحسبنّ الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهّار﴾[٤] وهو يوم الفصل، كما قال تعالى: ﴿ليوم الفصل﴾. ثم قال تعالى معظّماً لشأنه ﴿وما أدراك ما يوم الفصل ويل يومئذ للمكذّبين﴾: أي ويل لهم من عذاب الله غداً.

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٥٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٢).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٥٩).

(٤) سورة إبراهيم: الآية ٤٨.

قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: يقول تعالى ﴿ألم نهلك الأوّلين﴾ يعني من المكذّبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ﴿ثم نتبعهم الآخرين﴾: أي ممن أشبههم، ولهذا قال تعالى ﴿كذلك نفعل بالمجرمين ويل يومئذ للمكذّبين﴾.

قال ابن جرير[2]: ثم قال تعالى ممتنّا على خلقه ومحتجّاً على الإعادة بالبداءة ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ قال البغوي[3]: يعني النطفة ﴿فجعلناه في قرار مكين﴾ يعني الرحم ﴿إلى قدر معلوم﴾ وهو وقت الولادة ﴿فقدرنا فنعم القادرون﴾، أي: المقدّرون ﴿ويل يومئذ للمكذبين ألم نجعل الأرض كفاتاً﴾ قال ابن عباس: كنا أحياء وأمواتاً. قال الشعبيّ: بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾ يعني الجبال ﴿وأسقيناكم ماء فراتاً﴾ عذباً ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ قال مقاتل: وهذا كلّه أعجب من البعث الذي تكذّبون به.

قوله عز وجل: ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

---

(١) المصدر السابق (٤/٤٥٩).

(٢) انظر «جامع البيان» (٢٩/٢٣٥).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٠٢).

قال البغوي[١]: ثم أخبر أنه يقال لهم يوم القيامة ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذّبون﴾ في الدنيا ﴿انطلقوا إلى ظلّ ذي ثلاث شعب﴾ يعني دخان جهنّم إذا ارتفع انشعب وافترق ثلاث فرق ﴿لا ظليل﴾ يظلّ من الحرّ ﴿ولا يغني عن اللهب﴾ قال الكلبي: لا يردّ جهنّم عنكم، والمعنى أنهم إذا استظلوا بذلك الظلّ لم يدفع عنهم حرّ اللهب ﴿إنها﴾ يعني جهنّم ﴿ترمي بشرر كالقصر﴾ قال ابن عباس يقول: كالقصر العظيم ﴿كأنه جمالة صفر﴾ قال البغوي: جمع الأصفر، يعني لون النار؛ وقيل: الصفر معناها السواء، لأنه جاء في الحديث: «أن شرر نار جهنم أسود كالقير»[٢]؛ والعرب تسمى سود الإبل صفراً، لأنه يشرب سوادها شيء من صفرة.

﴿ويل يومئذ للمكذّبين هذا يوم لا ينطقون﴾: أي في القيامة لأن فيها مواقف، ففي بعضها يختصمون ويتكلّمون، وفي بعضها يختم على أفواههم فلا ينطقون ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ **قال ابن كثير**[٣]: وعرصات القيامة حالات، والربّ تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة وعن هذه الحالة تارة ليدّل على شدّة الأهوال والزلازل يومئذ، ولهذا يقول بعد كلّ فصل من هذا الكلام ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾.

وقوله تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى لعباده، يقول لهم ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

وقوله تعالى: ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تخلصوا من قبضتي وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون

---

(١) المصدر السابق (٤/٤٠٣).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٦٠).

على ذلك، كما قال تعالى ﴿يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاَّ بسلطان ويل يومئذ للمكذبين﴾[١]. وقال عبد الله بن عمرو: إنا نحدّث يومئذ «أنها تخرج عنق من النار فتنطلق، حتى إذا كانت بين ظهراني الناس نادت: أيها الناس إني بعثت إلى ثلاثة، أنا أعرف منهم من الأب بولده: الذي جعل مع الله إلهاً آخر، وكلّ جبّار عنيد، وكلّ شيطان مريد؛ فتطوى عليهم فتقذف بهم في النار»[٢].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قال ابن كثير[٣]: يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات، أنهم يوم القيامة يكونون في جنّات وعيون، أي: بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظلّ اليحموم، وهو الدخان الأسود المنتن. وقوله ﴿وفواكه مما يشتهون﴾: أي من سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون﴾: أي يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم. ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾: أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾.

قوله عز وجل: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦١) إلى ابن أبي حاتم، وعزاه السيوطي إلى سعيد بن منصور وابن أبي شيبة، وابن المنذر.

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٦١).

قال ابن كثير[(١)]: وقوله تعالى ﴿كلوا وتمتّعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ خطاب للمكذّبين بيوم الدين؛ وأمرهم أمر تهديد ووعيد، فقال تعالى ﴿كلوا وتمتّعوا قليلاً﴾: أي مدّة قليلة قريبة قصيرة ﴿إنكم مجرمون﴾: أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها. ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾ كما قال تعالى ﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾[(٢)] **وقال تعالى**: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون﴾: أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلّين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ويل يومئذ للمكذّبين﴾. ثم قال تعالى: ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾: أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأيّ كلام يؤمنون به؟ كقوله تعالى: ﴿فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾[(٤)]؟ انتهى. آمنا بالله وآياته.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «من قرأ منكم والتين والزيتون فانتهى إلى آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى، وإنا على ذلك من الشاهدين. ومن قرأ ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾ فانتهى إلى ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ فليقل: بلى. ومن قرأ والمرسلات فبلغ ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ فليقل: آمنا بالله»[(٥)]. رواه البغوي وغيره. والله أعلم.

● ● ●

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٦١).

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٤.

(٣) سورة يونس: الآية ٧٠.

(٤) سورة الجاثية: الآية ٦.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٩)، وأبو داود (ح/ ٨٨٧)، والترمذي مختصراً (ح/ ٣٣٤٧)، والبغوي في «شرح السنة» (٣/ ١٠٤)، بسند ضعيف.

الدرس السابع والتسعون بعد المائتين

﴿سورة النبأ﴾

مكية، وهي أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

قال الحسن: «لما بعث النبيّ ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم، فأنزل الله ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ يعني: الخبر العظيم»[(١)]. قال قتادة: وهو البعث بعد الموت. وقال ابن زيد في قوله ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون﴾ قال: يوم القيامة؛ قال قالوا: هذا اليوم الذي تزعمون أنا نحيا فيه وآباؤنا؟ قال: فهم فيه مختلفون لا يؤمنون به، فقال الله ﴿بل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾ يوم القيامة لا يؤمنون به. قال قتادة: فصار الناس فيه فريقين: مصدّق ومكذّب، فأما الموت فقد أقرّوا به لمعاينتهم إياه، واختلفوا في البعث بعد الموت.

﴿كلاّ سيعلمون ثم كلاّ سيعلمون﴾ قال البغوي[(٢)]: ﴿كلاّ﴾ نفي، يقول: هم سيعلمون عاقبة تكذيبهم حين تكشف الأمور ﴿ثم كلاّ سيعلمون﴾ وعيد على أثر وعيد. وقال في جامع البيان ﴿كلاّ﴾ ردع عن هذا التساؤل والاختلاف ﴿سيعلمون ثم كلاّ سيعلمون﴾ تكرير للمبالغة و ﴿ثم﴾ للإشعار بأن الوعيد الثاني أشدّ.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ١) عن الحسن مرسلاً.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٥).

قال ابن كثير[١]: ثم شرع تبارك وتعالى يبيّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾: أي ممهّدة للخلائق ذلولاً لهم قارّة ساكنة ثابتة ﴿والجبال أوتاداً﴾: أي جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبّتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها؛ ثم قال ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى يتمتّع كل منهما بالآخر ويحصل التناسل، كقوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾: أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾: أي يغشى الناس ظلامه وسواده: ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾: أي جعلناه مشرقاً نيّراً مضيئاً، ليتمكّن الناس من التصرّف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسّب.

وقوله تعالى: ﴿وبنينا فوقكم سبعاً شداداً﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها، وإحكامها وإتقانها، وتزينها بالكواكب الثوابت والسيارات، ولهذا قال تعالى ﴿وجعلنا سراجاً وهّاجاً﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم، التي يتوهّج ضوؤها لأهل الأرض كلّها.

وقوله تعالى: ﴿وأنزلنا من المعصرات﴾: أي السحاب، كما قال تعالى ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾. وقوله جلّ وعلا ﴿ماء ثجّاجاً﴾ قال مجاهد: منصبّاً.

وقوله تعالى: ﴿لنخرج به حبّاً ونباتاً وجنّات ألفافاً﴾: أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيّب النافع المبارك حبّاً يدخر للأناسيّ والأنعام ﴿ونباتاً﴾: أي خضراً يؤكل

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٦٢).

(٢) سورة الروم: الآية ٢١.

رطباً ﴿وجنّات﴾: أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوّعة وألوان مختلفة وطعوم وروائح متفاوتة، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً، ولهذا قال ﴿وجنّات ألفافاً﴾ قال ابن عباس وغيره ﴿ألفافاً﴾ مجتمعة، وهذه كقوله تعالى ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأُكُلِ إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

عن قتادة قوله: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً﴾ وهو يوم عظّمه الله يفصل الله فيه بين الأوّلين والآخرين بأعمالهم ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ قال مجاهد: زمراً زمراً ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾ **قال ابن كثير**[2]: أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ﴿وسيّرت الجبال فكانت سراباً﴾: أي يخيّل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء. وكان الحسن إذا تلا هذه الآية ﴿إن جهنّم كانت مرصاداً﴾ قال: ألاّ إن على الباب الرصد، فمن جاء بجواز جاز، ومن لم يجيء بجواز احتبس. وقال قتادة: يعلمنا أنه لا سبيل إلى الجنّة حتى يقطع النار. ﴿للطاغين مآباً﴾: أي نزلاً ومأوى ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ وهو مالا انقطاع له، كلّما مضى

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٦٣).

حقب جاء حقب بعده، وذكر لنا أن الحقب ثمانون سنة من سني الآخرة. وعن الربيع ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلاّ حميماً وغسّاقاً﴾ فاستثنى من الشراب الحميم، ومن البرد الغسّاق. وقال مجاهد: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من برده. وعن أبـي سعيد الخدريّ عن النبـيّ ﷺ قال: «لو أنّ دلواً من غسّاق يهراق إلى الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[١]. رواه ابن جرير.

وعن ابن عباس قوله ﴿جزاء وفاقاً﴾ يقول: وافق أعمالهم. قال قتادة وافق الجزاء أعمال القوم، أعمال السوء: ﴿إنّهم كانوا لا يرجون حساباً﴾ قال ابن زيد لا يؤمنون بالبعث ولا بالحساب. وقال قتادة: لا يخافون حساباً ﴿وكذّبوا بآياتنا كِذّاباً﴾ **قال البغوي**[٢]: ﴿وكذّبوا بآياتنا﴾: أي بما جاء به الأنبياء ﴿كِذّاباً﴾ يعني تكذيباً. ﴿وكلّ شيء أحصيناه كتاباً﴾: أي وكلّ شيء من الأعمال بيّنّاه في اللوح المحفوظ. **وقال ابن كثير**[٣]: أي وقد علمنا أعمال العباد وكتبناها عليهم، وسنجزيهم على ذلك إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ. وعن قتادة ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذاباً﴾ ذكر لنا أن عبد الله بن عمرو كان يقول: ما نزلت على أهل النار آية أشدّ منها ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذاباً﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبداً.

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨ و ٨٣)، والترمذي (ح/ ٢٥٨٤)، وابن جرير (٣٠/ ١٤)، والحاكم (٤/ ٦٠١ و ٦٠٢)، والبغوي (١٥/ ٢٤٥)، قال الترمذي: «هذا حديث نعرفه من حديث رشدين بن سعد، وفي رشدين مقال، وقد تكلم فيه قبل حفظه»، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبـي! قلت: هو من رواية أبـي السمح: دراج عن أبـي الهيثم، وقد حكم غير واحد من الحفاظ بضعف روايته عنه والله أعلم.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٠٨).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٦٤).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ .

عن قتادة ﴿إن للمتّقين مفازاً﴾ إي واللهِ مفازاً من النار إلى الجنّة، ومن عذاب الله إلى رحمته ﴿حدائق وأعناباً وكواعب أتراباً﴾ يعني بذلك النساء أتراباً لسنّ واحدة. وقال ابن جريج: الكواعب النواهد. وقال ابن زيد: هي التي قد نهدت وكعب ثديها ﴿وكأساً دهاقاً﴾ قال: الدهاق المملوءة. وقال ابن عباس: الملأى المتتابعة. وعن قتادة ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا كِذّاباً﴾ قال: باطلاً وإثماً ﴿جزاء من ربّك عطاء حساباً﴾: أي عطاء كثيراً، فجزاهم بالعمل اليسير الخير الجسيم الذي لا انقطاع له.

﴿ربّ السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً﴾: أي كلاماً. قال مقاتل: لا يقدر الخلق على أن يكلّموا الربّ إلاّ بإذنه. ﴿يوم يقوم الروح﴾: أي جبريل عليه السلام ﴿والملائكة صفاً لا يتكلّمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ قال ابن عباس يقول: إلاّ من أذن له الربّ بشهادة أن لا إله إلاّ الله، وهي منتهي الصواب. وعن مجاهد ﴿وقال صواباً﴾ قال: حقّاً في الدنيا وعمل به.

﴿ذلك اليوم الحقّ فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً﴾ **قال البغوي**[1] ﴿ذلك اليوم الحقّ﴾ الكائن الواقع، يعني يوم القيامة ﴿فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآباً﴾ مرجعاً وسبيلاً بطاعته: أي فمن شاء رجع إلى الله بطاعته. ﴿إنا أنذرناكم عذاباً قريباً﴾ يعني العذاب في الآخرة، وكلّ ما هو آت قريب ﴿يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه﴾:

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٠٩).

أي كلّ امرىء يرى في ذلك اليوم ما قدّم من العمل مثبتاً في صحيفته ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ قال عبد الله بن عمرو: «إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم، وحشر الدوابّ والبهائم والوحوش، ثم يجعل القصاص بين البهائم حتى يقتصّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء تنطحها، فإذا فرغ من القصاص قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً»[1].

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/٢٦).

الدرس الثامن والتسعون بعد المائتين

﴿سورة النازعات﴾

مكية، وهي ست[1] وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ

(١) في (الأصل): «ستة»، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وهو الصواب.

ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾.

عن ابن مسعود ﴿والنازعات غرقاً﴾ قال: الملائكة. قال ابن عباس: تنزع الأنفس. **قال البغوي**[١]: يعني الملائكة تنزع أرواح الكفار من أجسادهم، كما يغرق النازع في القوس فيبلغ به غاية المدى. وقال سعيد بن جبير: نزعت أرواحهم ثم غرقت ثم قذف بها في النار. وعن ابن عباس ﴿والناشطات نشطاً﴾ قال: الملائكة حين تنشط نفسه. قال البغوي: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي: تحلّ حلاً رفيقاً، فتقبضها كما ينشط العقال من يد البعير. وقال ابن القيّم: النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والنزع اجتذاب النفس بقوة؛ والناشطات التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفّة؛ والنزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق يختصّ بالكافر.

وعن مجاهد ﴿والسابحات سبحاً﴾ قال: الملائكة ينزلون من السماء مسرعين. وعن مجاهد ﴿فالسابقات سبقاً﴾ قال: الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ﴿فالمدبّرات أمراً﴾ قال ابن عباس: هم الملائكة وكّلوا بأمور عرّفهم الله عز وجل العمل بها. **قال البغوي**[٢]: وجواب هذه الأقسام محذوف على تقدير: لتبعثنّ ولتحاسبنّ. وعن ابن عباس قوله ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ يقول:

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٠).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤١١).

النفخة الأولى، وقوله ﴿تتبعها الرادفة﴾ يقول: النفخة الثانية. قال الحسن: أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحي الموتى، ثم تلا ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلاَّ من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾[١]. وعن قتادة ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ يقول: خائفة، وجفت مما عاينت يومئذ ﴿أبصارها خاشعة﴾ يقول: ذليلة.

وقوله تعالى: ﴿يقولون أئنّا لمردودون في الحافرة أئذا كنّا عظاماً نخرة﴾ **قال البغوي**[٢]: يقولون ــ يعني المنكرين للبعث، إذا قيل لهم: إنكم مبعوثون من بعد الموت ــ؟ ﴿أئنا لمردودون في الحافرة﴾؟ قال ابن عباس يقول: أئنّا لنحيا بعد موتتنا، ونبعث من مكاننا هذا؟ وقال قتادة أي مردودون خلقاً جديداً؟ وقال البغوي: ﴿أئنا لمردودون في الحافرة﴾: أي إلى أول الحال وابتداء الأمر، فنصير أحياء بعد الموت كما كنا؟ تقول العرب: رجع فلان في حافرته: أي رجع من حيث جاء، والحافرة عندهم اسم لابتداء الشيء وأول الشيء. وعن ابن عباس ﴿أئذا كنّا عظاماً نخرة﴾ فالنخرة: الفانية البالية. وعن قتادة ﴿أئذا كنّا عظاماً﴾ تكذيباً بالبعث ناخرة بالية ﴿قالوا تلك إذا كرّة خاسرة﴾: أي رجعة خاسرة. قال ابن زيد: وأيّ كرّة أخسر منها؟ أُحْيُو ثم صاروا إلى النار فكانت كرّة سوء.

﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ قال: الزجرة النفخة في الصور ﴿فإذا هم بالساهرة﴾ قال: ظهر الأرض فوق بطنها. قال قتادة: لما تباعد البعث في أعين القوم قال الله ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾ يقول: فإذا هم على الأرض بعد ما كانوا في جوفها. قال البغوي: والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض: ساهرة، قال بعض أهل اللغة: تراهم سمّوها ساهرة لأن فيها نوم الحيوان وسهرها.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٨.

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤١٢).

قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قال ابن كثير[١] قوله تعالى ﴿هل أتاك حديث موسى﴾: أي هل سمعت بخبره ﴿إذ ناداه ربه﴾: أي كلّمه نداء ﴿بالواد المقدّس﴾: أي المطهّر ﴿طوى﴾ وهو اسم الوادي. قال قتادة: كنا نحدّث أنه قدّس مرتين ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكّى﴾ قال ابن زيد: إلى أن تُسلِمَ؛ قال: والتزكّي في القرآن كلّه الإسلام.

﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ قال البغوي[٢]: أدعوك إلى عبادة ربك وتوحيده، فتخشى عقابه ﴿فأراه الآية الكبرى﴾ قال مجاهد: عصاه ويده ﴿فكذّب وعصى ثم أدبر يسعى﴾ قال مجاهد: يعمل بالفساد ﴿فحشر فنادى﴾ قال ابن زيد: صرخ وحشر قومه فنادى فيهم، فلما اجتمعوا قال ﴿أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ قال قتادة: عقوبة الدنيا والآخرة ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ قال ابن كثير[٣]: أي لمن يتّعظ وينزجر.

قوله عز وجل: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٦٨).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٢).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٦٨).

قال ابن كثير: يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في إعادة الخلق بعد بدئه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿أشدّ خلقاً أم السماء﴾؟ يعني بل السماء أشدّ خلقاً منكم، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾[(١)]. قال البغوي ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء﴾ يعني أخلقكم بعد الموت أشدّ عندكم وفي تقديركم أم السماء؟ وهما في قدرة الله واحد.

قال ابن كثير[(٢)] **وقوله تعالى**: ﴿بناها﴾ فسّره بقوله ﴿رفع سمكها فسوّاها﴾ قال مجاهد: رفع بناءها بغير عمد ﴿وأغطش ليلها﴾ قال ابن عباس: أظلم ليلها ﴿وأخرج ضحاها﴾ قال مجاهد: نورها. ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ قال ابن عباس: وذلك أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السماء، ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات، ثم دحى الأرض بعد ذلك ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها﴾.

قال ابن كثير[(٣)] **وقوله تعالى**: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾: أي دحى الأرض، فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبّت جبالها لتستقرّ بأهلها ويقرّ قرارها، كلّ ذلك متاعاً لخلقه، ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدّة احتياجهم إليها في هذه الدار، إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ

---

(١) سورة غافر: الآية ٥٧.

(٢) المصدر السابق (٤/٤٦٨).

(٣) المصدر السابق (٤/٤٦٩).

ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿فإذا جاءت الطامّة الكبرى﴾ من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره عباده. قال البغوي[1]: والطامّة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ﴿يوم يتذكّر الإنسان ما سعى﴾ ما عمل في الدنيا من خير وشرّ ﴿وبرّزت الجحيم لمن يرى﴾ قال مقاتل: يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ﴿فأما من طغى﴾ قال مجاهد: عصى وآثر الحياة الدنيا ﴿فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ قال مقاتل: هو الرجل يهمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ﴿فإنّ الجنّة هي المأوى﴾.

﴿يسألونك عن الساعة أيّان مرساها﴾ قال البغوي: متى ظهورها وثبوتها ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ لست في شيء من علمها وذكرها: أي لا تعلمها ﴿إلى ربك منتهاها﴾: أي منتهى عملها عند الله ﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾: أي إنما ينفع إنذارك من يخافها ﴿كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاّ عشيّة أو ضحاها﴾ قال قتادة: وقت الدنيا في أعين القوم حين عاينوا الآخرة.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٤).

الدرس التاسع والتسعون بعد المائتين

﴿سورة عبس﴾

مكية، وهي اثنتان[1] وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) في الأصل: «اثنان»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وهو الصواب.

قوله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿عبس وتولّى أن جاءه الأعمى﴾ قال: بينما رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب، وكان يتصدّى لهم كثيراً رجاء أن يؤمنوا، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله ابن أمّ مكتوم يمشي وهو يناجيهم، فجعل عبد الله يستقرىء النبيّ ﷺ آية من القرآن وقال: يا رسول الله علّمني مما علّمك الله، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس في وجهه وتولّى، وكره كلامه وأقبل على الآخرين، فلما قضى رسول الله ﷺ وأخذ ينقلب إلى أهله، أمسك الله بعض بصره ثم خفق برأسه، ثم أنزل الله ﴿عبس وتولّى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعلّه يزّكّى أو يذّكّر فتنفعه الذكرى﴾. فلما نزل فيه أكرمه رسول الله ﷺ وكلّمه وقال له: «ما حاجتك؟ هل تريد من شيء؟» وإذا ذهب من عنده قال له: «هل لك حاجة في شيء؟» وذلك لِمَا أنزل الله ﴿أما من استغنى فأنت له تصدّى وما عليك ألاّ يزّكّى﴾[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٥١) بسند ضعيف جداً. وبنحوه ــ مختصراً ــ من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه الترمذي (ح/ ٣٣٣١) وحسنه، وابن جرير (٣٠/ ٥٠)، وصححه ابن حبان «موارد الظمآن» (ح/ ١٧٦٩)، والحاكم (٢/ ٥١٤)، وقال: «حديث صحيح» على شرط الشيخين ولم يخرجاه، فقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة، قال الذهبي: وهو الصواب، وفي الباب من حديث أنس، وكعب بن عجرة، وأبـي أمامة رضي الله عنهم.

قال ابن زيد: كان يقال: لو أن رسول الله ﷺ كتم من الوحي شيئاً كتم هذا عن نفسه؛ قال: وكان يتصدّق كهذا الشريف في جاهليّته رجاء أن يسلم، وكان عن هذا يتلهّى.

قال البغوي[١]: ﴿عبس﴾ كلح ﴿وتولى﴾ أعرض بوجهه ﴿أن جاءه الأعمى﴾ وهو ابن أمّ مكتوم ﴿وما يدريك لعلّه يزّكّى﴾ يتطهّر من الذنوب بالعمل الصالح وما يتعلّمه منك ﴿أو يذّكّر﴾ يتّعظ ﴿فتنفعه الذكرى﴾. ﴿أما من استغنى﴾ قال ابن عباس: عن الله وعن الإيمان بمالهُ من المال ﴿فأنتَ له تصدّى﴾ تتعرّض له وتقبل وتصغي إلى كلامه ﴿وما عليك ألاّ يزّكّى﴾ أن لا يؤمن ويهتدي، إن عليك إلاّ البلاغ. ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ يمشي يعني ابن أمّ مكتوم ﴿وهو يخشى﴾ الله عز وجل ﴿فأنت عنه تلهّى﴾ تتشاغل وتعرض عنه. ﴿كلاّ﴾ زجر: أي لا تفعل بعدها مثلها ﴿إنها﴾ يعني هذه الموعظة؛ وقال مقاتل: آيات القرآن ﴿تذكرة﴾ موعظة وتذكير للخلق ﴿فمن شاء﴾ من عباد الله ﴿ذكره﴾: أي اتّعظ به. ثم أخبر عن جلالته عنده فقال ﴿في صحف مكرّمة﴾ يعني اللوح المحفوظ ﴿مرفوعة مطهّرة﴾ لا يمسّها إلاّ المطهّرون ﴿بأيدي سفرة﴾ قال ابن عباس: هم الملائكة ﴿كرام بررة﴾ قال البغوي[٢]: أي كرام على الله بررة مطيعين. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه وهو عليه شاقّ له أجران»[٣]. رواه الجماعة.

قوله عز وجل: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (ح/ ٤١٥).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤١٦).

(٣) سبق تخريجه.

شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضۡبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونًا وَنَخۡلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾﴾.

قال مجاهد: ما كان في القرآن: قتل الإنسان أو فعل بالإنسان، فإنما عني به الكافر. **قال البغوي**[1]: ﴿ما أكفره﴾ ما أشدّ كفره بالله مع كثرة إحسانه إليه وأياديه عنده، على طريق التعجّب. قال الزجاج معناه اعجبوا أنتم من كفره. وقال الكلبيّ ومقاتل: هو «ما» الاستفهام يعني أيّ شيء حمله على الكفر؟ ثم بيّن من أمره ما كان ينبغي معه أن يعلم أن الله خلقه فقال ﴿من أيّ شيء خلقه﴾.

وقال ابن كثير[2]: ثم بيّن تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه فقال تعالى ﴿من أيّ شيء خلقه من نطفة خلقه فقدّره﴾ **قال البغوي**[3]: أطواراً: من نطفة ثم علقة إلى آخر خلقه ﴿ثم السبيل يسّره﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك خروجه من بطن أمّه، يسّره له. وقال مجاهد هو كقوله: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾[4].

﴿ثم أماته فأقبره﴾ قال البغوي: جعل له قبراً يوارى فيه ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ أحياه بعد موته ﴿كلاّ لما يقض ما أمره﴾ قال البغوي ﴿كلاّ﴾ ردّ عليه: أي ليس كما يقول ويظنّ هذا الكافر. وقال الحسن: حقّاً ﴿لما يقض ما أمره﴾: أي لم يفعل ما أمره به ربه، ولما يؤدّ ما فرض عليه. ولما ذكر خلق ابن آدم ذكر رزقه ليعتبر فقال ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه﴾ كيف قدّره ربه ودبّره له وجعله سبباً لحياته. وقال مجاهد: إلى مدخله ومخرجه. ثم بيّن فقال ﴿أنّا صببنا الماء صبّاً﴾ يعني المطر ﴿ثم شققنا الأرض شقّاً﴾ بالنبات ﴿فأنبتنا فيها حبّاً﴾: أي الحبوب التي يتغذّى بها

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٤١٦ ـ ٤١٧).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٧).

(٤) سورة الإنسان: الآية ٣.

﴿وعنباً وقضباً﴾ وهو القتّ الرطب، سمّي بذلك لأنه يقضب في كلّ أيام: أي يقطع. ﴿وزيتوناً﴾ وهو ما يعصر منه الزيت ﴿ونخلاً وحدائق﴾ بساتين ﴿غلباً﴾ غلاظ الأشجار. وقال مجاهد: الغلب الشجر الملتّف بعضه في بعض.

﴿وفاكهة﴾ يريد ألوان الفاكهة. ﴿وأبّاً﴾ يعني الكلأ والمرعى الذي لم يزرعه الناس. قال قتادة: الفاكهة لكم، والأبّ لأنعامكم. وعن إبراهيم التيميّ قال: سئل أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه عن قوله تعالى ﴿وفاكهة وأبّاً﴾ فقال: «أيّ سماء تظلّني، وأيّ أرض تقلّني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟»[1] وعن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿عبس وتولّى﴾ فلما أتى على هذه الآية ﴿وفاكهة وأبّاً﴾ قال: «قد عرفنا الفاكهة فما الأبّ؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب، إنّ هذا لهو التكلّف»[2]؛ قال ابن كثير[3]: وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلاّ فهو وكلّ من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله ﴿فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبّاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾: أي عشية لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو عبيد كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٧٣)، وقال ابن كثير عن إسناده: إنه منقطع.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٥٩)، وقال ابن كثير عن إسناده: أنه صحيح.

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٧٣).

عن ابن عباس في قوله: ﴿فإذا جاءت الصاخّة﴾ قال: «هذا من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره عباده»[١]. قال البغوي[٢]: ﴿فإذا جاءت الصاخّة﴾ يعني صيحة القيامة، سمّيت بذلك لأنها تصخّ الأسماع: أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمّها ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ لا يلتفت إلى واحد منهم لشغله بنفسه. وقال عكرمة: يلقي الرجل زوجته فيقول: يا هذه أيُّ بعل كنت لك؟ فتقول: نعم البعل، وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإنّي أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبيها لي لعلّي أنجو مما ترين، فنقول له: ما أيسر ما طلبت، ولكنّي لا أطيق أن أعطيك شيئاً، أتخوّف مثل الذي تحاف. قال: وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلّق به فيقول: يا بنيّ: أيُّ والد كنت لك؟ فيثني بخير فيقول له: يا بنيّ إنّي احتجت إلى مثقال ذرّة من حسناتك لعلّي أنجو بها مما ترى، فيقول ولده: يا أبت ما أيسر ما طلبت، ولكنّي أتخوّف مثل الذي تخوّف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً؛ يقول الله تعالى ﴿يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾. وعن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»، فقالت: يا رسول الله فكيف بالعورات؟ فقال: ﴿لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾»[٣]. رواه النسائي. وقال ابن زيد في قول الله ﴿لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه قال: شأن قد شغله عن صاحبه.

﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة﴾ قال: هؤلاء أهل الجنّة: ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة﴾ قال: هذه وجوه أهل النار؛ قال: والقترة من الغبرة وهما واحد، فأما في الدنيا فإن القترة ما ارتفع فحلق بالسماء رفعته الريح، تسمّيه

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٦١)، وفيه انقطاع.

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤١٨).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٥٠٧)، والحاكم (٤/ ٥٦٤) وصححه، وسكت عليه الذهبي؛ وهو حديث صحيح. وبنحوه أخرجه البخاري (ح/ ٦٥٢٧)، ومسلم (ح/ ٢٨٥٩).

العرب: القترة؛ وما كان أسفل في الأرض فهو الغبرة. وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «يلجم الكافرَ العرقُ، ثم تقع الغبرة على وجوههم ــ قال ــ فهو قوله ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ »[1]. وقال ابن عباس ﴿ترهقها قترة﴾: أي يغشاها سواد الوجوه.

وقال البغوي[2]: ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ مشرقة مضيئة. ﴿ضاحكة﴾ بالسرور ﴿مستبشرة﴾ فرحة بما نالت من كرامة الله عز وجل. ﴿ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ سواد وكآبة مما يشاهدون من الغمّ والهمّ ﴿ترهقها قترة﴾ تعلوها وتغشاها ظلمة وكسوف: ﴿أولئك﴾ الذين يصنع بهم هذا ﴿هم الكفرة الفجرة﴾.

● ● ●

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٤/٤٧٤)، عن علي بن الحسين مرسلاً.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٨).

الدرس الثلاثمائة

﴿سورة التكوير﴾

مكية، وهي تسع[١] وعشرون آية

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين، فليقرأ إذا الشمس كوّرت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقّت»[٢]. رواه أحمد وغيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾

---

(١) في (الأصل) «تسعة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف رحمه الله.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧ و ٣٦ و ١٠٠)، والترمذي (ح/ ٣٣٣٣) وحسنه، والحاكم (٤/ ٥٧٦) بتمامه و (٢/ ٥١٥) مختصراً، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي.

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

* * *

قوله عز وجل: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾.

عن أبـي العالية قال: قال أبـيّ بن كعب: «ستّ آيات قبل يوم القيامة، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحرّكت واضطربت واحترقت، وفزعت الجنّ إلى الإنس والإنس إلى الجنّ، واختلطت الدوابّ والطير والوحش، وماجُوا بعضهم في بعض. ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال: اختلطت ﴿وإذا العشار عطّلت﴾ قال أهملها أهلها. ﴿وإذا البحار سجّرت﴾ قال: قالت الجنّ للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجّج، قال فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم»[1].

وعن ابن عباس. ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ يقول: أظلمت. قال قتادة: ذهب ضوءها فلا ضوء لها. وقال الزجاج: لفّت كما تلفّ العمامة ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ **قال البغوي**[2]: أي تناثرت من السماء وتساقطت على الأرض ﴿وإذا

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/٤١٩).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤١٩).

الجبال سيّرت﴾ قال ابن جرير: سيّرها الله فكانت سراباً وهباء منبثّاً ﴿وإذا العشار عطّلت﴾ قال الحسن: سيّبها أهلها فلم تصر ولم تحلب، ولم يكن في الدنيا مالٌ أعجب إليهم منها ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ قال ابن عباس: حشر البهائم موتها ﴿وإذا البحار سجّرت﴾ قال ابن عباس: كوّر الله الشمس والقمر والنجوم في البحر، فبعث عليها ريحاً دبوراً فنفخه حتى يصير ناراً، فذلك قوله ﴿وإذا البحار سجّرت﴾. ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾ قال عمر بن الخطاب: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان به الجنّة أو النار، وقرأ ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾[1] قال: ضرباءهم. وقال مجاهد: الأمثال من الناس جمع بينهم. وقال قتادة: لحق كلّ إنسان بشيعته. وقال الشعبيّ: زوّجت الأرواح الأجساد. وعن أبي العالية في قوله ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ قال: سيأتي أولها والناس ينظرون وسيأتي آخرها ﴿إذا النفوس زوّجت﴾.

وعن قتادة ﴿وإذا الموؤودة سئلت﴾ هي في بعض القراءة: سألت ﴿بأيّ ذنب قتلت﴾ لا بذنب؛ كان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه، فعاب الله ذلك عليهم. **قال البغوي**[2]: ومعناه تسأل الموؤودة فيقال لها: بأيّ ذنب قتلت؟ ومعنى سؤالها توبيخ قاتلها، لأنها تقول: قتلت بغير ذنب. ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ قال قتادة: صحفك يا ابن آدم تملي ما فيها ثم تطوى، ثم تنشر عليك يوم القيامة. ﴿وإذا السماء كشطت﴾ قال السدي: كشفت. وقال الفرّاء: نزعت فطويت. وعن قتادة. ﴿وإذا الجحيم سعّرت﴾ سعّرها غضب الله وخطايا بني آدم.

﴿وإذا الجنّة أزلفت﴾ **قال ابن جرير**[3]: قرّبت وأدنيت. ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ قال قتادة: من عمل. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: لما نزلت ﴿إذا

---

(١) سورة الصافات: الآية ٢٢.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤١٩).

(٣) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ٧٣).

الشمس كوّرت﴾ قال عمر لمّا بلغ ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾: لهذا جرى الحديث. قال البغوي: وهذا جواب قوله ﴿إذا الشمس كوّرت﴾ وما بعدها.

قوله عز وجل: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

عن قتادة قوله ﴿فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس﴾ قال: هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار. وقال: الخنّس هي النجوم تخنس بالنهار، و ﴿الجوار الكنّس﴾ سيرهنّ إذا غبن. وقال ابن زيد: الخنس إنها تخنس: تتأخّر عن مطلعها، هي تتأخّر كلّ عام، لها في كلّ عام تأخّر عن تعجيل ذلك الطلوع تخنس عنه. والكنّس تكنس بالنهار فلا ترى. قال: والجواري تجري بعد؛ فهذا ﴿الخنّس الجوار الكنّس﴾.

قال ابن القيّم[١]: «أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة: من طلوعها وجريانها وغروبها». وعن ابن عباس قوله ﴿والليل إذا عسعس﴾ يقول: إذا أدبر. وقال الحسن يقول: أقبل بظلامه، ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿والليل إذا يغشى﴾[٢] ورجّحه ابن كثير[٣]. ﴿والصبح إذا تنفّس﴾ قال قتادة: إذا أضاء وأقبل ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ يعني جبريل. قال ابن كثير: يعني أن هذا القرآن لتبليغ ﴿رسول

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ١٢٠).

(٢) سورة الليل: الآية ١.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٧٩).

كريم﴾: أي ملك شريف ﴿ذي قوّة﴾ كقوله تعالى ﴿علّمه شديد القوى ذو مِرّة﴾: أي شديد الخلق شديد البطش والفعل ﴿عند ذي العرش مكين﴾: أي له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة ﴿مطاع ثَمّ﴾: أي له وجاهة وهو مسموع القول في الملأ الأعلى ﴿أمين﴾ **قال البغوي**[1]: على وحي الله ورسالته إلى أنبيائه. ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ يقول لأهل مكة ﴿وما صاحبكم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿بمجنون ولقد رآه﴾ يعني رأى النبيّ ﷺ جبريل عليه السلام على صورته ﴿بالأفق المبين﴾ وهو الأفق الأعلى من ناحية المشرق؛ قاله مجاهد وقتادة.

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى ﴿وما هو على الغيب بظنين﴾: أي وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين: أي بمتّهم؛ ومنهم من قرأ ذلك بالضاد: أي ببخيل، بل يبذله لكلّ أحد. قال قتادة: كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد، فما ضنّ به على الناس بل نشره وبلّغه وبذله لكلّ من أراده. ﴿وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون﴾ يقول: فأين تعدلون عن كتابي وطاعتي ﴿إن هو إلاّ ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ قال مجاهد: يتّبع الحقّ ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ربّ العالمين﴾ **قال البغوي**[3]: أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلاّ بمشيئة الله، وفيه إعلام أنّ أحداً لا يعمل خيراً إلاّ بتوفيق الله، ولا ضرّاً إلاّ بخذلانه.

• • •

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٢١ ــ ٤٢٢).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٢٣).

﴿سورة الانفطار﴾

وهي تسع عشرة[1] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

* * *

(١) في (الأصل): «تسعة عشر آية»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

قوله عز وجل: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢﴾.

قال البغوي(١): ﴿إذا السماء انفطرت﴾ انشقّت ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾ تساقطت. ﴿وإذا البحار فجّرت﴾ فجّر بعضها في بعض، واختلط العذب بالمالح فصارت بحراً واحداً. ﴿وإذا القبور بعثرت﴾ قال ابن عباس: بحثت(٢). ﴿علمت نفس ما قدّمت وأخّرت﴾ قال القرظي ﴿ما قدّمت﴾ ما علمت، وأمّا ما ﴿أخّرت﴾ فالسنّة يسنّها الرجل يعمل بها من بعده ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾ قال قتادة: شيء ما غرّ ابن آدم، هذا العدوّ الشيطان. سمع عمر رجلاً يقرأ ﴿يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم﴾؟ فقال عمر: الجهل.

وقوله تعالى: ﴿الذي خلقك فسوّاك فعدلك﴾ روى الإمام أحمد عن بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفّه، فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢٤).

(٢) في (الأصل): «بحشت»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

إذا بلغت التراقي قلت: أتصدّق؛ وأنّي أوان الصدقة»؟[١] وعن مجاهد في قول الله ﴿في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾ قال: في أيّ شبه أب أو أم أو عم أو خال ﴿كلاّ بل تكذّبون بالدين﴾ قال: بالحساب.

﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم عن التعرّي، فاستحيوا عن التعرّي، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلاَّ عند إحدى ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه، أو بجرم حائط، أو ببعيره»[٢]. رواه البزار. وفي رواية ابن أبي حاتم: «أو ليستره أخوه»[٣].

قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

قال البغوي[٤]: قوله عز وجل: ﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ الأبرار: الذين برّوا وصدقوا في إيمانهم، بأداء فرائض الله عز وجل واجتناب معاصيه. ﴿وإنّ الفجّار لفي جحيم﴾ روي أن سليمان بن عبد الملك قال لأبـي حازم: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ قال: أعرض عملك على كتاب الله، فإنك تعلم مالك عند الله. قال: فأين أجده في كتاب الله؟ فقال: عنده قوله ﴿إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجّار لفي

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (ح/ ٢٧٠٧) وصححه بعضهم إسناده.

(٢) أخرجه البزار، كما في «مختصر زوائد البزار» (ح/ ٢٠٥) وقال: «لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلاَّ من هذا الوجه، وحفص لين الحديث»، قلت وسنده ضعيف جداً

(٣) أخرجه ابن أبـي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٨٢) عن مجاهد مرسلاً

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٢٥).

جحيم﴾ قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين.

قوله عز وجل: ﴿يصلونها﴾ يدخلونها ﴿يوم الدين﴾ يوم القيامة ﴿وما هم عنها بغائبين﴾؛ ثم عظّم ذلك اليوم فقال: ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾؛ ثم كرّر تفخيماً لشأنه فقال: ﴿ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ قال قتادة: والأمر واللهِ اليوم لله، ولكنّه يومئذ لا ينازعه أحد؛ ليس ثَمّ أحد يومئذٍ يقضي شيئاً ولا يصنع إلاَّ ربّ العالمين؛ **قال ابن كثير**[1]: ولهذا قال ﴿والأمر يومئذ لله﴾، كقوله ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار﴾[2].

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٣).

(٢) سورة غافر: الآية ١٦.

الدرس الواحد بعد الثلاثمائة

﴿سورة المطففين﴾

مكية، وهي ست[١] وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا

(١) في (الأصل): «ستة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾.

عن هلال بن طلق قال: بينما أنا أسير مع ابن عمر فقلت: مِنْ أحسن الناس هيئة وأوفاهم كيلا، أهل مكة وأهل المدينة؛ قال: حقّ لهم، أما سمعت الله تعالى يقول ﴿ويل للمطفّفين﴾. وعن ابن عباس قال: «لما قدم النبيّ ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى ﴿ويل للمطفّفين﴾ فحسّنوا الكيل بعد ذلك»[1]. وعن ابن عمر أنه قال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، إن أهل المدينة ليوفون الكيل، قال: وما يمنعهم أن يوفوا الكيل، وقد قال الله تعالى ﴿ويل للمطفّفين﴾ حتى بلغ ﴿يوم يقوم الناس لربّ العالمين﴾؟ وعن عكرمة قال: أشهد أن كلّ كيّال ووزّان في النار، فقيل له في ذلك فقال: إنه ليس منهم أحد يزن كما يتّزن، ولا يكيل كما يكتال، وقد قال الله ﴿ويل للمطفّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾. قال الزجاج: المعنى إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل.

﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾؛ **قال البغوي**[2]: أي كالوا لهم ووزنوا لهم ﴿يخسرون﴾: أي ينقصون، ﴿ألاّ يظنّ أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لربّ العالمين﴾؟ وعن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قال: «يقوم الناس لربّ

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/٥٠٨)، وابن ماجه (ح/٢٢٢٣)، وابن جرير (٣٠/٩١)، والطبراني (١١/٣٧١)، والحاكم (٢/٣٣)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢٧).

العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[١]. متفق عليه. وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرّها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، فمنهم من يبلغ إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق»[٢]. رواه أحمد. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لبشير الغفاريّ: «كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه لربّ العالمين مقدار ثلاثمائة سنة من أيام الدنيا، لا يأتيهم خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر؟» قال بشير: المستعان الله يا رسول الله. قال: «إذا أنت أويت إلى فراشك فتعوّذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب»[٣]. رواه ابن جرير.

قوله عز وجل ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

عن قتادة قوله ﴿إن كتاب الفجّار لفي سجّين﴾ ذكر أن عبد الله بن عمر كان يقول: هي الأرض السفلى، فيها أوراح الكفار، وأعمالهم أعمال السوء. **وقال ابن**

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٦٥٤١)، ومسلم (ح/ ٢٨٦٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٤)، والطبراني (٨/ ٢٢٢) بسند حسن، وله شاهد من حديث المقداد بن عمر رضي الله عنه: أخرجه مسلم (ح/ ٢٨٦٤) بنحوه، وشاهد من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: أخرجه الحاكم (٤/ ٥٧١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٩٣) بسند ضعيف.

كثير[١] **يقول تعالى**: حقاً إن كتاب الكفّار ﴿لفي سجّين﴾: أي أن مصيرهم ومأواهم لفي سجين، مأخوذ من السجن وهو الضيق ولهذا عظّم أمره فقال تعالى ﴿وما أدراك ما سجّين﴾: أي هو أمر عظيم وسجن مقيم وعذاب أليم. انتهى ملخصاً. وقال الزجاج في قوله ﴿وما أدراك ما سجّين﴾: أي ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك.

﴿كتاب مرقوم﴾ **قال البغوي**[٢]: ليس هذا تفسير السجين، بل هو بيان الكتاب المذكور في قوله ﴿إن كتاب الفجّار﴾ قال قتادة: رقم لهم بشرّ. ﴿ويل يومئذ للمكذّبين الذين يكذّبون بيوم الدين وما يكذّب به إلاّ كلّ معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين﴾ **قال ابن كثير**[٣]: أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا أن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله، ووحيه، وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به، ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا، ولهذا قال تعالى ﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾». وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقل منها، فإن عاد عادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران الذي قال الله ﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»[٤]. رواه ابن جرير. وعن قتادة قوله ﴿كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ أعمال السوء: أي والله ذنب على ذنب وذنب على ذنب حتى مات قلبه واسودّ. وقال ابن

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٤).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٢٩).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي (ح/ ٣٣٣٤)، وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٦/ ٥٠٩)، وابن ماجه (ح/ ٤٢٤٤)، وابن جرير (٣٠/ ٩٨)، والحاكم (٢/ ٥١٧)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. قلت: ومداره على محمد بن عجلان، وهو صدوق، وقد اختلطت عليه أحاديث أبي هريرة، فهو حديث حسن

زيد: غلب على قلوبهم ذنوبهم فلا يخلص إليها معها خير. وعن قتادة ﴿كلاّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾ هو لا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾. وقال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته. وقال الإمام مالك: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلّى لأوليائه حتى رأوه[١].

قال البغوي[٢]: ثم أخبر أن الكفار مع كونهم محجوبين عن الله يدخلون النار فقال ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا﴾: أي هذا العذاب ﴿الذي كنتم به تكذّبون﴾.

قوله عز وجل ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

عن قتادة قوله ﴿إن كتاب الأبرار لفي علّيين﴾ قال: علّيون فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى، وقال ابن عباس: أعمالهم في كتاب عند الله في السماء. وقال كعب الأحبار: إن الروح المؤمنة إذا قبضت صعد بها، ففتحت لها أبواب السماء وتلقّتها الملائكة بالبشرى، ثم عرجوا معها حتى ينتهوا إلى العرش، فيخرج لها من عند العرش رَقّ فيرقم ثم يختم بمعرفتها النجاة بحساب يوم القيامة، وتشهد الملائكة المقرّبون.

---

(١) وبمفهوم هذه الآية، استدل أهل السنة ــ رحمهم الله ــ على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل يوم القيامة كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وقوله ﷺ: «أنكم سترون ربكم لا تضامون في رؤيته كما ترون...» وأحاديث كثيرة.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٢٩).

وقال البغوي[١]: ﴿إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون﴾ إلى ما أعطاهم الله من الكرامة والنعمة ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ قال الحسن: النضرة في الوجه، والسرور في القلب. ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ قال ابن عباس: يعني بالرحيق الخمر، طيّب الله لهم الخمر فكان آخر شيء جعل فيها حتى تختم بمسك. وعن قتادة ﴿ختامه مسك﴾ قال: عاقبته مسك يمزج لهم بالكافور ويختم بالمسك. ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ قال عطاء: فليستبق المستبقون. وعن ابن عباس قوله ﴿ومزاجه من تسنيم عيناً يشرب بها المقرّبون﴾ صرفاً، ويمزج فيها لمن دونهم. وعن الحسن في قوله ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ قال: خفايا أخفاها الله لأهل الجنّة. وقال ابن عباس: هذا مما قال الله تعالى ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾[٢].

قوله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

عن قتادة قوله ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ في الدين، يقولون: والله إن هؤلاء لكذبة وما هم على شيء، استهزاء بهم ﴿وإذا مرّوا بهم يتغامزون﴾ **قال ابن جرير**[٣]: يقول: كان بعضهم يغمز بعضاً بالمؤمن استهزاء به وسخرية ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ قال ابن عباس: معجبين ﴿وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون﴾ **قال ابن كثير**[٤]: أي لكونهم على غير دينهم، قال

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٣٠).

(٢) سورة السجدة: الآية ١٧.

(٣) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ١١٠).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٧).

الله تعالى ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ **قال ابن جرير**[1]: يقول تعالى ذكره: وما بعث هؤلاء الكفار القائلون للمؤمنين ﴿إن هؤلاء لضالّون﴾ حافظين عليهم بأعمالهم، يقول: إنما كُلّفوا الإيمان بالله والعمل بطاعته، ولم يُجعلوا رقباء على غيرهم يحفظون عليهم أعمالهم وينتقدونها.

وعن ابن عباس قوله ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفّار يضحكون على الأرائك ينظرون﴾ قال: يعني السرر المرفوعة عليها الحجال. وكان ابن عباس يقول: «إن السور الذي بين الجنّة والنار يفتح لهم فيه أبواب، فينظر المؤمنون إلى أهل النار، والمؤمنون على السور ينظرون كيف يعذّبون فيضحكون منهم»[2]، فيكون ذلك مما أقرّ به أعينهم كيف ينتقم الله منهم.

وعن مجاهد ﴿هل ثوّب الكفّار﴾؟ قال: جزي. وعن سفيان ﴿هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ حين كانوا يسخرون؟ **قال البغوي**[3]: ومعنى الاستفهام ههنا التقرير. وقال ابن كثير وقوله تعالى ﴿هل ثوّب الكفار ما كانوا يفعلون﴾؟: أي هل جوزي الكفّار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمّه وأكمله.

• • •

(١) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ١١٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ١١١) بسند ضعيف.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٣٢).

﴿سـورة الانشـقـاق﴾

مكية، وهي خمس[1] وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ۝٢٥﴾ .

* * *

(١) في (الأصل): «خمسة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

قوله عز وجل ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ ﴾.

عن أبي رافع قال: صلّيت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿إذا السماء انشقّت﴾ فسجد فقلت له، فقال: «سجدت خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه»[1]. متفق عليه.

قال البغوي[2]: ﴿إذا السماء انشقّت﴾ انشقاقها من علامات القيامة ﴿وأذنت لربّها﴾: أي سمعت أمر ربها بالانشقاق وأطاعته، من الإذن: وهو الاستماع: ﴿وحقّت﴾: أي وحقّ لها أن تطيع ربها ﴿وإذا الأرض مدّت﴾ مدّ الأديم وزيد في سعتها ﴿وألقت ما فيها وتخلّت﴾ قال مجاهد: أخرجت ما فيها من الموتى؛ وقال قتادة: أخرجت أثقالها وما فيها ﴿وأذنت لربّها وحقّت﴾.

﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه﴾ قال قتادة: إن كدحك يا ابن آدم لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه في طاعة الله فليفعل، ولا قوّة إلاّ بالله. وقال ابن زيد ﴿كدحاً﴾ العمل ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب

(١) أخرجه البخاري (ح/٧٦٨)، ومسلم (١/ ٤٠٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٣٣).

حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نوقش الحساب عذّب»، فقلت: يا رسول الله أفليس قال الله ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾؟ قال: «ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذّب»[1]. متفق عليه، وعن قتادة ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ قال: إلى أهل أعدّ الله لهم في الجنّة.

وعن مجاهد قوله ﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾ قال: يجعل يده من وراء ظهره ﴿فسوف يدعو ثبوراً ويصلى سعيراً﴾ **قال ابن جرير**[2]: وقوله ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: واثبوراه واويلاه ﴿إنه كان في أهله مسروراً﴾ قال قتادة: أي في الدنيا ﴿إنه ظنّ أن لن يحور﴾ أن لن ينقلب، يقول: أن لن يبعث. **قال البغوي**[3]: ثم قال ﴿بلى﴾، أي: ليس كما ظنّ، بل يحور إلينا ويبعث: ﴿إن ربه كان به بصيراً﴾ من يوم خلقه إلى أن بعثه.

قوله عز وجل ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾ ﴾.

عن ابن عباس ﴿فلا أقسم بالشفق﴾ قال: هو الحمرة التي تبقى في الأفق بعد غروب الشمس. ﴿والليل وما وسق﴾ وما جمع. ﴿والقمر إذا اتسق﴾ يقول: إذا استوى. ﴿لتركبنّ طبقاً عن طبق﴾ يقول: حالاً بعد حال. قال ابن زيد: الآخرة بعد

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩٣٩ و ٦٥٣٦)، ومسلم (ح/٢٨٧٦).

(٢) انظر «جامع البيان» (٣٠/١١٧).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٣٤).

الأولى: ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ قال: بهذا الحديث وبهذا الأمر. ﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون بل الذين كفروا يكذّبون والله أعلم بما يوعون﴾ قال مجاهد: يكتمون ﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾ **قال ابن كثير**(١): أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعدّ لهم عذاباً أليماً.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا استثناء منقطع، يعني: لكن ﴿الذين آمنوا﴾: أي بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾: أي بجوارحهم ﴿لهم أجر﴾: أي في الدار الآخرة ﴿غير ممنون﴾ **قال البغوي**(٢): غير مقطوع ولا منقوص.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٩١).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٣٥).

الدرس الثاني بعد الثلاثمائة

﴿سـورة البروج﴾

مكية، وهي اثنتان وعشرون آية

عن أبـي هريرة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق»(١). رواه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٧) بسند ضعيف جداً.

قوله عز وجل ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

عن مجاهد ﴿والسماء ذات البروج﴾ قال: النجوم. وقال ابن جرير[1]: ذات منازل الشمس والقمر وقال ابن عباس: قصور في السماء. ﴿واليوم الموعود﴾ قال قتادة: يعني يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال ابن عباس: «الشاهد محمد، والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ ﴿ذلك يوم مجموع له لناس وذلك يوم مشهود﴾»[2]. وقال مجاهد: الشاهد ابن آدم، والمشهود يوم القيامة. وعن ابن عباس في قوله ﴿وشاهد﴾ يقول: الله ﴿ومشهود﴾ يقول: يوم القيامة. وقال وابن عمرو بن الزبير: الشاهد يوم الذبح، والمشهود يوم الجمعة. وعن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: الشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة، والموعود يوم القيامة. وروى مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: « ﴿واليوم الموعود﴾ يوم القيامة ﴿وشاهد﴾ يوم الجمعة، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلاّ

(١) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ١٢٧).

(٢) سورة النساء: الآية ٤١.

أعطاه إياه، ولا يستعيذ فيها من شرّ إلاَّ أعاذه، ﴿ومشهود﴾ يوم عرفة»[١]. وعن أبـي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا عليّ الصلاة يوم الجمعة، فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة»[٢]. رواه ابن جرير.

قال ابن القيّم[٣]: (فالشاهد هو المطّلِع والرقيب والمخبِر، والمشهود هو المطّلَع عليه المخبَر به المشاهَد، **إلى أن قال**: فكلّ ما وقع عليه اسم: شاهد ومشهود، فهو داخل في هذا القسم، فلا وجه لتخصيص بعض الأنواع أو الأعيان إلاَّ على سبيل التمثيل).

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إنّي كبر سنّي وحضر أجلي، فادفع إليّ غلاماً لأعلّمه السحر، فدفع إليه غلاماً كان يعلّمه السحر؛ وكان الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر. قال: فبينما هو ذات يوم، إذ أتى على دابّة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر؛ فأخذ حجراً فقال: اللهمّ إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل

---

(١) أخرجه الترمذي (ح/ ٣٣٣٩)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة يُضعف في الحديث»، وابن جرير (٣٠/ ١٢٩)، والبيهقي في سننه (٣/ ١٧٠) بسند ضعيف. وروي موقوفاً عن أبي هريرة: أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٩)، وصححه ووافقه الذهبي، ومن طريقه البيهقي في سننه (٣/ ١٧٠)، وفي الباب من حديث أبـي مالك الأشعري وجبير بن مطعم رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ١٣١) بسند ضعيف.

(٣) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٩٦).

هذه الدابّة حتى يجوز الناس، ورماها فقتلها ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك فقال: أي بنيّ أنت أفضل منّي وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ.

فكان الغلام يبرىء الأكمة والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحداً، وإنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربّـي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربّـي وربّك الله، قال: أولك ربّ غيري؟ قال: نعم، ربّـي وربّك الله، فلم يزل يعذّبه حتى دلّ على الغلام فبعث إليه فقال: أي بنيّ بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل، قال: أنا؟ قال: لا، قال: أولك ربّ غيري؟ قال: ربّـي وربّك الله، فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دلّ على الراهب؛ فأتي بالراهب فقال: ارجع عن دينك فأبـى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقّاه؛ وقال لأعمى: ارجع عن دينك فأبـى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقّاه إلى الأرض؛ وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبـى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلاَّ فدهدهوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهمّ اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمّس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى.

فبعث به مع نفر في قرقور فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلاَّ فغرّقوه في البحر، فلججوا به البحر فقال الغلام: اللهمّ اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون؛ وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى؛ ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلاَّ فإنك لا تستطيع قتلي؛ قال: وما هو؟ قال:

تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: بسم الله ربّ الغلام، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه، وقال: بسم الله ربّ الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات. فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام، فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلّهم. فأمر بأفواه السكك فخدّت فيها الأخاديد وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلاّ فأقحموه فيها. قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبيّ: اصبري يا أماه فإنك على الحقّ»[1]. رواه أحمد وغيره.

وعن ابن عباس ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ حرّقوا المؤمنين والمؤمنات ﴿ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنّم ولهم عذاب الحريق﴾ **قال ابن كثير**[2]: وذلك أن الجزاء من جنس العمل. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾.

قوله عز وجل ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾.

قال البغوي[3]: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ قال ابن عباس: إنّ أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد. ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾: أي يخلقهم أوّلاً في الدنيا ثم

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٧ ــ ١٨)، وبنحوه مسلم (ح/ ٣٠٠٥).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٩٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٤٠).

يعيدهم أحياء بعد الموت، ﴿وهو الغفور الودود﴾ قال ابن عباس يقول: الحبيب ﴿ذو العرش المجيد﴾ قال البغوي: قرأ حمزة والكسائي: المجيد بالجر على صفة العرش: أي السرير العظيم؛ وقيل: أراد حسنه فوصفه بالمجد كما وصفه بالكرم، فقال «رب العرش الكريم» ومعناه الكمال، والعرش أحسن الأشياء وأكملها. وقرأ الآخرون بالرفع على صفة ذو العرش؛ فقال: لمّا يريد لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه[1].

قال ابن كثير[2]: وقوله تعالى ﴿هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود﴾: أي هل بلغك ما أحلّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردّها عنهم أحد؟ وهذا تقرير لقوله تعالى ﴿إن بطش ربّك لشديد﴾. وعن عمرو بن ميمون قال: مرّ النبيّ ﷺ على امرأة تقرأ ﴿هل أتاك حديث الجنود﴾ فقام يسمع فقال: «نعم قد جاءني»[3]. رواه ابن أبي حاتم.

﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ **قال البغوي**[4]: ﴿بل الذين كفروا﴾ من قومك يا محمد ﴿في تكذيب﴾ لك وللقرآن، كدأب من قبلهم، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار ﴿والله من ورائهم محيط﴾ عالم بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم. ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ كريم شريف كثير الخير، ليس كما زعم المشركون أنه شعر وكهانة ﴿في لوح محفوظ﴾ وهو أمّ الكتاب ومنه تنسخ الكتب ﴿محفوظ﴾ من الشياطين ومن الزيادة فيه والنقصان. قال مقاتل: اللوح المحفوظ عن يمين العرش.

● ● ●

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٤٩٦): «وكلاهما معنى صحيح».

(٢) المصدر السابق (٤/٤٩٦).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٩٦) عن عمرو بن ميمون مرسلاً.

(٤) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٤٠).

﴿سـورة الطارق﴾

مكية، وهي سبع عشرة آية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ (١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ (٢) ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ (٤) فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ (٦) يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ (٧) إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ (٨) يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ (٩) فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ (١٠) وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ (١١) وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ (١٢) إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ (١٣) وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ (١٤) إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا (١٥) وَأَكِيدُ كَيۡدٗا (١٦) فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا (١٧) ﴾.

* * *

(١) في (الأصل): «سبعة عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ـ رحمه الله ـ وهو الصواب.

قوله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

قال ابن كثير(١): يقسم تبارك وتعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيّرة، ولهذا قال تعالى ﴿والسماء والطارق﴾ ثم قال ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ثم فسّره بقوله ﴿النجم الثاقب﴾ قال قتادة وغيره: إنما سمّي النجم طارقاً لأنه إنما يُرى بالليل ويختفي بالنهار. ﴿إن كلّ نفس لمّا عليها حافظ﴾ **قال البغوي**(٢): ما كلّ نفس إلاّ عليها حافظ؛ وهي لغة هزيل يجعلون «لمّا» بمنزلة «إلاّ» يقولون: نشدتك الله لمّا قمت: أي إلاّ قمت. وعن قتادة ﴿إن كلّ نفس لمّا عليها حافظ﴾ حفظة يحفظون عملك ورزقك وأجلك، إذا توفيته يا ابن آدم قبضت إلى ربك. وقال الكلبي: حافظ من الله يحفظها ويحفظ قولها وفعلها، حتى يدفعها ويسلّمها إلى المقادير، ثم يخلّي عنها.

﴿فلينظر الإنسان ممّ خلق﴾ **قال البغوي**(٣): أي فليتفكّر من أيّ شيء خلقه ربه ﴿خلق من ماء دافق﴾ مدفوق: أي مصبوب في الرحم، وهو المنيّ. **وقال ابن كثير**(٤): يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة، فيتولّد منهما الولد بإذن الله عز وجل؛

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٩٧).

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٤٢).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٤٤٣).

(٤) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٩٨).

ولهذا قال ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾، يعني: صلب الرجل وترائب المرأة وهو صدرها. وقال قتادة: يخرج من بين صلب الرجل ونحره.

﴿إنه على رجعه لقادر﴾ قال: على بعثه وإعادته. ﴿يوم تبلى السرائر﴾ قال: إن هذه السرائر مختبرة، فأسرّوا خيراً أو أعلنوه إن استطعتم، ﴿ولا قوّة إلاّ بالله. فماله من قوّة ولا ناصر﴾ قال ﴿من قوّة﴾ يمتنع بها ﴿ولا ناصر﴾ ينصره من الله.

قوله عز وجل ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾.

عن قتادة قوله ﴿والسماء ذات الرجع﴾ قال: ترجع بأرزاق العباد كلّ عام، لولا ذلك هلكوا وهلكت مواشيهم. وقال الضحاك: يعني المطر. ﴿والأرض ذات الصدع﴾ قال قتادة: تصدع عن الثمار وعن النبات كما رأيتم. ﴿إنه لقول فصل﴾ قال ابن عباس يقول: حقّ.

﴿وما هو بالهزل﴾ قال مجاهد: باللعب، وعن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون فتن»، قلنا: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله»[١]. الحديث.

قال ابن كثير[٢]: ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذّبون به ويصدّون عن سبيله فقال ﴿إنهم يكيدون كيداً﴾: أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن

(١) سبق تخريجه، والصواب أنه موقوف من قول علي رضي الله عنه.

(٢) المصدر السابق (٤/٤٩٨).

﴿وأكيد كيداً﴾ **قال البغوي**[1]: وكيد الله استدراجه إيّاهم من حيث لا يعلمون. قال ابن كثير: ثم قال تعالى ﴿فمهّل الكافرين﴾: أي أَنْظِرْهُمْ ولا تستعجل لهم ﴿أمهلهم رويداً﴾: أي قليلاً: أي وسترى ماذا حلّ بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال تعالى ﴿نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾[2]. وقال في جامع البيان ﴿أمهلهم رويداً﴾ إمهالاً يسيراً، كرّر وخالف بين الفعلين لزيادة التسكين والتصبير، والحمد لله ربّ العالمين.

• • •

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٤٣).

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٤.

الدرس الثالث بعد الثلاثمائة

﴿سورة الأعلى﴾

مكية، وهي تسع عشرة[1] آية

عن النعمان بن بشير: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما»[2]. رواه مسلم وغيره.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾.

---

(١) في (الأصل): «تسعة عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

(٢) أخرجه مسلم (ح/٨٧٨).

قوله عز وجل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

عن قتادة ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى﴾ ذكر لنا أن نبـيّ الله ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحان ربـي الأعلى»[1]. وعن عقبة بن عامر الجهنيّ قال: لما نزلت ﴿فسبّح باسم ربك العظيم﴾ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت: ﴿سبّح اسم ربّك الأعلى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»[2].

وقوله تعالى: ﴿الذي خلق فسوّى﴾: أي خلق الخليقة وسوّى كلّ مخلوق على هيئته ﴿والذي قدّر فهدى﴾: أي قدّر قدراً وهدى الخلائق إليه. ﴿والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾ قال قتادة: يعود يبساً بعد خضرة. وقال ابن عباس: هشيماً متغيّراً. وعن مجاهد قوله ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ قال: كان يتذكّر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى. وقال قتادة: كان ﷺ لا ينسى شيئاً إلاّ ما شاء الله؛

(١) أخرجه ابن جرير (١٥١/٣٠) عن قتادة مرسلاً، وروي مسنداً عن ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه أحمد (٢٣٢/١)، وأبو داود (ح/٨٨٣)، ومن طريقه البيهقي في سننه (٣١٠/٢)، قال أبو داود: «خولف وكيع في هذا الحديث، رواه أبو وكيع وشعبة عن أبـي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس موقوفاً»، قال أحمد شاكر: «إسناده صحيح ثم أورد كلام أبـي داود المتقدم، ومال: «وما هذه بعلة». اهـ.

(٢) سبق تخريجه.

قال البغوي[١]: وهو ما نسخ الله تلاوته من القرآن، كما قال تعالى ﴿ما ننسخ من آية أو نُنْسِها﴾[٢].

﴿إنه يعلم الجهر وما يخفى ونيسّرك لليسرى﴾ قال ابن عباس: نيسّرك لأن تعمل خيراً ﴿فذكّر إن نفعت الذكرى﴾ **قال ابن كثير**[٣]: أي ذكر حيث تنفع التذكرة، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله. ﴿سيذّكّر﴾ سيتّعظ ﴿من يخشى﴾ الله عز وجل ﴿ويتجنّبها﴾: أي الذكرى، ويتباعد عنها ﴿الأشقى الذي يصلي النار الكبرى ثم لا يموت فيها﴾ فيستريح ﴿ولا يحيى﴾ حياة تنفعه.

قوله عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

عن ابن عباس قوله ﴿قد أفلح من تزكّى﴾ يقول: من تزكّى من الشرك ﴿وذكر اسم ربه فصلّى﴾ يقول: الصلوات الخمس. وعن الحسن في قوله ﴿قد أفلح من تزكّى﴾ قال: من كان عمله زاكياً. ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ قال قتادة: فاختار الناس العاجلة إلاّ من عصم الله.

﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ قال: تتابعت كتب الله كما تسمعون: إن الآخرة خير وأبقى. وعن أبي الخلد قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لستّ ليال خلون من رمضان، وأنزل الزبور لاثنتي عشرة ليلة، وأنزل الإنجيل لثماني عشرة ليلة، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين». وفي

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٤٥).

(٢) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٠٠).

حديث أبـي ذرّ المشهور قلت: يا رسول الله فهل في الدنيا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى؟ قال: «نعم، اقرأ يا أبا ذرّ: ﴿قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربه فصلّى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ »[١].

● ● ●

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٥٧١) إلى عبد بن حميد، وابن مردويه، وابن عساكر، وفي سنده كذاب، وسيأتي تخريجه أيضاً في آخر الكتاب.

﴿سـورة الغـاشـيـة﴾

مكية، وهي ست[1] وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ .

* * *

(١) في (الأصل): «ستة» وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ـ رحمه الله ـ وهو الصواب.

قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

قال ابن عباس: «الغاشية من أسماء يوم القيامة، عظّمه الله وحذّره عباده»[١]. ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾ قال قتادة: ذليلة ﴿عاملة ناصبة﴾ قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا فأعملها في النار ﴿تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية﴾ قال: أنَى طبخُها منذ يوم خلق الله الدنيا. ﴿ليس لهم طعام إلاّ من ضريع﴾ قال ابن عباس: الضريع الشبرق. قال عكرمة: هي شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض، فإذا كان الربيع سمّتها قريش الشبرق، فإذا هاج العود سمّتها الضريع. ﴿لا يسمن ولا يغني من جوع﴾.

﴿وجوه يومئذ ناعمة﴾: أي يعرف النعيم فيها. ﴿لسعيها راضية﴾ قال سفيان: قد رضيت بعملها. ﴿في جنّة عالية لا تسمع فيها لاغية﴾ قال ابن عباس يقول: لا تسمع أذى ولا باطلاً: ﴿فيها عين جارية﴾. أي سارحة، **قال ابن كثير**[٢]: وهذه نكرة في سياق الإثبات، وليس المراد بها عيناً واحدة، وإنما هذا جنس يعني فيها عيون جاريات؛ ﴿فيها سرر مرفوعة﴾ قال ابن عباس: ألواحها من ذهب، مكلّلة بالزبرجد والدرّ والياقوت مرتفعة ما لم يجىء أهلها، فإذا أراد أن

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٩/٣٠)، وفيه انقطاع.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٠٣/٤).

يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترتفع إلى موضعها؛ ﴿وأكواب موضوعة﴾ عندهم؛ ﴿ونمارق مصفوفة﴾ قال قتادة: والنمارق الوسائد؛ ﴿وزرابيّ مبثوثة﴾ قال ابن عباس: الزرابيّ البسط، قال البغوي: يعني البسط العريضة، قال ابن عباس هي الطنافس التي لها خمل، واحدتها زربية، ﴿مبثوثة﴾ مبسوطة. انتهى.

قلت: وهي الزوالي بلسان بعض أهل الوقت.

قوله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

قال البغوي(١): قال أهل التفسير: لما نعت الله تعالى في هذه السورة ما في الجنّة، عجب من ذلك أهل الكفر وكذّبوه، فذكر لهم الله تعالى صنعه فقال ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾. وكانت الإبل أعظم عيش العرب لهم فيها منافع كثيرة، فلما صنع لهم ذلك في الدنيا صنع لأهل الجنّة فيها ما صنع، وتكلّمت الحكماء في وجه تخصيص الإبل من بين سائر الحيوان فقال مقاتل: لأنهم لم يروا بهيمة قطّ أعظم منها، ولم يشاهدوا الفيل إلاّ الشاذّ منهم؛ وقال الكلبي: لأنها تنهض بحملها وهي باركة. وقال قتادة: ذكر الله ارتفاع سرر الجنّة وفرشها فقالوا: كيف نصعدها؟ فأنزل الله هذه الآية. وسئل الحسن عن هذه الآية، وقيل له: الفيل أعظم في الأعجوبة، فقال: أما الفيل فالعرب بعيدة العهد بها، ثم هو خنزير لا يركب ظهرها ولا يؤكل لحمها ولا يحلب درّها، والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسها، تأكل النوى والقتّ وتخرج اللبن، وهو مع عظمها تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، حتى أن الصبيّ الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث شاء. وكان شريح القاضي

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٤٨).

يقول: اخرجوا بنا إلى الكناسة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت.

وقوله تعالى: ﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾: أي عن الأرض حتى لا ينالها شيء يغيّرها، كما قال تعالى ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّنّاها وما لها من فروج﴾[1]؟ وعن قتادة ﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ تصاعد إلى الجبل الصخر عامة يومك فإذا أفضيت إلى أعلاه أفضيت إلى عيون متفجّرة وثمار متهدّلة ثم لم تحرثه الأيدي ولم تعمله نعمة من الله وبلغة إلى أجل ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾: أي بسطت يقول: أليس الذي خلق هذا يقادر على أن يخلق ما أراد في الجنّة؟

﴿فذكّر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر إلاّ من تولّى وكفر فيعذّبه الله العذاب الأكبر﴾ **قال ابن كثير**[2]: أي فذكّر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب؛ ولهذا قال ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ قال ابن عباس يقول: لست عليهم بجبّار. وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلاّ الله، فإذا قالوا: لا إله إلاّ الله، عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها، وحسابهم على الله. ثم قرأ ﴿إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر﴾ »[3]. رواه ابن جرير وغيره.

وعن مجاهد قوله ﴿إلاّ من تولّى وكفر﴾ قال: حسابه على الله ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ **قال ابن جرير**[4]: وهو عذاب جهنّم. وعن قتادة ﴿إنّ إلينا إيابهم ثم إنّ علينا حسابهم﴾ يقول: إن إلى الله الإياب وعليه الحساب.

● ● ●

---

(١) سورة ق: الآية ٦.

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٠٤).

(٣) هو في مسلم (ح/ ٢١).

(٤) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ١٦٧).

الدرس الرابع بعد الثلاثمائة

﴿سـورة الفجـر﴾

مكية، وهي ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

قوله عز وجل ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ .

وعن عبد الله بن الزبير أنه قال ﴿والفجر﴾ قسم أقسم الله به. وقال عكرمة: الفجر فجر الصبح. ﴿وليالٍ عشر﴾ قال ابن عباس: هنّ الليالي الأول من ذي الحجّة. قال مسروق: هي أفضل أيام السنة. وعن مجاهد ﴿والشفع والوتر﴾ قال: كلّ خلق الله شفع: السماء والأرض، والبرّ والبحر، والجنّ والإنس، والشمس والقمر، والله الوتر وحده. وعن قتادة قوله ﴿والشفع والوتر﴾ إن من الصلاة شفعاً، وإن منها وتراً. وعن ابن عباس ﴿والليل إذا يسر﴾ يقول: إذا ذهب. ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ قال: لذي عقل، لذي نهى.

قال ابن جرير[(١)]: وقوله ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾، يقول تعالى ذكره: هل فيما أقسمت به من هذه الأمور مقنع لذي حجر؟ وإنما عنى بذلك أن في هذا القرآن مكتفى لمن عقل عن ربه بما هو أغلظ منه في الأقسام. **وقال ابن كثير**[(٢)]: وقوله تعالى ﴿هل في ذلك قسم لذي حجر﴾: أي لذي عقل ولبّ ودين وحجى، وإنما سمّي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطي ما لا يليق به من

(١) انظر «جامع البيان» (١٧٣/٣٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٥٠٧/٤).

الأفعال والأقوال. انتهى. قال بعض الحكماء: العقل للقلب بمنزلة الروح للجسد.

وعن قتادة قوله ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾ قال: كنا نحدّث أن إرم قبيلة من عاد مملكة عاد. وقال ابن إسحاق: عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. وعن قتادة قوله ﴿ذات العماد﴾ قال: كانوا أهل عمود لا يقيمون، سيارة. وقال الكلبيّ: وكانوا أهل عَمدٍ وخيام، وماشية سيارة في الربيع، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم، وكانوا أهل جنان وزرع.

وعن قتادة قوله ﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ ذكر أنهم كانوا اثنتي عشرة ذراعاً طولاً في السماء. **وقال البغوي**[1]: أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والقوّة، وهم الذين قالوا ﴿من أشدّ منا قوة﴾؟ وعن ابن عباس ﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ يعني: ثمود قوم صالح كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً، وقال قتادة: نقبوا الصخر. وعن مجاهد قوله ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ قال: كان يوتد الناس بالأوتاد، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ **قال البغوي**[2]: يعني عاداً وثمود وفرعون عملوا في الأرض بالمعاصي وتجبّروا ﴿فأكثروا فيها الفساد فصبّ عليهم ربك سوط عذاب﴾ قال مجاهد: ما عذّبوا به. ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ قال ابن عباس يقول: يرى ويسمع.

قوله عز وجل ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٥١).

(٢) المصدر السابق (٤/٤٥٢).

عن قتادة قوله ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعّمه فيقول ربّـي أكرمن﴾ وحقّ له ﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّـي أهانن﴾ ما أسرع كفر بني آدم! يقول الله جلّ ثناؤه ﴿كلاّ﴾ إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا، ولا أهين من أهنت بقلّتها، ولكن إنما أكرم من أكرمت بطاعتي، وأهين من أهنت بمعصيتي.

﴿بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضّون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لمّاً﴾ قال: الميراث ﴿أكلاً لمّاً﴾: أي شديداً. وقال بكر بن عبد الله: اللمّ الاعتداء في الميراث، يأكل ميراثه وميراث غيره. ﴿وتحبّون المال حبّاً جمّاً﴾ قال قتادة: أي حبّاً شديداً.

قوله عز وجل: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

قال ابن كثير[١]: يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة، فقال تعالى ﴿كلاّ﴾: أي حقاً ﴿إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً﴾ قال ابن جرير[٢]: يعني إذا رجّت وزلزلت وحرّكت تحريكاً بعد تحريك، ﴿وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً﴾ يقول تعالى ذكره: وإذ جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفاً صفّاً بعد صفّ. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا كان يوم القيامة مدّت الأرض مدّ الأديم، وزيد في سعتها كذا وكذا، وجمع الخلائق بصعيد واحد جنّهم وإنسهم، فإذا كان ذلك اليوم قيّضت هذه السماء الدنيا عن أهلها على وجه الأرض، ولأهل السماء وحدهم أكثر

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥١٠).

(٢) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ١٨٥).

من أهل الأرض جنِّهم وإنسهم بضعف، فإذا نثروا على وجه الأرض فزعوا منهم فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيفزعون من قولهم ويقولون: سبحان ربنا، ليس فينا وهو آت؛ ثم تقاض السماء الثانية، ولأهل السماء الثانية وحدهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع أهل الأرض بضعف جنِّهم وإنسهم.

فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيفزعون من قولهم ويقولون: سبحان ربنا، ليس فينا وهو آت، ثم تقاض السموات سماء سماء، كلما قيّضت سماء عن أهلها كانت أكثر من أهل السموات التي تحتها ومن جميع أهل الأرض بضعف، فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض فيقولون لهم مثل ذلك، ويرجعون إليهم مثل ذلك حتى تقاض السماء السابعة، فلأهل السماء السابعة أكثر من أهل ستّ سموات ومن جميع أهل الأرض بضعف، فيجيء الله فيهم والأمم جثيّ صفوف، وينادي مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، ليقم الحمّادون لله على كلّ حال.

قال: فيقومون فيسرحون إلى الجنّة؛ ثم ينادي الثانية: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون؟ فيسرحون إلى الجنّة؛ ثم ينادي الثالثة: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار؟ فيقومون فيسرحون إلى الجنّة.

فإذا أخذ من هؤلاء ثلاثة، خرج عنق من النار فأشرف على الخلائق له عينان تبصران ولسان فصيح فيقول: إني وكّلت منكم بثلاثة: بكلّ جبار عنيد فيلقطهم من الصفوف لقط الطير حبّ السمسم فتحبس بهم في جهنّم ثم يخرج ثانية فيقول: إني وكّلت منكم بمن آذى الله ورسوله فيلتقطهم لقط الطير حبّ السمسم فيحبس بهم في جهنّم، ثم يخرج ثالثة؛ قال عوف: قال أبو المنهال: حسبت أنه يقول: وكّلت

بأصحاب التصاوير فيلتقطهم من الصفوف لقط الطير حبّ السمسم فيحبس بهم في جهنّم، فإذا أخذ من هؤلاء ثلاثة ومن هؤلاء ثلاثة نشرت الصحف ووضعت الموازين ودعي الخلائق للحساب»[١]. رواه ابن جرير.

وقال الضحاك ابن مزاحم: إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا بأهلها ونزل من فيها من الملائكة وأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثمن السادسة ثم السابعة، فصفّوا صفّاً دون صفّ، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبته اليسرى جهنّم، فإذا رآها أهل الأرض ندّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلاّ وجدوا سبعة صفوف من الملائكة، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله ﴿إني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولّون مدبرين ما لكم من الله من عاصم﴾[٢]، وذلك قوله ﴿وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً وجيء يومئذ بجهنّم﴾. وعن ابن مسعود في قوله ﴿وجيء يومئذ بجهنّم﴾ قال: «جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يقودونها»[٣].

﴿يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّي له الذكرى﴾ قال ابن عباس يقول: وكيف له؟ وعن الحسن في قوله ﴿يومئذ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى يقول يا ليتني قدّمت لحياتي﴾ قال: علم الله أنه صادق، هناك حياة طويلة لا موت فيها آخر ما عليه؛ ﴿فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ قال: قد علم الله أن في الدنيا عذاباً ووثاقاً فقال: ﴿فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد﴾ في الدنيا ﴿ولا يوثق وثاقه أحد﴾ في الدنيا.

وعن قتادة قوله ﴿يا أيتها النفس المطمئنّة﴾ هو المؤمن اطمأنّت نفسه إلى ما وعد الله ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة﴾ قال ابن جرير: حدّثنا أبو كريب قال:

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ١٨٥ ـــ ١٨٦) بسند حسن.

(٢) سورة غافر: الآية ٣٢.

(٣) أخرجه مسلم (ح/ ٢٨٤٢).

حدّثنا ابن يمان عن أسامة بن زيد عن أبيه قال: «بشّرت بالجنّة عند الموت، ويوم الجمع، وعند البعث»[١]. وعن قتادة قوله ﴿فادخلي في عبادي﴾ قال: ادخلي في عبادي الصالحين ﴿وداخلي جنّتي﴾.

● ● ●

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/١٩١) بسند ضعيف.

﴿سـورة البلد﴾

مكية، وهي عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

* * *

قوله عز وجل ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾.

عن ابن عباس في قوله ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾: يعني مكة ﴿وأنت حلّ بهذا البلد﴾: يعني بذلك نبيّ الله ﷺ، أحلّ الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحي من شاء، وقال في جامع البيان: قيل معناه: أقسم بمكة حين حلولك

فيها، فيكون تعظيماً للمقسَم به. قال ابن القيّم[1]: (وعلى كلّ حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه، فهذا القسم متضمّن لتعظيم نبيّه ورسوله). ﴿ووالد وما ولد﴾ قال مجاهد: الوالد آدم ﴿وما ولد﴾ ولده.

﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ قال ابن عباس يقول: في نَصَب؛ وقال قتادة: لا يُلقى ابن آدم إلاّ مكابد أمر الدنيا والآخرة. وعن ابن عباس قال: يعني حمله وولادته، ورضاعه وفصاله، ونبت أسنانه وحياته ومعاشه، كلّ ذلك شدّة؛ **قال ابن القيّم**[2]: (ولا راحة له إلاّ في الجنّة. ﴿أيحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ قال قتادة: ابن آدم يظنّ أن لن يُسأل عن هذا المال: من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ ﴿يقول أهلكت مالاً لبداً﴾: أي كثيراً. ﴿أيحسب أن لم يره أحد ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين﴾؟ قال: نِعَمٌ من الله متظاهرة يقرّرك بها كيما تشكره ﴿وهديناه النجدين﴾ قال مجاهد: سبيل الخير والشرّ.

قوله عز وجل ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

عن قتادة قوله: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله ﴿وما أدراك ما العقبة فكّ رقبة﴾ ذكر لنا أن نبيّ الله ﷺ سئل عن الرقاب أيّها أعظم أجراً؟ قال: «أكثرها ثمناً»[3]. قال قتادة: ثم أخبر عن اقتحامها فقال ﴿فكّ رقبة

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٤٨).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٦).

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢٠٢)، وروي مسنداً من حديث أبي ذر رضي الله عنه: أخرجه البخاري (ح/٢٥١٨)، ومسلم (ح/ ٨٤).

أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾ يقول: يوم يشتهى فيه الطعام؛ وقال ابن عباس ﴿في يوم ذي مسغبة﴾ قال: ذي مجاعة. ﴿يتيماً ذا مقربة﴾ قال ابن زيد: ذا قرابة ﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ قال ابن عباس: الذي ليس له شيء يقيه من التراب.

﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر﴾ على أمر الله ﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ لعباد الله: أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة، مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله. ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾: أي أصحاب اليمين الذين يؤخذ بهم إلى الجنّة. ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾: أي يؤخذ بهم ذات الشمال ﴿عليهم نار مؤصدة﴾ قال قتادة: أي مطبقة أطبقها الله عليهم، فلا ضوء فيها ولا فرج ولا خروج منها آخر الأبد.

● ● ●

الدرس الخامس بعد الثلاثمائة

﴿سورة الشمس﴾

مكية، وهي خمس[(١)] عشر آية

في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: «هلاّ صلّيت بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾، ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾؟» يعني في العشاء الآخرة»[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝١١ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝١٥﴾.

* * *

(١) في (الأصل): «خمسة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٧٠٥)، ومسلم (١/ ٣٤٠) من حديث جابر رضي الله عنه.

قوله عز وجل ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

عن قتادة ﴿والشمس وضحاها﴾ قال: هذا النهار ﴿والقمر إذا تلاها﴾ يتلوها صبيحة الهلال، فإذا سقطت الشمس رؤي الهلال، ﴿والنهار إذا جلّاها﴾ قال: إذا غشيها النهار. قال البغوي[1]: يعني إذا جلّى الظلمة، كناية عن غير مذكور. ﴿والليل إذا يغشاها﴾ قال قتادة: إذا غشّاها الليل. ﴿والسماء وما بناها﴾ وبناؤها خلقها. وعن مجاهد ﴿والسماء وما بناها﴾ قال: الله بنى السماء. ﴿والأرض وما طحاها﴾ قال: دحاها؛ وقال ابن زيد: بسطها. ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال مجاهد: عرّفها؛ وقال ابن عباس: علّمها الطاعة والمعصية.

﴿قد أفلح من زكّاها﴾ يقول: قد أفلح من زكّى الله نفسه؛ ﴿وقد خاب من دسّاها﴾ يقول: وقد خاب من دسّى الله نفسه فأضلّه. وقال قتادة: من عمل خيراً زكّاها بطاعة الله؛ قال: قد وقع القسم ههنا ﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾. وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: «﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ قال: اللهمّ آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولاها»[2]. وقال قتادة ﴿قد أفلح﴾ من زكّى نفسه بعمل صالح ﴿وقد خاب من

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٥١٦) بسند ضعيف، وابن مردويه =

دساها﴾ قال: آثمها وأفجرها؛ وقال الحسن: أهلكها وأضلّها وحملها على المعصية.

قال ابن القيّم[١]: «وهذا يستلزم القول الأول، فإن العبد إذا زكّى نفسه ودسّاها، فإنما يزكّيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسّيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه، فتضمّنت الآيتان الردّ على القدرية والجبرية». انتهى ملخصاً.

قوله عز وجل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ۝١٥﴾.

قال ابن زيد في قوله ﴿كذّبت ثمود بطغواها﴾ قال: بطغيانهم وبمعصيتهم. ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ قدار بن سالف، قال النبيّ ﷺ: «أنبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة»[٢]. رواه ابن جرير وغيره. وعن قتادة في قوله ﴿إذ انبعث أشقاها﴾: يعني أحيمر ثمود. ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها﴾ قسم الله الذي قسم لها من هذا الماء ﴿فكذّبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها﴾: أي فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء.

﴿ولا يخاف عقباها﴾ قال الحسن: لا يخاف الله من أحد تبعة في إهلاكهم. وعن أبي الطفيل قال: «قالت ثمود لصالح: ائتنا بآية إن كنت من الصادقين، فقال لهم صالح: اخرجوا إلى هضبة من الأرض، فخرجوا فإذا هي تمتخض كما

= كما عزاه له السيوطي في «الدرر المنثور» (٦/ ٦٠٠) وله شاهد من حديث زيد بن أرقم أخرجه مسلم (ح/ ٢٧٢٢) بنحوه وليس ف سياقه قراءة النبي ﷺ لهذه الآية.

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٣٧).

(٢) هو في البخاري (ح/ ٤٩٤٢ و ٣٣٧٧)، ومسلم (ح/ ٢٨٥٥).

تمتخض الحامل، ثم إنها انفرجت فخرجت من وسطها الناقة، فقال صالح ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾[(١)] ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾[(٢)] فلما ملّوها عقروها؛ فقال لهم ﴿تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾[(٣)].

وعن جابر قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فكانت ــ يعني الناقة ــ ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلاّ رجلاً واحداً كان في حرم الله»، فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[(٤)]. رواه أحمد. وعن قتادة: «أن صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة: تمتّعوا ثلاثة أيام؛ قال لهم: آية هلاككم أن تصبح وجوهكم مصفرّة، ثم تصبح اليوم الثاني محمّرة، ثم تصبح اليوم الثالث مسودّة، فأصبحت كذلك».

قال ابن كثير[(٥)]: وأصبح ثمود يوم الخميس، وهو اليوم الأول من أيام النظرة، ووجوهم مصفرّة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمّرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من

(١) سورة الأعراف: الآية ٧٢.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٥٥.

(٣) سورة هود: الآية ٦٥.

(٤) أخرجه أحمد (٣/٢٩٦)، وابن جرير (٨/ ٢٣٠)، والحاكم (٢/ ٣٢١)، وصححه، ووافقه الذهبي وقال: «على شرط البخاري ومسلم»! قلت: وهو من طريق أبـي الزبير عن جابر، وأبو الزبير إنما احتج به مسلم فقط.

(٥) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥١٧).

أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودّة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنّطوا، وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه ــ عياذاً بالله من ذلك ــ لا يدرون ماذا يُفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة، فأصبحوا في دارهم جاثمين.

• • •

﴿سـورة الليـل﴾

مكية، وهي إحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى (١٥) ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى (١٧) ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٠) وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ (٢١) ﴾.

* * *

قوله عز وجل ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) ﴾.

عن قتادة قوله ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى﴾ قال: آيتان عظيمتان يكوّرهما الله على الخلائق. ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ قال في بعض الحروف: والذكر والأنثى. وعن الحسن أنه كان يقرؤها: وما خلق الذكر والأنثى، يقول:

والذي خلق الذكر والأنثى. قال أبو عمرو: وأهل مكة يقولون للربّ: سبحان ما سبّحت له.

وعن قتادة قوله ﴿إن سعيكم لشتّى﴾ يقول: لمختلف؛ قال وقع القسم هٰهنا ﴿إن سعيكم لشتّى فأما من أعطى﴾ حقّ الله واتقى محارم الله التي نهى عنها ﴿وصدّق بالحسنى﴾: أي بالمجازاة على ذلك. وقال ابن عباس ﴿وصدّق﴾ بالخلف من الله. وقال مجاهد: بالجنّة. ﴿فسنيسّره لليسرى﴾ قال ابن عباس: يعني للخير. **قال ابن القيّم**[1]: (فسّرت الحسنى بلا إله إلاَّ الله، وبالجنّة، وبالخلف، وهي ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه). انتهى ملخصاً.

﴿وأما من بخل واستغنى﴾: أي بخل بماله، واستغنى عن ربه عز وجل ﴿وكذّب بالحسنى﴾: أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿فسنيسّره للعسرى﴾: أي لطريق الشرّ ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾ قال قتادة: إذا تردّى في النار. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة، فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: «ما منكم من واحد، وما من نفس منفوسة، إلاَّ كتب مكانها من الجنّة والنّار ــ أو ــ إلاَّ قد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء. فقال: «أما أهل السعادة فييسّرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسّرون إلى عمل أهل الشقاء ــ ثم قرأ ــ ﴿فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسّره للعسرى﴾»[2]. رواه الجماعة. وفي

---

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح/٤٩٤٨)، ومسلم (ح/٢٦٤٧).

رواية: «اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له»[(١)].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

عن قتادة قوله ﴿إن علينا للهدى﴾ يقول: على الله البيان: بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته. ﴿وإن لنا للآخرة والأولى فأنذرتكم ناراً تلظّى﴾ قال مجاهد: توهّج ﴿لا يصلاها إلاَّ الأشقى الذي كذّب وتولّى﴾ قال ابن كثير[(٢)]: أي لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه ﴿إلاَّ الأشقى﴾ ثم فسّره فقال ﴿الذي كذّب﴾: أي بقلبه ﴿وتولّى﴾: أي عن العمل بجوارحه وأركانه؛ ﴿وسيجنّبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكّى﴾ قال البغوي[(٣)]: يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا رياء ولا سمعة.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾ يد يكافئه عليها ﴿إلاَّ ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾ بما يعطيه الله عز وجل في الآخرة من الجنّة والكرامة جزاء على ما فعل. قال ابن إسحاق: «كان بلال لبعض بني جمح، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أميّة بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد. قال: فمرّ به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك، وكانت دار أبـي بكر في بني جمح، فقال لأميّة: ألا تتقِ الله تعالى في هذا المسكين؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما

---

(١) أخرجه البخاري (ح/٤٩٤٩)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٢٠).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٦٣).

ترى. قال أبو بكر: أفعل، عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى، على دينك أعطيكه. قال: قد فعلت. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر ستّ رقاب، بلال سابعهم، فقال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر لبلال إلاَّ ليدٍ كانت لبلال عنده، فأنزل الله ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزي إلاَّ ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾[١].

• • •

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٨٤) من طريقه ابن إسحاق عن عروة مرسلاً: ولم يرد في سياقه ذكر سبب نزول هذه الآية، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٢ ــ ٣٩٣)، قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ في تفسيره (٤/ ٥٢١): «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها.». اهـ.

الدرس السادس بعد الثلاثمائة

﴿سورة الضحى﴾

مكية وهي إحدى عشرة[١] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ .

* * *

عن قتادة ﴿والضحى﴾ ساعة من ساعات النهار ﴿والليل إذا سجى﴾ سكن بالخلق: ﴿ما ودّعك ربك وما قلى﴾ قال ابن عباس يقول: ما تركك ربك وما أبغضك. قال قتادة: «أبطأ عليه جبريل فقال المشركون: قد قلاه ربه وودّعه، فأنزل الله ﴿ما ودّعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى﴾ »[٢] قال ابن

---

(١) في (الأصل): «عشر» وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢٣١) عن قتادة مرسلاً. وقد روي نحوه من حديث جندب البجلي ــ رضي الله عنه ــ قال: «أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقالت امرأة من قريس، لقد =

كثير[١]: وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار، ولهذا كان رسول ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها إطراحاً كما هو معلوم بالضرورة من سيرته. وعن قتادة ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى﴾ قال: كانت هذه منازل رسول الله ﷺ قبل أن يبعثه الله سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير[٢] وقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ كقوله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾[٣]. وعن قتادة ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾: أي لا تظلم ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ قال: ردّ السائل برحمة ولين ﴿وأما بنعمة ربك فحدّث﴾ قال مجاهد: بالنبوّة، وعن أبـي نضرة قال: «كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها».

• • •

= تركه صاحبه، فأنزلت: ﴿والضحى والليل إذا سجى. . .﴾ الآية. أخرجه البخاري (ح/١١٢٤ و ١١٢٥ و ٤٩٨٣ و ٤٩٥٠ و ٤٩٥١)، ومسلم (ح/١٧٩٧).

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٢٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٥٢٣).

(٣) سورة الشورى: الآية ٥٢.

﴿سورة الشرح﴾

مكية، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾ ﴾.

* * *

قال ابن كثير[1] يقول تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني أما شرحنا لك صدرك؟ أي نوّرناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً؟ كقوله ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾. وعن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله ما أوّل ما رأيت من أمر النبوّة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألت يا أبا هريرة، إنّي في الصحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها قطّ، وأرواح لم أجدها من خلق قطّ، وثياب لم أرها على أحد قطّ، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كلّ واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسّاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا هصر ولا قصر، فقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغلّ والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة،

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٢٤).

ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج شبه الغضّة، ثم هزّ إبهام رجلي اليمنى، فقال: أُغْدُ وأسلم، فرجعت بها أعدو رقة على الصغير ورحمة للكبير»[(١)]. رواه عبد الله ابن الإمام أحمد.

وعن قتادة قوله ﴿ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك﴾ كان للنبـيّ ﷺ ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له. وقال ابن زيد: شرح له صدره وغفر له ذنبه الذي كان قبل أن ينبّأ، فوضعه. وعن مجاهد ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال: لا أُذكر إلاّ ذُكِرْتَ معي: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وعن قتادة في قوله ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ قال النبـيّ ﷺ «ابدؤوا بالعبودية وثنّوا بالرسالة»[(٢)]؛ قال معمر: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله. وعن الحسن قال: خرج النبـيّ ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك، وهو يقول: «لن يَغلب عسر يسرين، لن يَغلب عسر عسرين ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾ »[(٣)]. قال مجاهد: يتبع اليسر العسر.

وعن ابن عباس قوله ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ يقول: فإذا فرغت مما فرض عليك من الصلاة، فسل الله وارغب إليه وانصب له. وعن مجاهد ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ قال: إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب، قال: فصلّ ﴿وإلى ربك فارغب﴾ قال: اجعل رغبتك ونيّتك إلى ربك. وفي الحديث: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»[(٤)].

● ● ●

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/ ١٣٩) بسند ضعيف، وحديث شق الصدر ثبت من وجه آخر عند مسلم وغيره.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢٣٥) من قتادة مرسلاً.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٢٣٦) من الحسن مرسلاً.

(٤) أخرجه مسلم (ح/ ٥٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿سـورة التيـن﴾

مكية، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾ .

* * *

عن البراء بن عازب قال: «سمعت النبيّ ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه»[1]. متفق عليه. وعن الحسن في قول الله ﴿والتين والزيتون﴾ قال: تينكم هذا الذي يؤكل، وزيتونكم هذا الذي يعصر. ﴿وطور سينين﴾ قال: جبل موسى. ﴿وهذا البلد الأمين﴾ قال: البلد الحرام. قال مجاهد: مكّة. ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ قال قتادة: وقع القسم ههنا؛ قال ابن عباس: في أعدل خلق؛ وقال قتادة: في أحسن صورة. ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ قال ابن عباس: إلى أرذل العمر. وعن عكرمة قال: من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، ثم قرأ ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وعن مجاهد ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ قال: إلى النار.

(١) أخرجه البخاري (ح/ ٤٩٥٢ و ٧٥٤٦)، ومسلم ح/ ٤٦٤).

﴿إلاَّ الذين آمنوا﴾ إلاَّ من آمن؛ وقال الحسن هو كقوله ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[١].

قال ابن القيّم[٢]: (والصحيح أن أسفل سافلين النار). وعن الكلبي ﴿فما يكذّبك بعد بالدين﴾؟ إنما يعني الإنسان، يقول: خلقتك في أحسن تقويم ﴿فما يكذّبك﴾ أيها الإنسان ﴿بعد بالدين﴾؟ قال عكرمة: الحساب.

﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾؟ قال البغوي[٣]: والمعنى ألاَّ تتفكّر في صورتك وشبابك وهرمك فتعتبر وتقول: أن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني، فما الذي يكذّبك بالمجازاة بعد هذه الحجج؟ ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ أقضى القاضين؟ وروينا أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿والتين والزيتون﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين»[٤].

• • •

(١) سورة العصر: الآيات ١ ــ ٣.

(٢) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٥٦).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٤٧٣).

(٤) سبق تخريجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وسنده ضعيف.

الدرس السابع بعد الثلاثمائة

﴿سورة العلق﴾

مكية، وهي تسع[1] عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩) ﴾.

* * *

قوله عز وجل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾.

عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من

(١) في (الأصل): «تسعة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبّب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبّد ـ الليالي ذوات العدد، ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوّده لمثلها، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارىء ـ قال ـ فأخذني فغطّني حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء ، فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارىء، فغطّني الثالثة حتى بلغ منّي الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حتى بلغ ﴿ما لم يعلم﴾ » قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زمّلوني زمّلوني»، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع؛ فقال: «يا خديجة ما لي؟» وأخبرها الخبر وقال: «قد خشيت على نفسي»، فقالت له: كلاّ أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحقّ.

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وهو ابن عمّ خديجة أخي أبيها، وكان امرءاً قد تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربيّ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عمّ، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيّ هُمْ؟» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قطّ بما جئت به ألا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً؛ ثم لم ينشب ورقة أن توفي. وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ فيما بلغنا حزناً، غدا منه مراراً كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال، فكلّما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدّى له جبريل فقال: يا محمد إنك رسول الله حقّاً، فيسكن بذلك جأشه وتقرّ نفسه، فيرجع فإذا طالت

عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذورة الجبل تبدّى له جبريل فقال له مثل ذلك»[١]. متفق عليه واللفظ لأحمد.

وعن قتادة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ قرأ حتى بلغ ﴿علّم بالقلم﴾ قال: القلم نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم ولم يصلح عيش. وقال ابن زيد في قوله ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ قال: علّم الإنسان خطّاً بالقلم. قال ابن كثير[٢]: والقلم تارة يكون في الأذهان، وتارة في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان.

قوله عز وجل ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾.

قال البغوي[٣]: ﴿كلاّ﴾ حقاً ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ ليتجاوز حدّه وليستكبر على ربه ﴿أن﴾ لأن ﴿رآه استغنى﴾ أن رأى نفسه غنياً ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾: أي المرجع في الآخرة. وعن قتادة ﴿أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى﴾ نزلت في عدوّ الله أبـي جهل، وذلك لأنه قال: لئن رأيت محمداً يصلّي لأطأنّ على عنقه، فأنزل الله ما تسمعون. وكان يقال: لكلّ أمّة فرعون، وفرعون هذه الأمّة أبو جهل.

﴿أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى﴾ قال: محمد كان على الهدى وأمر بالتقوى. ﴿أرأيت إن كذّب وتولّى﴾: يعني أبا جهل. ﴿ألم يعلم بأن الله يرى

---

(١) أخرجه أحمد (٦/١٥٣ و ٢٣٢)، والبخاري (ح/٣ و ٤٩٥٣ و ٦٩٨٢)، ومسلم (ح/ ١٦٠).

(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٢٨).

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٧٥).

كلاّ لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة﴾ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يصلّي عند المقام فمرّ به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعّده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد بأيّ شيء تهدّدني؟ أما والله إنّي لأكثر هذا الوادي نادياً، فأنزل الله ﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه أخذته زبانية العذاب من ساعته»[١]

﴿كلاّ لا تطعه واسجد واقترب﴾ **قال البغوي**[٢]: ﴿كلاّ﴾ ليس الأمر ما عليه أبو جهل ﴿لا تطعه﴾ في ترك الصلاة ﴿واسجد﴾ وصلّ لله ﴿واقترب﴾ من الله. وساق الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»[٣]. قال: ومعنى ﴿أرأيت﴾ ههنا: تعجيباً للمخاطب، وكرّر هذه اللفظة للتأكيد؛ قال: وتقدير نظم الآية: أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى وهو على الهدى آمر بالتقوى، والناهي مكذّب متولّ عن الإيمان؟ أي: فما أعجب من هذا! ﴿ألم يعلم﴾: يعني أبا جهل ﴿بأن الله يرى﴾ ذلك فيجازيه؟ ﴿كلاّ﴾ لا يعلم ذلك ﴿لئن لم ينته﴾ عن إيذاء محمد ﷺ وتكذيبه ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ لنأخذنّ بناصيته فلنجرّنّه إلى النار، كما قال ﴿فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾[٤]؛ يقال: سفعت بالشيء إذا أخذته وجذبته جذباً شديداً، والنصاية: شعر مقدّم الرأس. ثم قال على البدل ﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾: أي صاحبها كاذب خاطىء. قال ابن عباس: «لما نهى أبو جهل رسول الله ﷺ عن الصلاة، انتهره رسول الله ﷺ، فقال أبو جهل: اتنتهرني؟ فوالله لأملأنّ عليك هذا الوادي إن شئت

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٩)، والترمذي (ح/ ٣٣٤٩)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح»، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٥١٨)، وابن جرير (٣٠/ ٢٥٤)، وهو حديث حسن.

(٢) المصدر السابق (٤/ ٤٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (ح/ ٤٨٢).

(٤) سورة الرحمن: الآية ٤١.

خيلاً جرداً ورجالاً مرداً»؛ قال الله عز وجل ﴿فليدع ناديه﴾: أي قومه وعشيرته: أي فلينتصر بهم.

﴿سندع الزبانية﴾ قال ابن عباس: يريد زبانية جهنّم، سمّوا بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها. وروى ابن جرير وغيره عن أبـي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، فقال: واللات والعزّى لئن رأيته يصلّي كذلك لأطأنّ على رقبته، ولأعفّرنّ وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلّي ليطأ على رقبته، فما فجأهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتّقي بيديه، فقيل له: مالك؟ فقال: إنّ بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة؛ فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»[1].

● ● ●

---

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٢٧٩٧).

﴿ســورة القــدر﴾

مكية، وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

* * *

عن ابن عباس قال: «نزل القرآن كلّه جملة واحدة في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا، فكان الله إذا أراد أن يحدث في الأرض شيئاً، أنزله منه حتى جمعه، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة».

وقال ابن كثير[1]: يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر، وهي الليلة المباركة التي قال الله عز وجل ﴿إنا أنزلنا في ليلة مباركة﴾ وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال تعالى ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾. قال ابن عباس وغيره: أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصّلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى معظّماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٢٩).

فقال ﴿وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ وعن مجاهد ﴿ليلة القدر﴾ ليلة الحكم. قال الحسن ﴿فيها يفرق كلّ أمر حكيم﴾ فيها يقضي الله كلّ أجل وعمل ورزق إلى مثلها. وعن مجاهد ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ قال: عملها وصيامها وقيامها خير من ألف شهر. قال قتادة ﴿خير من ألف شهر﴾ ليس فيها ليلة القدر. ﴿تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر﴾ قال قتادة: يقضي فيها ما يكون في السنة إلى مثلها. ﴿سلام هي﴾ قال: خير كلّها ﴿حتى مطلع الفجر﴾ إلى مطلع الفجر، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر»[1].

وقال ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه»[2].

وقد اختلف العلماء في تعيينها، والجمهور أنها ليلة سبع وعشرين، وما استنبطه بعضهم من عدد كلمات السورة وقد وافق قوله فيها ﴿هي﴾ سابع كلمة بعد العشرين؛ قال ابن عطية: «إنه من ملح التفاسير، وليس من متين العلم». والله أعلم.

• • •

(١) أخرجه البخاري (ح/٢٠١٧ و ٢٠٢٠)، ومسلم (ح/١١٦٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (ح/٢٠٠٨ و ٢٠٠٩)، ومسلم (ح/ ٧٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدرس الثامن بعد الثلاثمائة

﴿سورة البينة﴾

مكية، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾.

* * *

قوله عز وجل ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ .

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبـيّ بن كعب: «إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ »، قال: وسمّاني لك؟ قال: «نعم» فبكى[١]. متفق عليه. وفي حديث مالك بن عمرو بن ثابت[٢] عند الإمام أحمد قال: «لما نزلت ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ إلى آخرها قال جبريل: يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبيّاً»[٣]. الحديث. وعن الترمذيّ أن رسول الله ﷺ قال لي: «إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن»، فقرأ ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ فقرأ فيها «ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب. وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهوديّة ولا النصرانيّة، ومن يفعل خيراً فلن يُكْفَرَهُ»[٤].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (الأصل)، والنسخة التي بخط المؤلف: «عمرو بن ثابت»، وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٨٩)، والطبراني (٢٢/ ٣٢٧)، والدولابي في «الكنى» (١/ ٢٤ ــ ٢٥) بسند ضعيف، لكنه صح من وجه آخر من حديث أنس وأبـي رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٣١ و ١٣٢)، وأبو داود والطيالسي (ح/ ٥٣٩)، ومن طريقه الترمذي (ح/ ٣٧٩٣)، وقال: «حسن صحيح»، وأيضاً (ح/ ٣٨٩٨) وقال: «حسن»، والحاكم (٢/ ٥٣١)، وصححه ووافقه الذهبـي.

قال ابن كثير[١]: وإنما قرأ عليه النبـيّ ﷺ هذه السورة تثبيتاً له وزيادة لإيمانه، فإنه كان قد أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ، فرفعه إلى النبـيّ ﷺ فاستقرأهما وقال لكلّ منهما: «أصبت» قال: أبـيّ: فأخذني من الشكّ وَلاَءٌ إذ كنت في الجاهليّة، فضرب رسول الله ﷺ في صدري، قال أبـيّ: ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً؛ وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: «إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف، فقلت: أسأل الله معافاته ومغفرته، فقال: على حرفين، فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرىء أمّتك القرآن على سبعة أحرف»[٢]، فلما نزلت هذه السورة وفيها ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة فيها كتب قيّمة﴾ قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار، لا قراءة تعلّم واستذكار. والله أعلم. وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيها قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوّف به». فلما رجعوا من الحديبية وأنزل الله على النبـيّ ﷺ سورة الفتح، دعا عمر بن الخطاب فقرأها عليه وفيها قوله ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾ الآية. انتهى.

وعن مجاهد في قول الله ﴿منفكّين﴾ قال: لم يكونوا لينتهوا حتى يتبيّن لهم الحقّ. وعن قتادة في قوله: ﴿منفكّين﴾ قال: منتهين عما هم فيه ﴿حتى تأتيهم البيّنة﴾: أي هذا القرآن ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة﴾ يذكر القرآن بأحسن الذكر ويثني عليه بأحسن الثناء. **وقال ابن كثير**[٣]: أما أهل الكتاب فهم اليهود والنصارى، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب والعجم. وقال مجاهد:

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٣٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٨٢٠ و ٨٢١).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٥٣٧).

لم يكونوا ﴿منفكّين﴾ يعني منتهين حتى يتبيّن لهم الحقّ؛ وهكذا قال قتادة ﴿حتى تأتيهم البيّنة﴾: أي هذا القرآن، ولهذا قال تعالى ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة﴾ ثم فسّر البيّنة بقوله ﴿رسول من الله يتلو صحفاً مطهّرة﴾ يعني محمداً ﷺ وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهّرة، كقوله ﴿في صحف مكرّمة مرفوعة مطهّرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿فيها كتب قيّمة﴾ **قال ابن جرير**[٢]: أي في الصحف المطهّرة ﴿كتب﴾ من الله ﴿قيّمة﴾ عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ، لأنها من عند الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البيّنة﴾ كقوله ﴿ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات أولئك لهم عذاب﴾[٣] يعني بذلك أهل الكتب المنزّلة على الأمم قبلنا، ما أقام الله عليهم الحجج والبيّنات تفرّقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيراً كما جاء في الحديث المرويّ من طرق: «أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النار إلاّ واحدة»، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[٤]. انتهى.

قال البغوي[٥]: ثم ذكر ما أمروا به في كتبهم فقال: ﴿وما أمروا﴾ يعني هؤلاء الكفار: ﴿إلاّ ليعبدوا الله﴾ يعني إلاّ أن يعبدوا الله ﴿مخلصين له الدين﴾ قال

---

(١) سورة عبس: الآية ١٣.

(٢) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ٢٦٣).

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٥.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٨٢).

ابن عباس: ما أمروا في التوراة والإنجيل إلاّ بالإخلاص العبادة لله موحّدين: ﴿حنفاء﴾ مائلين عن الأديان كلّها إلى دين الإسلام ﴿ويقيموا الصلاة﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿ويؤتوا الزكاة﴾ عند محلّها و ﴿ذلك﴾ الذي أمروا به ﴿دين القيّمة﴾: أي الملّة والشريعة المستقيمة.

قوله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾.

وهذه الآيات كقوله تعالى ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾[(١)]. وكقوله تعالى ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي ربه﴾: أي هذا الجزاء لمن خاف ربه واتقاه، بفعل طاعته وترك معصيته. وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنّة: يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيّك ربنا وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى يا ربّ وقد أعطيتنا ما لم عط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألاّ أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[(٣)]. متفق عليه.

● ● ●

(١) سورة التوبة: الآية ٦٨.

(٢) سورة التوبة: الآية ٧٢.

(٣) سبق تخريجه.

﴿سـورة الزلـزلـة﴾

مدنية، وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.

* * *

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿قل هو الله أحد﴾ تعدل ثلث القرآن، ﴿وإذا زلزلت﴾ تعدل ربع القرآن»[1]. رواه البزار. قال ابن جرير[2]: يقول تعالى

---

(١) أخرجه البزار كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/٥٣٨)، وفي سنده ضعف. وبنحوه ــ أيضاً ــ عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «إذا نزلت تعدل نصف القرآن، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، أخرجه الترمذي (ح/٢٨٩٣)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث هذا الشيخ الحسن بن مسلم»، والعقيلي في (الضعفاء» (١/٢٤٣) بسند ضعيف، وبنحوه عن ابن عباس: أخرجه الترمذي (ح/٢٨٩٤)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث يمان بن المغيرة»، والحاكم (١/٥٦٦)، وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: بل يمان ضعيف» قلت: وسنده ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» (٣٠/٢٦٥).

ذكره ﴿إذا زلزلت الأرض﴾ لقيام الساعة ﴿زلزالها﴾ فرجّت رجّاً. وعن سعيد قال: زلزلت الأرض على عهد عبد الله فقال لها عبد الله: مالك؟ أما إنها لو تكلّمت قامت الساعة. وعن ابن عباس ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ قال: الموتى. ﴿وقال الإنسان مالها﴾ قال: الكافر: ﴿يومئذ تحدّث أخبارها﴾ قال سفيان: ما عمل عليها من خير أو شرّ: ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ قال: أعلمها ذلك؛ وقال ابن عباس: أوحى إليها. وعن أبي هريرة قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يومئذ تحدّث أخبارها﴾ قال: «أتدرون ما أخبارها»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن أخبارها أن تشهد على كلّ عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها»[١]. رواه أحمد والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً﴾ كقوله تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرّقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ليروا أعمالهم﴾ قال ابن عباس: ليروا جزاء أعمالهم ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ وعن صعصعة بن معاوية أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ قال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها»[٣]. رواه أحمد وغيره.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي (ح/ ٢٤٢٩)، وأيضاً (ح/ ٣٣٥٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٠)، والحاكم (٢/ ٢٥٦) وصححه، وسكت عنه الذهبي، وأيضاً أخرجه (٢/ ٥٣٢)، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: «يحيى هذا منكر الحديث قاله البخاري»، قلت: وسنده ضعيف.

(٢) سورة الروم: الآية ١٤ ــ ١٦.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢١)، والطبراني (٨/ ٩٠)، والحاكم (٣/ ٦١٣).

قال البغوي[١]: وكان رسول الله ﷺ يسمّيها الجامعة الفاذّة، حين سئل عن زكاة الحمير فقال: «ما أنزل عليّ فيها شيء إلاّ هذه الآية الجامعة الفاذّة ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره﴾ »[٢].

● ● ●

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٤٩٦٢ و ٤٩٦٣)، ومسلم (ح/ ٩٨٧).

الدرس التاسع بعد الثلاثمائة

﴿سورة العاديات﴾

مكية، وهي إحدى عشرة[١] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

* * *

عن ابن عباس في قوله ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال: الخيل؛ قال قتادة: هي الخيل عدت حتى ضبحت. ﴿فالموريات قدحاً﴾ قال: هي الخيل؛ قال الكلبي: تقدح بحوافرها حتى يخرج منها النار. ﴿فالمغيرات صبحاً﴾ قال: أغارت حين أصبحت. ﴿فأثرن به نقعاً﴾ قال: أثرن بحوافرها نقع التراب. ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال: وسطن جمع القوم.

(١) في (الأصل): «عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ـ رحمه الله ـ وهو الصواب.

﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ قال: لكفور. **قال ابن كثير**[١]: هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لنعم ربه لكفور جحود. وقال الحسن: الكنود هو الذي يعدّ المصاب وينسى نعم الله عليه. **قال ابن القيّم**[٢]: (وأصل اللفظ: منع الحقّ والخير، وعبارات المفسّرين تدور على هذا المعنى. وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، ولا يعطي في النائبة). انتهى ملخصاً.

وقوله تعالى: ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال قتادة يقول: إن الله على ذلك لشهيد. **قال ابن كثير**[٣]: ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان، قاله محمد بن كعب القرظيّ؛ قلت: وهذا هو المتبادر للذهن، ويؤيّده سياق الضمائر، فإن قوله ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾ للإنسان، فافتتح الخير عن الإنسان بكونه كنوداً، ثم ثنّاه بكونه شهيداً على ذلك، ثم ختمه بكون بخيلاً بماله لحبّه إيّاه. وقال ابن زيد في قوله ﴿وإنه لحبّ الخير لشديد﴾ قال: الخير الدنيا، وقرأ ﴿إن ترك خيراً الوصية﴾[٤].

﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور﴾ **قال البغوي**[٥]: ﴿أفلا يعلم﴾ هذا الإنسان ﴿إذا بعثر﴾ أثير وأخرج ﴿ما في القبور وحصّل ما في الصدور﴾ قال ابن عباس يقول: أبرز. ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ قال الزجاج: الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره، ولكن المعنى أنه يجاريهم على كفرهم في ذلك اليوم.

• • •

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٤٢).

(٢) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٨٦).

(٣) المصدر السابق (٤/ ٥٤٢).

(٤) وتمامه قوله: «فقلت ــ أي ابن وهب ــ : إن ترك خيراً: بالمال؟ قال: نعم، وأي شيء هو إلاّ المال»؟.

(٥) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٨٦).

﴿سورة القارعة﴾

مكية، وهي إحدى عشرة[1] آية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾.

* * *

عن ابن عباس في قوله ﴿القارعة ما القارعة﴾ قال: هي الساعة. قال البغوي[2]: ﴿القارعة﴾ اسم من أسماء القيار﴾ إلى ﴿كلاّ سوف تعلمون﴾. قال الحسن: هذا وعيد بعد وعيد.

﴿كلاّ لو تعلمون علم اليقين﴾. قال قتادة: كنا نحدّث أنّ علم اليقين أنْ يعلم أنّ الله باعثه بعد الموت. قال البغوي[2]: وجواب «لو» محذوف: أي لو تعلمون علماً يقيناً، لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتفاخر. ﴿لترونّ الجحيم ثم لترونّها

(١) في (الأصل): «عشر»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، رحمه الله ـ وهو الصواب.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٨٧).

عين اليقين﴾ قال البغوي: أي ترونها بأبصاركم من بعيد، ثم لترونها مشاهدة.
وقال ابن كثير[1]: هذا تفسير الوعيد المتقدّم، وهو قوله ﴿كلاّ سوف تعلمون ثم كلاّ سوف تعلمون﴾ توعّدهم بهذا الحال، وهو رؤية النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خرّ كلّ مالك مقرّب ونبيّ مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال. ﴿ثم لتسئلنّ يومئذ عن النعيم﴾ قال قتادة: إن الله عز وجل سائل كلّ عبد عما استودعه ممن نعمه وحقّه.

● ● ●

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٤٨٩).

﴿سورة العصر﴾

مكية، وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾.

* * *

قال ابن كثير[١]: ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب، وذلك قبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدّة؟ فقال: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة، فقال: وما هي؟ فقال ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر﴾؛ ففكّر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وَبَر يا وَبَر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنّي أعلم أنّك تكذب.

قال الشافعيّ رحمه الله: لو تدبّر الناس هذه السورة لوسعتهم. وعن ابن عباس في قوله ﴿والعصر﴾ قال: العصر ساعة من ساعات النهار.

وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾: أي خسران. ﴿إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال مجاهد: إلاَّ من آمن. ﴿وتواصوا بالحقّ وتواصوا

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٤٨٩).

بالصبر﴾ قال قتادة: الحقّ كتاب الله، والصبر طاعة الله. **وقال ابن القيّم**[١]: (ولمّا كان الإنسان له قوّتان: قوّة العلم، وقوة العمل؛ وله حالتان: حالة يأتمر فيها بأمر غيره، وحالة يأمر فيها غيره، استثنى سبحانه من كمّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وانقاد لأمر غيره له بذلك، وأمر غيره به، من الإنسان الذي هو في خسر؛ فإن العبد له حالتان: حالة كمال في نفسه، وحالة تكميل لغيره، وكماله وتكميله موقوف على أمرين: علم بالحقّ، وصبر عليه؛ فتضمَّنت الآية جميع مراتب الكمال الإنسانيّ من العلم النافع، والعمل الصالح، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به، وانقياده، وقبوله لمن يأمره بذلك).

• • •

(١) انظر «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٩٢).

﴿سورة الهمزة﴾

مكية، وهي تسع[١] آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

* * *

عن قتادة ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ أما الهمزة فآكل لحوم الناس، وأما اللمزة فالطعّان عليهم. قال ابن إسحاق: ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أميّة بن خلف. وقال مجاهد: هي عامّة في حقّ كلّ مَنْ هذه صفته.

قال البغوي[٢]: ثم وصفه فقال ﴿الذي جمع مالاً وعدّده﴾ أحصاه ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ في الدنيا، يظنّ أنه لا يموت مع يساره. ﴿كلّا﴾ ردّ عليه، أي لا يخلده ماله. ﴿لينبذنّ﴾ ليطرحنّ ﴿في الحطمة﴾ في جهنّم، والحطمة من أسماء النار، سمّيت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها. ﴿وما أدراك ما الحطمة نار الله

(١) في (الأصل): «تسعة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ـ رحمه الله ـ وهو الصواب.

(٢) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٤٩٢).

الموقدة التي تطّلع على الأفئدة﴾: أي التي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ مطبقة مغلقة ﴿في عمد ممدّدة﴾ قال مقاتل: أطبقت الأبواب عليهم ثم سدّت بأوتاد من حديد من نار، حتى يرجع عليهم غمّها وحرّها، فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم روح. والممدّدة: من صفة العمد: أي مطوّلة، فتكون أرسخ من القصيرة؛ عياذاً بالله من ذلك.

• • •

الدرس العاشر بعد الثلاثمائة

﴿سـورة الفـيـل﴾

مكيّة، وهي خمس(١) آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

* * *

عن ابن مسعود في قوله ﴿طيراً أبابيل﴾ قال: فرق. وقال ابن عباس: هي التي يتبع بعضها بعضاً. وقال قتادة: الأبابيل الكثيرة.

قال ابن عباس: وكانت طيراً لها خراطيم الطير، وأكفّ كأكفّ الكلاب. وقال عبد بن عمير: هي طير سود بحرية، في أظافرها ومناقرها الحجارة.

قال ابن إسحاق: ثم إن أبرهة بنى القُلَّيْس بصنعاء، فبنى كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، ثم كتب إلى النجاشيّ: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حجّ العرب،

---

(١) في (الأصل): «خمسة»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

فلما تحدّثت العرب بذلك غضب رجل من النسأة الذين كانوا ينسأون الشهور على العرب في الجاهلية، فخرج حتى أتى القليس فقعد فيها ــ يعني أحدث ــ ثم خرج فلحق بأرضه، فأخبر بذلك أبرهة، قال: من صنع هذا؟ فقيل له: صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحجّ العرب إليه بمكّة، لما سمع قولك: أصرف إليها حاج[1] العرب؛ فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه.

ثم أمر الحبشة فتهيّأت وتجهّزت، ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وقطعوا به، ورأوا جهاده حقّاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نَفْر، دعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده، فأجابه إلى ذلك من أجابه ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نَفْر وأصحابه وأخذ فأتي به أسيراً، فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلاً حليماً.

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب في قبيلتي خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ نفيل أسيراً، فأتي به فلما همّ بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم وناهس بالسمع والطاعة؛ فخلّى سبيله وخرج به معه يدلّه، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيننا هذا البيت الذي تريد ــ يعنون اللات ــ إنما تريد البيت الذي بمكّة، ونحن نبعث معك من يدلّك عليه، فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبا رغال يدلّه على الطريق إلى مكة؛ فخرج معه حتى أنزله المغمس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت قبره العرب.

---

(١) في (الأصل): «حج»، وكذا في النسخة التي بخط المؤلف، والمثبت من تفسير ابن جرير.

فلما نزل[١] أبرهة المغمّس بعث رجلاً من الحبشة على خيل له حتى انتهى إلى مكّة، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ـ وهو يومئذ كبير قريش وسيّدها ـ فهمّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميريّ إلى مكّة وقال له: سل عن سيّد أهل هذا البلد وشريفها ثم قل له: إن الملك يقول لك: إنّي لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم ترضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن هو لم يرد حربي فأتني به. فلما دخل حناطة مكّة سأل عن سيّد قريش وشيرفها فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه. فقال حناطة: فانطلق معي إليه فإنه قد أمرني أن آتيه بك.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نفر ـ وكان له صديقاً ـ حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له: يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدوّاً أو عشيّاً؟ ما عندنا غناء في شيء مما نزل بك، إلاّ أن أنيساً سائس الفيل صديق لي، وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقّك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال حسبي. فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: إن عبد المطلب سيّد قريش وصاحب عير مكّة، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت. فقال: أفعل.

فكلّم أنيس أبرهة فأذن له، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم

(١) في (الأصل): «نزله» وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وهو الصواب.

وأعظمهم، فلما رآه أبرهة أجلّه وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلّمني فيه؟ قال له عبد المطلب: إنّي أنا ربّ الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه. قال: ما كان لمتنع منّي قال: أنت وذاك. فردّ أبرهة على عبد المطّلب الإبل التي أصاب له.

فلما انصرف عبد المطلب إلى قريش أخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكّة والتحرّز في شعف الجبال والشعاب تخوّفاً عليهم من معرّة الجيش، ثم قام عبد المطّلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهـمّ إن العبـد يمنـع   رحلـه فـامنـع حـلالـك
لا يغلبـن صليبهـم   ومحـالهـم أبـداً محـالـك
إن كنـت تـاركهـم وقبلتنـا   فـأمـر مـا بـدالـك

ثم أرسل عبد المطّلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكّة إذا دخلها؛ فلما أصبح أبرهة تهيّأ لدخول مكّة وهيّأ فيله وعبّأ جيشه ــ وكان اسم الفيل محموداً ــ وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجّهوا الفيل إلى مكّة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشداً، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتدّ حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فنزعوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه

راجعاً إلى اليمن فقام يهرول، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجّهوه إلى مكّة فبرك؛ فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كلّ طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلاّ هلك، وليس كلّهم أصابت؛ وخرجوا هاربين يتبدرون الطريق الذي منه جاؤوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته.

أيـن المفـرّ والإلـه الطـالـب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب؟

وقال أيضاً:

ألا حُيّيــت عنــا يــا رُدَيْنَـا ... نَعِمْنـاكُـمْ مـع الإصبـاح عَيْنـا

أتــانــا قــابــس منكــم عشــاء ... فلـم يقــدر لقــابسكـم لَـدْينـا

رُدَيْنَـةُ لــو رأيــت ولا تــريــه ... لدى جَنْب المحصّب ما رأينا

إذاً لعـذرتِنـي وحمـدتِ أمـري ... ولـم تأسَيْ على ما فـات بينـا

حمـدتُ الله إذ أبصـرت طيــراً ... وخفــت حجــارة تلقــى علينــا

وكــلُّ القــوم يســأل عــن نفيــل ... كــأنّ علــيّ للحبشــان دَيْنــا

فخرجوا يتساقطون بكلّ طريق ويهلكون بكلّ مهلك على كلّ منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلّما سقطت منه أنملة اتبعتها منه مدّة تمثّ قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه. فلما بعث الله تعالى محمداً ﷺ، كان مما يعدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة، فقال الله تبارك وتعالى ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجّيل فجعلهم كعصف مأكول﴾. وقال ﴿لإيلاف

قريش إلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي إطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾: أي لئلاّ يغيّر شيئاً من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه، فلما ردّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم من النقمة، أعظمت العرب قريشاً وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم، فقالوا في ذلك أشعاراً، فقال عبد الله بن الزبعريّ:

تنكلوا عن بطن مكة إنها ... كانت قديما لا يرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالي حرمت ... إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ... ولسوف يُنْبي الجاهلين عليمُها
ستون ألفاً لم يؤوبوا أرضهم ... ولم يعش بعد الإياب سقيمُها
كانت بها عادٌ وجُرْهُمُ قبلهم ... والله من فوق العباد يُقيمها

وقال أبو قيس بن الأسلت:

فقوموا فصلّوا ربّكم وتمسّحوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدّقٌ ... غداة أبي يكسوم[1] هادي الكتائب
كتيبة بالسهل تمشي ورجله ... على القاذفات في رؤوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردّهم ... جنودُ المليك بين سافٍ وحاصِب
فولّوا سراعاً هاربين ولم يؤب ... إلى أهله ملحبش غير عاصب

[انتهى ملخصاً][2]

• • •

---

(١) في (الأصل): «يكوم»، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف، وسيرة ابن هشام (١/ ١٠٠).

(٢) ما بين المعقوفتين: إضافة من النسخة التي بخط المؤلف وانظر هذه القصة ــ قصة الفيل ــ في سيرة ابن هشام (١/ ٨٢ ــ ١٠١).

﴿سورة قريش﴾

مكية، وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤ ﴾.

* * *

قال الزجاج: المعنى جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش: أي أهلك أصحاب الفيل لتبقى قريش وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف.

وعن مجاهد ﴿لإيلاف قريش﴾ قال: نعمتي على قريش ﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ قال: إيلافهم ذلك فلا يشقّ عليهم. وعن ابن عباس في قوله ﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾ يقول: لزومهم. وعن أبـي صالح ﴿لإيلاف قريش إيلافهم﴾ قال: كانوا تجّاراً، فعلم الله حبّهم للشام. وعن قتادة ﴿لإيلاف قريش﴾ قال: عادة قريش، عادتهم رحلة الشتاء والصيف. قال ابن زيد: كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام، والشتاء إلى اليمن.

﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال قتادة: كانوا يقولون: نحن من حرمة الله، فلا يعرض لهم أحد. **قال ابن كثير**[(١)] **وقوله تعالى**: ﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت﴾: أي فليوحّدوه بالعبادة وحده لا شريك

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٥٣).

له، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً؛ ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه؛ كما قال تعالى ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كلّ مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾[1]. انتهى ملخصاً.

● ● ●

(١) سورة النحل: الآية ١١٢.

الدرس الحادي عشر بعد الثلاثمائة

﴿سـورة المـاعـون﴾

مكية، وهي سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

* * *

قال في جامع البيان ﴿أرأيت﴾ الاستفهام للتعجّب ﴿الذي يكذّب بالدين﴾ بالجزاء والبعث. ﴿فذلك الذي يدعّ اليتيم﴾ قال قتادة: يقهره ويظلمه ﴿ولا يحضّ على طعام مسكين﴾ قال ابن كثير[1]: يعني الفقير الذي لا شيء له يقوم بأوده وكفايته.

﴿فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ قال ابن عباس: الذين يؤخّرونها عن وقتها. وقال ابن أبزى: الذين يؤخّرون الصلاة المكتوبة حتى تخرج من الوقت. وعن مجاهد ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ قال: لاهون. وقال الضحاك في قوله ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون﴾ يعني المنافقين، ﴿ويمنعون الماعون﴾ قال ابن عباس: العارية. وقال ابن عباس: ﴿الماعون﴾ ما يتعاطى الناس بينهم من الفأس، والقِدرْ، والدلو، وأشباه ذلك.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٥٤).

﴿سـورة الكـوثـر﴾

مكية، وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾.

* * *

قال ابن عمر: «الكوثر نهر في الجنّة حافتاه ذهب وفضّة، يجري على الدرّ والياقوت ماؤه، أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل»(١). وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنّة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل»(٢). متفق عليه واللفظ لأحمد.

وعن مجاهد ﴿فصلّ لربّك وانحر﴾ قال: الصلاة المكتوبة ونحر البدن. ﴿وإن شانئك هو الأبتر﴾ قال ابن عباس يقول: عدوّك. وعن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: «دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له فإذا هلك انقطع ذكره، فأنزل الله هذه السورة»(٣).

---

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦٣)، وبنحوه والبخاري (ح/ ٤٩٦٤)، ومسلم (١/ ٣٠٠ و ٣٠١).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٥٩)، وبهذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير وقتادة. وقال بعضهم: إنها نزلت في عقبة بن أبي معيط، وبهذا روي عن شمر بن عطية، وعكرمة وغيرهم. وقال بعضهم: إنها نزلت في كعب الأشرف، وبهذا روي عن ابن عباس، قلت: وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في شخص معين، إلاّ أنها عامة لجميع من أبغض وعادى رسول الله ﷺ على العصور والدهور، والله أعلم.

﴿سورة الكافرون﴾

مكية، وهي ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

* * *

روى مسلم عن أبي هريرة: «أن النبيّ ﷺ قرأ في ركعتي الفجر ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾»[1]. وروى أحمد وغيره أن أبيّ بن كعب قال: «كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سبّح اسم ربك الأعلى﴾ و: ﴿قل يا أيّها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾»[2].

قال البغوي[3]: نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد هلمّ فاتبع ديننا ونتّبع دينك ونشركك في أمرنا كلّه، تعبد آلهتنا ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه أخذنا حظّنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظّك منه؛ فقال: «معاذ الله أن أشرك به غيره»، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد آلهك، فقال: «حتى أنظر ما يأتي من عند

---

(١) أخرجه مسلم (ح/٧٢٦).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/١٢٣)، وأبو داود (ح/١٤٢٣)، والنسائي (٣/٣٤٤)، وابن ماجه (ح/١١٧)، وله شاهد من حديث ابن عباس رضي الله عنه، أخرجه مسلم (ح/٢٩٨٦) بنحوه.

(٣) انظر «معالم التنزيل» (٤/٥٠٥).

ربّـي»، فأنزل الله عز وجل ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ إلى آخر السورة؛ فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه[1].

ومعنى الآية: ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾ في الحال ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الحال ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ في الاستقبال ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ في الاستقبال؛ وهذا الخطاب لمن سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون. ﴿لكم دينكم﴾ الشرك ﴿ولي دين﴾ الإسلام.

• • •

(١) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٣٣١) عن ابن عباس.

﴿سورة النصر﴾

مدنية، وهي ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾.

* * *

عن مجاهد ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فتح مكّة ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ قال: زمراً زمراً ﴿فسبّح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً﴾ قال: اعلم أنك ستموت عند ذلك. وعن قتادة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ قرأها كلّها، قال ابن عباس: «هذه السورة عَلَمٌ وحَدٌّ حَدَّه الله لنبيّه ﷺ ونعى له نفسه: أي أنك لن تعيش بعدها إلاّ قليلاً»، قال قتادة: «والله ما عاش بعد ذلك إلاّ قليلاً، سنتين ثم توفّي ﷺ». وقال مجاهد: «لما نزلت [﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾][1] ونعيت إلى النبيّ ﷺ نفسه، [كان][2] لا يقوم من مجلس يجلس فيه حتى يقول: سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[3]، وروى الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ حتى ختم

---

(١) ما بين المعقوفتين إضافة من تفسير ابن جرير.

(٢) ما بين المعقوفتين إضافة من النسخة التي بخط المؤلف رحمه الله.

(٣) هذا الحديث من رواية أبي العالية، لا من رواية مجاهد كما توهمه المؤلف رحمه الله، فقد أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٣٣٠) عن أبي العالية مرسلاً.

السورة قال: نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين نزلت؛ قال: فأخذ بأشدّ ما كان قطّ اجتهاداً في أمر الآخرة. وقال رسول الله ﷺ: «بعد ذلك جاء الفتح ونصر الله وجاء أهل اليمن» فقال رجل: يا رسول الله وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة قلوبهم، ليّنة طباعهم، الإيمان يَمان والفقه يَمان»؛ وفي رواية: «والحكمة يمانيّة»[١].

● ● ●

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٥)، وابن جرير (٣٠/ ٣٣٢)، والطبراني (١١/ ٣٢٨)، وهو صحيح.

﴿سورة المسد﴾

مكية، وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

* * *

عن قتادة ﴿تبّت يدا أبي لهب﴾: أي خسرت ﴿وتبّ﴾ قال ابن كثير[1]: الأول دعاء عليه، والثاني خبر عنه. وقال ابن عباس: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا ثم نادى: «يا صباحاه». فاجتمع الناس إليه، فبين رجل يجيء وبين آخر يبعث رسوله، فقال: «يا بني هاشم، يا بني عبد المطّلب، يا بني فهر، يا بني يا بني، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد تغير عليكم صدّقتموني؟» قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا دعوتنا؟ فنزلت ﴿تبّت يدا أبي لهب وتبّ﴾[2]. وعن ربيعة بن عباد الديلي[3] قال: رأيت النبيّ ﷺ في

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ١٣٩٤ و ٣٥٢٥ و ٤٨٠١ و ٤٩٧١ و ٤٩٧٢ و ٤٩٧٣)، ومسلم (ح/ ٢٠٨).

(٣) في (الأصل): «الديلمي»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلاّ الله تفلحوا». والناس مجتمعون عيله، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمّه أبو لهب»[١].

وعن مجاهد ﴿ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾ قال: ما كسب: ولده، وعن ابن عباس أنه رأى يوماً ولد أبي لهب يقتتلون فجعل يحجز بينهم ويقول: هؤلاء مما كسب. ﴿سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمّالة الحطب﴾ قال ابن عباس: كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبيّ ﷺ ﴿في جيدها﴾: أي عنقها: ﴿حبل من مسد﴾ قال ابن زيد: من شجر ينبت باليمن يقال له مسد. قال الضحاك وغيره: في الدنيا من ليف، وفي الآخرة من نار.

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: «لما نزلت ﴿تبّت يدا أبي لهب﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهد وهي تقول: مذمّماً أبينا ودينه قلبنا وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك، فقال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني» وقرأ قرآناً اعتصم به، كما قال تعالى ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، قال: لا وربّ هذا البيت ما هجاك؛ فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني ابنة سيّدها»[٢]. رواه ابن أبي حاتم. والله أعلم.

• • •

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٢ و ٤/ ٣٤١).

(٢) أخرجه الحميدي في مسنده (١/ ١٥٤)، ومن طريقه ابن أبي حاتم كما عزاه له ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٦٤ ــ ٤٦٥)، والحاكم (٢/ ٣٦١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

الدرس الثاني عشر بعد الثلاثمائة

﴿سـورة الإخلاص﴾

مكيّة، وهي أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

* * *

عن أبـيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبـيّ ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾. رواه أحمد وغيره. زاد ابن جرير: قال: «﴿الصمد﴾ الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلاّ سيموت وليس شيء يموت إلاّ سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث. ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولم يكن له شبيه ولا عديل وليس كمثله شيء»(١).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٣ ــ ١٣٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٢٤٥)، والترمذي (ح/ ٣٣٦٤)، وابن جرير (٣٠/ ٣٤٢)، وابن أبـي عاصم (١/ ٢٩٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (ح/ ٨٨)، والحاكم (٢/ ٥٤٠) وصححه ووافقه الذهبي، قلت: وفي سنده أبو سعد محمد بن مُيَسَّر الصاغاني، وهو ضعيف، وكذلك أبو جعفر الرازي، وهو سيِّـىء الحفظ، قال البخاري: «فيه اضطراب» ثم أورده الترمذي مرسلاً (رقم ٣٣٦٥) عن =

وعن أبـي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكلّ شيء نسبة، ونسبة الله ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ والصمد ليس بأجوف»[١]. رواه الطبراني.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبـيّ ﷺ بعث رجلاً على سريّة، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبـيّ ﷺ فقال: «سلوه لأيّ شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن عزّ وجلّ، وأنا أحبّ أن أقرأ بها، فقال النبـيّ ﷺ: «أخبروه أن الله تعالى يحبّه»[٢]. متفق عليه.

وعن أبـي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يردّدها، فلما أصبح جاء إلى النبـيّ ﷺ فذكر ذلك له ــ وكأن الرجل يتقالّها ــ فقال النبـيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن»[٣]. رواه البخاري.

وعن أبـي هريرة قال: أقبلت مع النبـيّ ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت» قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنّة»[٤]. رواه مالك والترمذي والنسائي.

وعن عبد الله بن خبيب قال: أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول الله ﷺ

= أبـي العالية بنحو وقال: «فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبَـيّ بن كعب، وهذا أصح من حديث أبـي سعد. . .». اهـ.

فالترمذي أعل الحديث بالإرسال، بل قبله البخاري ــ رحمه الله ــ في تاريخه (١/ ٢٤٥).

(١) أخرجه الطبراني كما في «مجمع البحرين» (٦/ ٩٠) بسند ضعيف جداً.

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٧٣٧٥)، ومسلم (ح/ ٨١٣).

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٥٠١٣ و ٦٦٤٣ و ٧٣٧٤)، ومسلم (ح/ ٨١١ و ٨١٢).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٢٠٨)، والترمذي (ح/ ٢٨٩٧) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٦)، والحاكم (١/ ٥٦٦)، وصححه ووافقه الذهبـي، قلت: وسنده حسن، وله شاهد من حديث أبـي أمامة، ومن حديث شيخ أدرك النبـي ﷺ.

يصلّي بنا، فخرج فأخذ بيدي فقال: «قل» فسكتّ قال: «قل» قلت: ما أقول؟ قال: « ﴿قل هو الله أحد﴾ والمعوّذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كلّ يوم مرتين»[١]. رواه عبد الله بن الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

وعن معاذ بن أنس الجهنيّ عن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى يختمها عشر مرات، بنى الله له قصراً في الجنّة»، فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأطيب»[٢].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد فإذا رجل يصلّي يدعو يقول: اللهمّ إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلاّ أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال: «والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»[٣]. رواه أهل السنن.

وعن عائشة: «أن النبيّ ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلّ ليلة، جمع كفّيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما ﴿قل هو الله أحد﴾ و ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرّات»[٤]. رواه البخاري وغيره.

قوله عز وجل: ﴿قل هو الله أحد﴾ قال ابن جرير[٥]: **﴿قل﴾** يا محمد لهؤلاء

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/ ٣١٢)، وأبو داود (ح/ ٥٠٨٢)، والترمذي (ح/ ٣٥٧٠)، وقال: «حسن صحيح غريب من هذا الوجه»، والنسائي (٨/ ٢٥١)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٧) بسند ضعيف.

(٣) سبق تخريجه في كتاب «كشف ما ألقاه إبليس» (ص ٩٢ ـــ ٩٣) وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه البخاري (ح/ ٥٠١٧ و ٥٧٤٨ و ٦٣١٩).

(٥) انظر «جامع البيان» (٣٠/ ٣٤٣).

السائلين عن نسب ربك وصفته ﴿هو الله﴾ الذي له عبادة كلّ شيء، لا تنبغي العبادة إلاَّ له ولا تصلح لشيء سواه. وقال ابن كثير ﴿قل هو الله أحد﴾: يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له، ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل؛ ولا يطلق هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلاَّ على الله عز وجل، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

قوله عز وجل: ﴿الله الصمد﴾ قال ابن عباس: «**الصمد الذي ليس بأجوف**». وقال الشعبي: «الصمد الذي لا يطعَم الطعام». وقال أبو العالية: «الصمد الذي لم يلد ولم يولد». وعن ابن عباس في قوله ﴿الصمد﴾ يقول: «السيّد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغنيّ الذي قد كمل في غناه، والجبّار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلاَّ له»، وقال قتادة: «الصمد الدائم».

قال ابن كثير(١): وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنّة له، بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال: وكلّ هذه صحيحة، وهي صفات ربّنا عزّ وجلّ، هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه.

قوله عز وجل: ﴿لم يلد ولم يولد﴾: أي ليس له ولد ولا والد؛ قال تعالى ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتّخذ ولداً إن كلّ من في السموات والأرض إلاَّ آتى الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٧٠).

وكلّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[١]؛ وقال تعالى ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبّره تكبيراً﴾[٢]. وفي صحيح البخاري عن النبيّ ﷺ قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»[٣].

قوله عز وجل: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ قال ابن عباس: ليس كمثله شيء، فسبحان الله الواحد القهّار. وعن مجاهد ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ قال: صاحبة؛ وقد قال تعالى ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون بديع السموات والأرض أنّي يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلّ شيء وهو بكلّ شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلاّ هو خالق كلّ شيء فاعبدوه وهو على كلّ شيء وكيل﴾[٤] وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «قال الله عز وجل كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته؛ وأما شتمه إيّاي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد»[٥].

قال أبو العباس بن سريج[٦] في تفسير قوله ﷺ في سورة قل هو الله أحد إنها تعدل ثلث القرآن: «إن الله أنزل القرآن على ثلاثة أقسام: ثلث منه أحكام، وثلث

(١) سورة مريم: الآية ٨٨ ــ ٩٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٣) أخرجه البخاري (ح/ ٦٠٩٩ و ٧٣٧٨)، ومسلم (ح/ ٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) سورة الأنعام: الآيات ١٠٠ ــ ١٠٢.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) انظر: «جواب أهل العلم والإيمان» لابن تيمية (ص ٩ و ٦٢).

منه وعد ووعيد، وثلث منه الأسماء والصفات؛ وهذه السورة جمعت القسم الثالث». قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا القول هو الصواب.

قلت: ويحسن إعادة ذكر الأسماء الحسنى ههنا، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مائة إلاَّ واحداً، من أحصاها دخل الجّنة، وهو وتر يحبّ الوتر»[1].

زاد الترمذي بعد قوله وهو قوله: «وهو وتر يحبّ الوتر: هو الله الذي لا إله إلاَّ هو الرحمٰن الرحيم الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر الخالق البارىء المصوّر الغفّار القهّار الوهّاب الرزّاق الفتّاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعزّ المذلّ السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العليّ الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحقّ الوكيل القويّ المتين الوليّ الحميد المحصي المبدىء المعيد المحي المميت الحيّ القيّوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدّم المؤخّر الأوّل الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البرّ التوّاب المنتقم العفوّ الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنيّ المغني المعطي المانع الضارّ النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور».

• • •

(١) الحديث سبق تخريجه، والزيادة التي رواها الترمذي وغيره، إنما هي مدرجة من بعض الرواة، وليست من قول النبي ﷺ.

الدرس الثالث عشر بعد الثلاثمائة

﴿سورة الفلق﴾

مكية، هي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

* * *

﴿سورة الناس﴾

مكية، وهي ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

* * *

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهنّ قطّ؟ ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾ »[(١)]. رواه مسلم وغيره. وفي رواية لأحمد: بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب، إذ قال لي: «يا عقبة ألاّ تركب؟» قلن: فأشفقت أن تكون معصية، فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنيّة ثم قال: «يا عقبة، ألاّ أعلّمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس»؟ قلت: بلى يا رسول الله. فأقرأني ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾؛ ثم أقيمت الصلاة فتقدّم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مرّ بـي فقال: «كيف رأيت يا عقبة؟ اقرأ بهما كلّما نمت وكلّما قمت»[(٢)].

وفي رواية: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوّذات في دبر كلّ صلاة»[(٣)].

وللنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الناس لم يتعوّذوا بمثل هذين ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ و ﴿قل أعوذ بربّ الناس﴾»[(٤)].

وروى الترمذي وغيره عن أبـي سعيد: «أن رسول الله ﷺ كان يتعوّذ من أعين الجانّ وأعين الإنسان، فلما نزلت المعوّذتان أخذ بهما وترك ما سواهما»[(٥)].

قوله عز وجل ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ

(١) أخرجه مسلم (ح/ ٨١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٤)، وأبو داود (ح/ ١٤٦٢)، والنسائي (٨/ ١٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو داود (ح/ ١٥٢٣)، والترمذي (ح/ ٢٩٠٥)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي (٣/ ٦٨).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٢).

(٥) أخرجه الترمذي (ح/ ٢٠٥٩) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٢٧١)، وابن ماج (ح/ ٣٥١١)، قال ابن كثير في تفسيره (٥٧٧٤) بعدما أورد هذه الأحاديث مع طرقها: «فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث».

غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

عن الحسن في هذه الآية ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ قال: الفلق الصبح. ﴿من شرّ ما خلق﴾ قال ابن كثير[١]: أي من شرّ جميع المخلوقات. ﴿ومن شرّ غاسق إذا وقب﴾ قال الحسن: أول الليل إذا أظلم. ﴿ومن شرّ النفّاثات في العقد﴾ قال: السواحر والسحرة. ﴿ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾ قال قتادة: من شرّ عينه ونفسه. وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهنّ ــ قال سفيان: وهذا أشدّ ما يكون من السحر إذا كان كذا ــ فقال: «يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما أستفتيته؟ أتاني رجلان فقعدا أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم ــ رجل من بني زريق حليف ليهود كان منافقاً ــ قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاطة، قال: وأين؟ قال: في جفّ طلعة ذكر، تحت راعوفة في بئر ذروان». قالت: فأتى البئر حتى استخرجه، فقال: «هذه البئر التي أُريتُها، وكأن ماءها نقاعة الحناء، كأن نخلها رؤوس الشياطين»، قال: فاستخرج فقلت: أفلا تنشّرت؟ وفي رواية لمسلم: أفلا أحرقته؟ ــ قال القرطبي: يعني لبيد ــ فقال: «أما الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرّاً»[٢]. رواه البخاري.

وروى البغوي عن زيد بن أرقم قال: «سحر النبيّ ﷺ رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً، فأتاه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً، فأرسل رسول الله ﷺ عليّاً فاستخرجها فجاء بها، فجعل كلّما حلّ عقدة وجد لذلك خفّة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال؛ فما ذكر لليهوديّ ولا

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح/ ٣٢٦٨ و ٥٧٦٣ و ٥٧٦٥ و ٥٧٦٦)، ومسلم بنحوه (ح/ ٢١٨٩).

رآه في وجهه قطّ»[١]. قال مقاتل والكلبيّ: كان في وتد عقد عليه إحدى عشرة عقدة؛ وقيل: كانت العقد مقرونة بالإبر، فأنزل الله هاتين السورتين، وهي إحدى عشرة آية، كلّما قرأ آية انحلّت عقدة، حتى انحلّت العقد كلّها، فقام النبيّ ﷺ كأنما نشط من عقال.

وساق بسنده عن أبي سعيد أن جبريل عليه السلام أتى النبيّ ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: «نعم». قال: بسم الله أرقيك، من كلّ شيء يؤذيك، من شرّ كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، بسم الله أرقيك»[٢].

قوله عز وجل ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

قال ابن كثير[٣]: هذه ثلاث صفات من صفات الربّ عزّ وجلّ: الربوبية، والملك، والإلهية، فهو ربّ كلّ شيء ومليكه وإلهه، فجميع الأشياء مخلوقة له، مملوكة عبيد له، فأمر المستعيذ أن يتعوّذ بالمتّصف بهذه الصفات من شرّ الوسواس الخنّاس وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلاّ وله قرين يزيّن له الفواحش ولا يألوه جهداً في الخبال، والمعصوم من عصمه الله.

وعن ابن عبّاس في قوله ﴿الوسواس الخنّاس﴾ قال: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس»[٤]. وقال قتادة: يعني الشيطان يوسوس في صدر ابن آدم ويخنس إذا ذكر الله.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٧)، والنسائي (٧/ ١١٣)، والبغوي في تفسيره (٤/ ٥١٦).

(٢) أخرجه مسلم (ح/ ٢١٨٦).

(٣) انظر «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٧٤).

(٤) أخرجه ابن جرير (٣٠/ ٣٥)، وبمعناه موقوفاً عن ابن عباس أيضاً: أخرجه البخاري معلقاً (٣/ ٣٣٥).

قال البغوي[1]: ﴿الذي يوسوس في صدور النّاس﴾ بالكلام الخفيّ الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع. ﴿من الجنّة والنّاس﴾ يعني يدخل في الجنّيّ كما يدخل في الإنسيّ، ويوسوس الجنّيّ كما يوسوس الإنسيّ. قال الكلبي وقوله: ﴿في صدور النّاس﴾ أراد بالنّاس ما ذكر من بعد، وهو الجِنّة والنّاس، فسمّى الجن ناساً كما سمّاهم رجالاً فقال ﴿وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ﴾[2]. وقد ذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث: جاء قوم من الجنّ فوقعوا فقيل: من أنتم؟ قالوا: أناس من الجنّ. وهذا معنى قول الفرّاء: قال بعضهم: ثبت أن الوسواس للإنسان من الإنسان كالوسوسة للشيطان من الشيطان؛ فجعل الوسواس من فعل الجنّة والناس جميعاً، كما قال ﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدواً شياطين الإنس والجنّ﴾[3]؛ كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ والإنس جميعاً. انتهى. وقال بعضهم: فكما أن شيطان الجنّ يوسوس تارة ويخنس أخرى، فكذلك شيطان الإنس يرى نفسه كالناصح المشفق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إني لأحدّث نفسي بالشيء لأن أخِرّ من السماء أحبّ إليّ من أن أتكلم به، فقال النبيّ ﷺ: «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة»[4]. رواه أحمد وغيره. والله أعلم.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» (٤/ ٥١٨).

(٢) سورة الجن: الآية ٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١١٢.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٥)، وأبو داود (ح/ ٥١١٢)، وهو حديث صحيح.

(مناسبة لطيفة)

وقع في حديث أبـي ذرّ الطويل المشهور: أن عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر؛ وفي رواية خمسة عشر؛ وفي رواية بضعة عشر. وقد رواه أحمد وغيره مختصراً ومطوّلاً.

قال محمد بن الحسين الآجريّ: حدّثنا أبو بكر جعفر بن محمد الفريابـيّ[1] إملاء في شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين، حدّثنا إبراهيم بن هشام بن يحيـى الغساني، حدّثنا أبـي عن جدّه عن أبـي إدريس الخولانيّ عن أبـي ذرّ رضي الله عنه قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده فجلست إليه فقلت: يا رسول الله إنّك أمرتني بالصلاة. قال: «الصلاة خيرٌ موضوع، فاستكثر أو استقلّ». قال قلت: يا رسول الله فأيّ الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله». فقلت: يا رسول الله فأيّ المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنهم خلقاً». قلت: يا رسول الله فأيّ المسلمين أسلم؟ قال: من سلم الناس من لسانه ويده» فقلت: يا رسول الله فأيّ الهجرة أفضل؟ قال: من هجر السيّئات». قلت: يا رسول الله أيّ الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت». قلت: يا رسول الله أيّ الصيام أفضل؟ قال: «فرض مجزىء، وعند الله أضعاف كثيرة». قلت: يا رسول الله فأيّ الجهاد أفضل؟ قال: «من عقر جواده وأهريق دمه». قلت: يا رسول الله فأيّ الرقاب أفضل؟ قال: «أغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها». قلت: يا رسول الله فأيّ الصدقة أفضل؟ قال:

---

(١) في (الأصل): «الغريابـي»، وهو خطأ، والمثبت من النسخة التي بخط المؤلف ــ رحمه الله ــ وهو الصواب.

«جهد من مقلّ أوسر إلى فقير». قلت: يا رسول الله فأيّ آية ما أنزل عليك أعظم ؟ قال: «آية الكرسي ـ ثم قال ـ يا أبا ذرّ، وما السموات السبع مع الكرسيّ إلاَّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة». قال قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً». قال قلت: يا رسول الله كم المرسل من ذلك؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جمّ غفير كثير طيّب». قلت: فمن كان أوّلهم؟ قال: «آدم». قلت: أنبـيّ مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وسوّاه قبيلاً ـ ثم قال ـ يا أبا ذرّ، أربعة سريانيّون: آدم، وشيث، وخنوخ ـ وهو إدريس وهو أوّل من خطّ بقلم ـ ونوح؛ وأربعة من العرب: هود، وشعيب، وصالح، ونبيّك يا أبا ذرّ؛ وأوّل أنبياء بني إسرائيل موسى، وآخرهم عيسى، وأوّل الرسل آدم، وآخرهم محمّد». قال قلت: يا رسول الله كم كتاب أنزل الله؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل على موسى من قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان». قال قلت: يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت : يا أيها الملك المسلّط المبتلى المغرور، إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكنّي بعثتك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإنّي لا أردّها ولو كانت من كافر. وكان فيها أمثال. وعلى العاقل أن يكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكّر في صنع الله، وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل أن لا يكون ضاغناً إلاَّ لثلاث: تزوّد لمعاد، ومرمرة لمعاش، ولذّة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلاَّ فيما يعنيه». قال قلت: يا رسول الله فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلّها: عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالمقدّر ثم هو ينصَب،

وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلّبها بأهلها ثم يطمئنّ إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل». قال قلت: يا رسول الله فهل في أيدينا شيء مما كان في أيدي إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك؟ قال: نعم، اقرأ يا أبا ذرّ: ﴿قد أفلح من تزكّى وذكر اسم ربك فصلّى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إنّ هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى﴾ ». قال قلت: يا رسول الله فأوصني، قال: «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس أمرك». قال قلت: يا رسول الله زدني، قال: عليك بتلاوة القرآن وذكر الله، فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض». قال قلت: يا رسول الله زدني، قال: «إياك وكثرة الضحك، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه». قلت: يا رسول الله زدني، قال: «عليك بالجهاد، فإنه رهبانيّة أمّتي». قلت: زدني، قال: «عليك بالصمت إلاّ من خير، فإنّه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك». قلت: زدني، قال: «أنظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك، فإنه أجدر لك لا تزدري نعمة الله عليك». قلت: زدني، قال: «أحبّ المساكين وجالسهم، فإنه أجدر لك أن لا تزدري نعمة الله عليك». قلت: زدني، قال: «صل قرابتك وإن قطعوك». قلت: زدني، قال: «قل الحقّ وإن كان مرّاً». قلت زدني، قال: لا تخف في الله لومة لائم». قلت: زدني، قال: «يردّك عن الناس ما تعرف من نفسك، ولا تجدْ عليهم فيما تحبّ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهل من نفسك، أو تجد عليهم فيما تحب ــ ثم ضرب بيده صدري فقال ــ يا أبا ذرّ، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكفّ، ولا حسب كحسن الخلق»[1]. انتهى. والله أعلم.

● ● ●

---

(١) أخرجه الآجري في «الأربعون حديثاً التي حثَّ النبـي ﷺ على حفظها» (ح/ ٤٠)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (ح/ ٧٤٠)، وابن حبان في الموارد (ح/ ٩٤ و ٢٠٧٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦ ــ ١٦٨)، بسند موضوع.

خـاتـمـة

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، كما يحبّه ربنا ويرضى؛ والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحقّ.

وقد وقع الفراغ من تأليف هذا الكتاب المبارك، في اليوم المبارك، من الشهر المبارك، في يوم الجمعة لستّ وعشرين خلت من رمضان سنة ألف وثلاثمائة وخمس وستين. وابتداؤه في جمادى سنة أربع وستين، فكانت مدّة تأليفه ستة عشر أو سبعة عشر شهراً.

نسألك اللهمّ يا واسع الفضل والإحسان، منزّل التوراة والإنجيل والقرآن، أن لا تدع لنا ذنباً إلاّ غفرته، ولا همّاً إلاّ فرّجته، ولا غمّاً إلاّ كشفته، ولا غيظاً إلاّ أذهبته، ولا غلاًّ إلاّ نزعته، ولا ديناً إلاّ قضيته، ولا مريضاً إلاّ شفيته وعافيته، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة هي لك رضى ولنا صلاح إلاّ قضيتها يا ربّ العالمين. اللهمّ إنا نسألك من الخير كلّه عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم، ونعوذ بك من الشرّ كلّه عاجله وآجله، ما علمنا منه وما لم نعلم، ونسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وعبادك الصالحون، ونعوذ بك من شرّ ما استعاذ منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وعبادك الصالحون، ونسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل، ونسألك أن تجعل كلّ قضاء تقضيه لنا خيراً. سبحان ربك ربّ العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

يـا منــزل الآيــات والفــرقــان — بينــي وبينــك حــرمــة القــرآن
اشـرح بـه صـدري لمعـرفـة الهـدى — واعصــم بــه قلبــي مــن الشيطــان
يسّــر بــه أمــري واقــضِ مــآربــي — وأَجِــرْ بــه جســدي مــن النيــران
واحطــط بــه وزري وأخلــص نيّتــي — واشــدد بــه أزري وأصلــح شــانــي
واكشـف بـه ضـرّي وحقّـق تـوبتـي — وأربِــح بــه بيعــي بــلا خســرانــي
طهّـر بـه قلبــي وصـفّ سـريـرتـي — أجمِــل بــه ذكــرى وأَعْــلِ مكــانــي
واقطــع بــه طمعــي وشــرّف همّتــي — كثّــر بــه ورعــي وأَحْــيِ جَنــانــي
أسهـر بـه ليلـي وأضـم جـوارحـي — أسبــل بفيــض دمــوعهــا أجفــانــي
أُمْــزُجْــهُ ربّــي بلحمــي مـع دمــي — واغســل بــه قلبــي مــن الأضغــانــي
أنــت الــذي صــوّرتنــي وخلقتنــي — وهـــديتنـــي لشـــرائـــع الإيمـــان
أنـــت الـــذي علّمتنــي ورحمتنــي — وجعلــت صــدري واعــيَ القــرآن
أنـــت الـــذي أطعمتنـــي وسقيتنـــي — مــن غيــر كســب يــد ولا دكــان
وجبــرتنــي وســترتنــي ونصــرتنــي — وغمــرتنــي بــالفضــل والإحســان
أنـــت الـــذي آويتنـــي وحبــوتنــي — وهـــديتنـــي مـــن حيــرة الخــذلان
وزرعــت لــي بيــن القلــوب مــودّة — والعطــف منــك بــرحمــة وحنــان
وزرعـت لـي فـي العـالميـن محـاسنـاً — وســترت عــن أبصــارهــم عصيــانــي
وجعلـت ذكـري فـي البـريّـة شـائعـاً — حتــى جعلــت جميعهــم إخــوانــي
لكــن ســتـرت معــايبــي ومثــالــي — وحملــتَ عــن سقطــي وعــن طغيــانــي
ولقــد مننــت علــيّ ربِّ بــأنعــمٍ — مـــالـــي بشكــر أَقَلِّهِـــنّ يـــدان
فلـك المحـامـد والمـدائـح كلّهـا — بخــواطــري وجــوارحــي ولســانــي[1]

(١) من نونية القحطاني الأندلسي، ثم كتب بعد ذلك في هامش (الأصل) ما نصه:
بعون الله تم الجزء الرابع من توفيق الرحمن في دروس القرآن تأليف العلامة الشيخ فيصل ابن عبد العزيز آل مبارك قاضي المحكمة الشرعية بالجوف آخر ما كتبته من خطّه بقلم الفقير =

= إلى ربه والمعترف بذنبه عبد العزيز العقل غفر الله له ولوالديه ولمشايخه، وللسلمين والمسلمات، وصلّى الله على محمد وآله أصحابه وسلم آمين، في ٤ من شهر ذي القعدة عام ١٣٧٥ هـ.

قال محققه عفى الله عنه بمنّه وكرمه: وكان الفراغ من تحقيق هذا الكتاب المبارك ــ حسب الوسع الطاقة ــ للشيخ الجليل فيصل بن عبد العزيز آل مبارك في اليوم المبارك: يوم الجمعة، الموافق للثاني والعشرين من شهر ربيع الأول، من عام ستة عشر وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية المباركة، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وكـتـبـه

أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين من أهل السنَّة

الـريـاض

فهرس الموضوعات
الجزء الرابع

الدرس الخمسون بعد المائتين ٥
﴿سورة الشورى﴾ ٥
الآيات: ١ ــ ٥ .... ٨
الآيات: ٦ ــ ١٢ .... ٩
الآيات: ١٣ ــ ١٨ .... ١١
الآيات: ١٩ ــ ٢٦ .... ١٣
الدرس الحادي والخمسون بعد المائتين ١٥
الآيات: ٢٧ ــ ٣٥ .... ١٧
الآيات: ٣٦ ــ ٤٣ .... ١٨
الآيات: ٤٤ ــ ٥٠ .... ١٩
الآيتان: ٥١ و ٥٢ .... ٢٠
الدرس الثاني والخمسون بعد المائتين ٢٢
﴿سورة الزخرف﴾ ٢٢
الآيات: ١ ــ ٨ .... ٢٤
الآيات: ٩ ــ ١٤ .... ٢٥
الآيات: ١٥ ــ ٢٥ .... ٢٦
الدرس الثالث والخمسون بعد المائتين ٢٩
الآيات: ٢٦ ــ ٣٥ .... ٣٠
الآيات: ٣٦ ــ ٤٥ .... ٣٣
الدرس الرابع والخمسون بعد المائتين ٣٥
الآيات: ٤٦ ــ ٥٠ .... ٣٧
الآيات: ٥١ ــ ٥٦ .... ٣٨
الآيات: ٥٧ ــ ٦٥ .... ٣٩
الآيات: ٦٦ ــ ٧٣ .... ٤٠
الآيات: ٧٤ ــ ٨٠ .... ٤١
الآيات: ٨١ ــ ٨٩ .... ٤٢
الدرس الخامس والخمسون بعد المائتين ٤٥
﴿سورة الدخان﴾ ٤٥
الآيات: ١ ــ ٨ .... ٤٧
الآيات: ٩ ــ ١٦ .... ٤٨
الآيات: ١٧ ــ ٣٣ .... ٥٠
الدرس السادس والخمسون بعد المائتين ٥٢
الآيات: ٣٤ ــ ٤٢ .... ٥٣
الآيات: ٤٣ ــ ٥٠ .... ٥٦
الآيات: ٥١ ــ ٥٩ .... ٥٧
الدرس السابع والخمسون بعد المائتين ٥٩
﴿سورة الجاثية﴾ ٥٩
الآيات: ١ ــ ٥ .... ٦٠
الآيات: ٦ ــ ١١ .... ٦١
الآيات: ١٢ ــ ١٥ .... ٦٢
الدرس الثامن والخمسون بعد المائتين ٦٤
الآيات: ١٦ ــ ٢٠ .... ٦٦

الآيات: ٢١ ــ ٢٣ .... ٦٧
الآيات: ٢٤ ــ ٢٦ .... ٦٨
الآيات: ٢٧ ــ ٣٧ .... ٦٩
الدرس التاسع والخمسون بعد المائتين ٧١
﴿سورة الأحقاف﴾ ٧١
الآيات: ١ ــ ٦ .... ٧٣
الآيات: ٧ ــ ١٤ .... ٧٥
الآيتان: ١٥ و ١٦ .... ٧٦
الآيات: ١٧ ــ ٢٠ .... ٧٧
الدرس الستون بعد المائتين ٧٩
الآيات: ٢١ ــ ٢٨ .... ٨١
الآيات: ٢٩ ــ ٣٢ .... ٨٤
الآيات: ٣٣ ــ ٣٥ .... ٨٧
الدرس الحادي والستون بعد المائتين ٨٩
﴿سورة محمد﴾ ٨٩
الآيات: ١ ــ ٣ .... ٩١
الآيات: ٤ ــ ١١ .... ٩٢
الآيات: ١٢ ــ ١٩ .... ٩٤
الدرس الثاني والستون بعد المائتين . . ٩٨
الآيات: ٢٠ ــ ٢٤ .... ١٠٠
الآيات: ٢٥ ــ ٣٢ .... ١٠٢
الدرس الثالث والستون بعد المائتين . ١٠٦
﴿سورة الفتح﴾ ١٠٦
الآيات: ١ ــ ٧ .... ١٠٨
الآيات: ٨ ــ ١٠ .... ١٠٩
الآيات: ١١ ــ ١٧ .... ١١١
الدرس الرابع والستون بعد المائتين . ١١٤
الآيات: ١٨ ــ ٢١ .... ١١٦
الآيات: ٢٢ ــ ٢٦ .... ١١٨
الآيات: ٢٧ ــ ٢٩ .... ١٢١
الدرس الخامس والستون بعد المائتين ١٢٣
﴿سورة الحجرات﴾ ١٢٣
الآيات: ١ ــ ٥ .... ١٢٥
الآيات: ٦ ــ ٨ .... ١٣٠
الآيتان: ٩ و ١٠ .... ١٣١
الدرس السادس والستون بعد المائتين ١٣٣
الآيات: ١١ ــ ١٣ .... ١٣٤
الآيات: ١٤ ــ ١٨ .... ١٣٧
الدرس السابع والستون بعد المائتين . ١٣٩
﴿سورة ق﴾ ١٣٩
الآيات: ١ ــ ١٥ .... ١٤٢
الآيات: ١٦ ــ ٣٧ .... ١٤٤
الآيات: ٣٨ ــ ٤٥ .... ١٤٨
الدرس الثامن والستون بعد المائتين . ١٥٠
﴿سورة الذاريات﴾ ١٥٠
الآيات: ١ ــ ١٤ .... ١٥٢
الآيات: ١٥ ــ ٢٣ .... ١٥٣
الآيات: ٢٤ ــ ٤٦ .... ١٥٥
الآيات: ٤٧ ــ ٦٠ .... ١٥٧
الدرس التاسع والستون بعد المائتين . ١٦٠

﴿سورة الطور﴾ ١٦٠
الآيات: ١ ـ ١٦ .... ١٦٢
الآيات: ١٧ ـ ٢٨ .... ١٦٤
الآيات: ٢٩ ـ ٤٣ .... ١٦٥
الآيات: ٤٤ ـ ٤٩ .... ١٦٧
الدرس السبعون بعد المائتين ١٦٨
﴿سورة النجم﴾ ١٦٨
الآيات: ١ ـ ١٨ .... ١٧٠
الآيات: ١٩ ـ ٢٨ .... ١٧٣
الآيات: ٢٩ ـ ٣٢ .... ١٧٥
الآيات: ٣٣ ـ ٦٢ .... ١٧٦
الدرس الحادي والسبعون بعد المائتين ١٧٨
﴿سورة القمر﴾ ١٧٨
الآيات: ١ ـ ٨ .... ١٨٠
الآيات: ٩ ـ ١٧ .... ١٨١
الآيات: ١٨ ـ ٣٢ .... ١٨٣
الآيات: ٣٣ ـ ٤٠ .... ١٨٤
الآيات: ٤١ ـ ٤٦ .... ١٨٥
الآيات: ٤٧ ـ ٥٥ .... ١٨٦
الدرس الثاني والسبعون بعد المائتين ١٨٨
﴿سورة الرحمن﴾ ١٨٨
الآيات: ١ ـ ١٣ .... ١٩١
الآيات: ١٤ ـ ٢٥ .... ١٩٢
الآيات: ٢٦ ـ ٤٥ .... ١٩٤
الآيات: ٤٦ ـ ٦١ .... ١٩٦
الآيات: ٦٢ ـ ٧٨ .... ١٩٧
الدرس الثالث والسبعون بعد المائتين ١٩٩
﴿سورة الواقعة﴾ ١٩٩
الآيات: ١ ـ ٢٦ .... ٢٠١
الآيتان: ٢٧ ـ ٤٠ .... ٢٠٣
الآيات: ٤١ ـ ٦٢ .... ٢٠٥
الآيات: ٦٣ ـ ٧٤ .... ٢٠٦
الدرس الرابع والسبعون بعد المائتين ٢٠٩
الآيات: ٧٥ ـ ٨٢ .... ٢١٠
الآيات: ٨٣ ـ ٩٦ .... ٢١٢
الدرس الخامس والسبعون بعد المائتين ٢١٧
﴿سورة الحديد﴾ ٢١٧
الآيات: ١ ـ ٦ .... ٢١٩
الآيات: ٧ ـ ١٠ .... ٢٢٠
الآيات: ١١ ـ ١٥ .... ٢٢١
الآيات: ١٦ ـ ١٩ .... ٢٢٣
الدرس السادس والسبعون بعد المائتين ٢٢٥
الآيتان: ٢٠ و ٢١ .... ٢٢٧
الآيات: ٢٢ ـ ٢٥ .... ٢٢٩
الآيتان: ٢٦ و ٢٧ .... ٢٣٠
الآيتان: ٢٨ و ٢٩ .... ٢٣٢
الدرس السابع والسبعون بعد المائتين ٢٣٤
﴿سورة المجادلة﴾ ٢٣٤
الآيات: ١ ـ ٤ .... ٢٣٧
الآيات: ٥ ـ ٧ .... ٢٣٩

الآيات: ٨ ــ ١٠ . . . . ٢٤٠
الآيات: ١١ ــ ١٣ . . . . ٢٤١
الآيات: ١٤ ــ ٢٢ . . . . ٢٤٢
الدرس الثامن والسبعون بعد المائتين . ٢٤٤
﴿سورة الحشر﴾ ٢٤٤
الآيات: ١ ــ ٦ . . . . ٢٤٧
الآيات: ٧ ــ ١٠ . . . . ٢٥٠
الآيات: ١١ ــ ١٧ . . . . ٢٥٢
الآيات: ١٨ ــ ٢٤ . . . . ٢٥٣
الدرس التاسع والسبعون بعد المائتين ٢٥٦
﴿سورة الممتحنة﴾ ٢٥٦
الآيات: ١ ــ ٦ . . . . ٢٥٨
الآيات: ٧ ــ ٩ . . . . ٢٦١
الآيتان: ١٠ و ١١ . . . . ٢٦٢
الآيتان: ١٢ و ١٣ . . . . ٢٦٤
الدرس الثمانون بعد المائتين ٢٦٦
﴿سورة الصف﴾ ٢٦٦
الآيات: ١ ــ ٤ . . . . ٢٦٨
الآيات: ٥ ــ ٩ . . . . ٢٧٠
الآيات: ١٠ ــ ١٤ . . . . ٢٧٢
الدرس الحادي والثمانون بعد المائتين ٢٧٥
﴿سورة الجمعة﴾ ٢٧٥
الآيات: ١ ــ ٤ . . . . ٢٧٧
الآيات: ٥ ــ ٨ . . . . ٢٧٩
الآيات: ٩ ــ ١١ . . . . ٢٨٠
الدرس الثاني والثمانون بعد المائتين . ٢٨٣
﴿سورة المنافقون﴾ ٢٨٣
الآيات: ١ ــ ٤ . . . . ٢٨٥
الآيات: ٥ ــ ٨ . . . . ٢٨٦
الآيات: ٩ ــ ١١ . . . . ٢٨٩
الدرس الثالث والثمانون بعد المائتين ٢٩١
﴿سورة التغابن﴾ ٢٩١
الآيات: ١ ــ ٤ . . . . ٢٩٣
الآيات: ٥ ــ ١٠ . . . . ٢٩٤
الآيات: ١١ ــ ١٣ . . . . ٢٩٥
الآيات: ١٤ ــ ١٨ . . . . ٢٩٦
الدرس الرابع والثمانون بعد المائتين . ٢٩٩
﴿سورة الطلاق﴾ ٢٩٩
الآيات: ١ ــ ٣ . . . . ٣٠١
الآيات: ٤ ــ ٧ . . . . ٣٠٦
الآيات: ٨ ــ ١٢ . . . . ٣٠٨
الدرس الخامس والثمانون بعد المائتين ٣١١
﴿سورة التحريم﴾ ٣١١
الآيات: ١ ــ ٥ . . . . ٣١٣
الآيات: ٦ ــ ٨ . . . . ٣١٩
الآيات: ٩ ــ ١٢ . . . . ٣٢٠
الدرس السادس والثمانون بعد المائتين ٣٢٣
﴿سورة الملك﴾ ٣٢٣
الآيات: ١ ــ ٥ . . . . ٣٢٥
الآيات: ٦ ــ ١٢ . . . . ٣٢٦

الآيات: ١٣ ـ ٢٢ .... ٣٢٧
الآيات: ٢٣ ـ ٣٠ .... ٣٢٨
الدرس السابع والثمانون بعد المائتين ٣٣١
﴿سورة نون﴾ ٣٣١
الآيات: ١ ـ ١٦ .... ٣٣٣
الآيات: ١٧ ـ ٣٣ .... ٣٣٦
الآيات: ٣٤ ـ ٤٣ .... ٣٣٨
الآيات: ٤٤ ـ ٥٢ .... ٣٤١
الدرس الثامن والثمانون بعد المائتين . ٣٤٣
﴿سورة الحاقة﴾ ٣٤٣
الآيات: ١ ـ ١٢ .... ٣٤٥
الآيات: ١٣ ـ ١٨ .... ٣٤٧
الآيات: ١٩ ـ ٣٧ .... ٣٤٨
الآيات: ٣٨ ـ ٥٢ .... ٣٥٠
الدرس التاسع والثمانون بعد المائتين ٣٥٣
﴿سورة المعارج﴾ ٣٥٣
الآيات: ١ ـ ١٨ .... ٣٥٥
الآيات: ١٩ ـ ٣٥ .... ٣٥٨
الآيات: ٣٦ ـ ٤٤ .... ٣٦٠
الدرس التسعون بعد المائتين ٣٦٢
﴿سورة نوح﴾ ٣٦٢
الآيات: ١ ـ ٤ .... ٣٦٤
الآيات: ٥ ـ ٢٠ .... ٣٦٥
الآيات: ٢٢ ـ ٢٤ .... ٣٦٦
الآيات: ٢٥ ـ ٢٨ .... ٣٦٧
الدرس الحادي والتسعون بعد المائتين ٣٧٠
الآيات: ١ ـ ١٥ .... ٣٧٢
الآيات: ١٦ ـ ٢٤ .... ٣٧٥
الآيات: ٢٥ ـ ٢٨ .... ٣٧٧
الدرس الثاني والتسعون بعد المائتين . ٣٧٩
﴿سورة المزمل﴾ ٣٧٩
الآيات: ١ ـ ١٤ .... ٣٨١
الآيات: ١٥ ـ ١٩ .... ٣٨٣
الآية: ٢٠ .... ٣٨٤
الدرس الثالث والتسعون بعد المائتين ٢٧٥
﴿سورة المدثر﴾ ٣٨٧
الآيات: ١ ـ ١٠ .... ٣٨٩
الآيات: ١١ ـ ٣٠ .... ٣٩٠
الآيات: ٣١ ـ ٣٧ .... ٣٩٣
الآيات: ٣٨ ـ ٥٦ .... ٣٩٤
الدرس الرابع والتسعون بعد المائتين . ٣٩٧
﴿سورة القيامة﴾ ٣٩٧
الآيات: ١ ـ ١٥ .... ٣٩٨
الآيات: ١٦ ـ ١٩ .... ٣٩٩
الآيات: ٢١ ـ ٢٥ .... ٤٠٠
الآيات: ٢٦ ـ ٤٠ .... ٤٠١
الدرس الخامس والتسعون بعد المائتين ٤٠٣
﴿سورة الإنسان﴾ ٤٠٣
الآيات: ١ ـ ٣ .... ٤٠٥
الآيات: ٤ ـ ٢٢ .... ٤٠٦

الآيات: ٢٣ ــ ٣١ .... ٤٠٩
الدرس السادس والتسعون بعد المائتين ٤١١
﴿سورة المرسلات﴾ ٤١١
الآيات: ١ ــ ١٥ .... ٤١٣
الآيات: ١٦ ــ ٢٨ .... ٤١٥
الآيات: ٢٩ ــ ٤٠ .... ٤١٥
الآيات: ٤١ ــ ٥٠ .... ٤١٧
الدرس السابع والتسعون بعد المائتين ٤١٩
﴿سورة النبأ﴾ ٤١٩
الآيات: ١ ــ ١٦ .... ٤٢١
الآيات: ١٧ ــ ٣٠ .... ٤٢٣
الآيات: ٣١ ــ ٤٠ .... ٤٢٥
الدرس الثامن والتسعون بعد المائتين . ٤٢٧
﴿سورة النازعات﴾ ٤٢٧
الآيات: ١ ــ ١٤ .... ٤٢٩
الآيات: ١٥ ــ ٢٦ .... ٤٣١
الآيات: ٢٧ ــ ٣٣ .... ٤٣١
الآيات: ٣٤ ــ ٤٦ .... ٤٣٣
الدرس التاسع والتسعون بعد المائتين ٤٣٤
﴿سورة عبس﴾ ٤٣٤
الآيات: ١ ــ ١٦ .... ٤٣٥
الآيات: ١٧ ــ ٣٢ .... ٤٣٧
الآيات: ٣٣ ــ ٤٢ .... ٤٣٨
الدرس الثلاثمائة ٤٤١
﴿سورة التكوير﴾ ٤٤١
الآيات: ١ ــ ١٤ .... ٤٤٣
الآيات: ١٥ ــ ٢٩ .... ٤٤٥
﴿سورة الانفطار﴾ ٤٤٧
الآيات: ١ ــ ١٢ .... ٤٤٨
الآيات: ١٣ ــ ١٩ .... ٤٤٩
الدرس الواحد بعد الثلاثمائة ٤٥١
﴿سورة المطففين﴾ ٤٥١
الآيات: ١ ــ ٦ .... ٤٥٣
الآيات: ٧ ــ ١٧ .... ٤٥٤
الآيات: ١٨ ــ ٢٨ .... ٤٥٦
الآيات: ٢٩ ــ ٣٦ .... ٤٥٧
﴿سورة الانشقاق﴾ ٤٥٩
الآيات: ١ ــ ١٥ .... ٤٦٠
الآيات: ١٦ ــ ٢٥ .... ٤٦١
الدرس الثاني بعد الثلاثمائة ٤٦٣
﴿سورة البروج﴾ ٤٦٣
الآيات: ١ ــ ١١ .... ٤٦٤
الآيات: ١٢ ــ ٢٢ .... ٤٦٧
﴿سورة طارق﴾ ٤٦٩
الآيات: ١ ــ ١٠ .... ٤٧٠
الآيات: ١١ ــ ١٧ .... ٤٧١
الدرس الثالث بعد الثلاثمائة ٤٧٣
﴿سورة الأعلى﴾ ٤٧٣
الآيات: ١ ــ ١٣ .... ٤٧٤
الآيات: ١٤ ــ ١٩ .... ٤٧٥

﴿سورة الغاشية﴾ ٤٧٧
الآيات: ١ ــ ١٦ .... ٤٧٨
الآيات: ١٧ ــ ٢٦ .... ٤٧٩
الدرس الرابع بعد الثلاثمائة ٤٨١
﴿سورة الفجر﴾ ٤٨١
الآيات: ١ ــ ١٤ .... ٤٨٢
الآيات: ١٥ ــ ٢٠ .... ٤٨٣
الآيات: ٢١ ــ ٣٠ .... ٤٨٤
﴿سورة البلد﴾ ٤٨٨
الآيات: ١ ــ ١٠ .... ٤٨٨
الآيات: ١١ ــ ٢٠ .... ٤٨٩
الدرس الخامس بعد الثلاثمائة ٤٩١
﴿سورة الشمس﴾ ٤٩١
الآيات: ١ ــ ١٠ .... ٤٩٢
الآيات: ١١ ــ ١٥ .... ٤٩٣
﴿سورة الليل﴾ ٤٩٦
الآيات: ١ ــ ١١ .... ٤٩٦
الآيات: ١٢ ــ ٢١ .... ٤٩٨
الدرس السادس بعد الثلاثمائة ٥٠٠
﴿سورة الضحى﴾ ٥٠٠
﴿سورة الشرح﴾ ٥٠٢
﴿سورة التين﴾ ٥٠٤
الدرس السابع بعد الثلاثمائة ٥٠٦
﴿سورة العلق﴾ ٥٠٦
الآيات: ١ ــ ٥ .... ٥٠٦
الآيات: ٦ ــ ١٩ .... ٥٠٨
﴿سورة القدر﴾ ٥١١
الدرس الثامن بعد الثلاثمائة ٥١٣
﴿سورة البينة﴾ ٥١٣
الآيات: ١ ــ ٥ .... ٥١٤
الآيات: ٦ ــ ٨ .... ٥١٧
﴿سورة الزلزلة﴾ ٥١٨
الدرس التاسع بعد الثلاثمائة ٥٢١
﴿سورة العاديات﴾ ٥٢١
﴿سورة القارعة﴾ ٥٢٣
﴿سورة العصر﴾ ٥٢٥
﴿سورة الهمزة﴾ ٥٢٧
الدرس العاشر بعد الثلاثمائة ٥٢٩
﴿سورة الفيل﴾ ٥٢٩
﴿سورة قريش﴾ ٥٣٥
الدرس الحادي عشر بعد الثلاثمائة ٥٣٧
﴿سورة الماعون﴾ ٥٣٧
﴿سورة الكوثر﴾ ٥٣٨
﴿سورة الكافرون﴾ ٥٣٩
﴿سورة النصر﴾ ٥٤١
﴿سورة المسد﴾ ٥٤٣
﴿سورة الإخلاص﴾ ٥٤٥
﴿سورة الفلق﴾ ٥٥١
﴿سورة الناس﴾ ٥٥١
مناسبة لطيفة ٥٥٦
خاتمة ٥٥٩